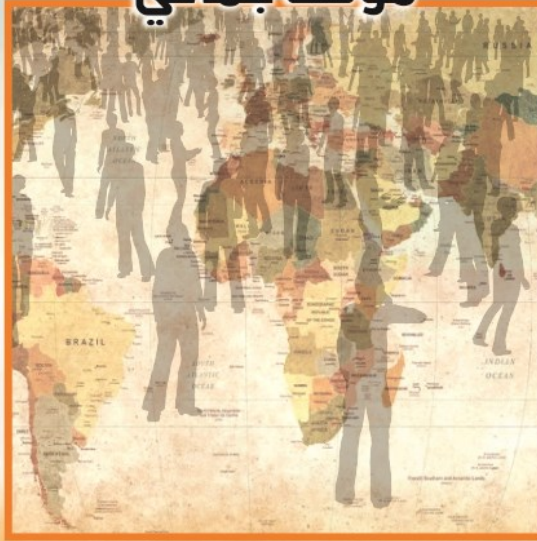




أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا؟

مؤلف جماعي



تنسيق:

سعيد الحاجي

المشاركون:

إبراهيم القادري بودشيش - محمد حبيدة - عبد الواحد أكمر
الطيب بياض - البضاوية بلكمال - محمد الأزهر غربي
مشير ياسيل عون - أسامة الزوكاري - سعيد الحاجي - محمد مزيان

صيف عام 2020

إهداء

إلى روح المؤرخ المغربي

المرحوم الأستاذ

محمد الأبيخ البراز

الفهرس:

تقديم.....	5
أي دور للمؤرخ في فهم أزمة جائحة كورونا؟ ترتيبات نظرية وإجرائية لبناء عتبة الفهم الأولي.....	
إبراهيم القادري بوتشيش.....	11
الكوليرا والكورونا من الحدود البيولوجية إلى العولمة الفيروسية.....	
محمد حبيدة.....	37
الجوائح وجدلية الدولة والحضارة.....	
عبدالواحد أكمر.....	51
التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال.....	
الطيب بياض.....	75
"الكورونا" وأخواتها في سياق التاريخ.....	
محمد الأزهر غربي.....	99
هل استعادة المؤرخ لما حدث في الماضي سيفيد في فهم ما يجري زمن "كورونا"؟.....	
البضاوية بلكامل.....	129
الكورونا واستهضات العقل الإنساني.....	
مشير باسيل عون.....	163
جائحة كورونا.. بين درس التاريخ والعودة للفردانيات.....	
أسامة الزكاري.....	197
السلوك التضامني خلال أزمة كورونا: التاريخ مدخلا للفهم والتفسير.....	
سعيد الحاجي.....	209
المؤرخ وجائحة "كوفيد 19": ملاحظات أولية.....	
محمد مزيان.....	229
مرض كوفيد-19 عام 2020: قراءة في الإحصائيات الطبية والتجارب العلاجية.....	
ابراهيم أوباها.....	
الحسين المكحول.....	
مبارك أركوكو.....	261

تقديم:

بعدما اكتسب فيروس كورونا المستجد طابعه الكوني، أغلقت مختلف دول العالم حدودها، وأخضعت شعوبها لتدابير وقائية صارمة على رأسها الحجر الصحي، الذي ألزم الناس بيوتهم وسط المخاوف من التعرض للإصابة بالوباء. في هذه الظروف، لم يعد العالم فقط أمام أزمة صحية، بل أمام أزمة كبرى متعددة المستويات، اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية... الشيء الذي حرك المتخصصين في مختلف المجالات لمناقشة مظاهر الأزمة وتداعياتها الحالية والمستقبلية، وذلك بدرجة متفاوتة اختلفت حسب قوة كل مظهر من مظاهرها.

وإذا كان التفاعل الآني مع الأحداث الكبرى في العالم مألوفا من طرف المتخصصين في بعض الحقول المعرفية، كالاقتصاد والقانون وعلم النفس والاجتماع والعلوم السياسية وغيرها، فإن الانطباع السائد بخصوص حقول أخرى مثل حقل التاريخ، يجعلنا أمام فكرة سائدة تعتبر المؤرخ غير معني بالتفاعل مع الحدث الآني، وهو ما قد ينطبق على أزمة كورونا الحالية. ومن هنا تأتي مشروعية السؤال: أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا؟

لا يتعلق الأمر بمحاولة فهم الأزمة لذاتها، لأن الأمر ينطوي على مخاطر منهجية بالنسبة للمؤرخ، أهمها خطر التفسير بالاستناد على معطيات ظرفية قابلة للتغير في أي لحظة. بل بمحاولة فهم تداعيات الأزمة على مختلف المستويات انطلاقاً من الأزمات المماثلة التي عرفها التاريخ، فتفسير عدم انضباط المجتمع لتدبير وقائي معين، قد يجد نفسه في خلفية ثقافية تشكل امتداداً لبنية تشكلت على مدى عقود أو قرون (قدريّة الإصابة على سبيل المثال)، وتدخل الدولة لتعزيز حضورها في المجتمع عبر رجال السلطة، يحيلنا على أدوار ثابتة للدولة وبِنفس الآليات في أزمات مماثلة خلال فترات تاريخية سابقة. ومحاولة استشراف مستقبل العلاقات بين الدول، يجعل من المعطى التاريخي عاملاً مهماً في تحديد طبيعة التحول الذي قد تفرزه أزمة كورونا على هذا المستوى. كما أن غياب تمثيل المجتمع لحالة الوباء الكوني، يجعل المؤرخ مؤهلاً أكثر من غيره لتشكيل هذا التمثيل لدى المجتمع، انطلاقاً من قدرته على استحضار أزمات الماضي واستخلاص معالمها بما يتوفر عليه من أدوات منهجية. كل هذا مع التأكيد على أن هناك من الباحثين، من سيرى بأن مساهمة المؤرخ قد لا تفضي بالضرورة إلى فهم يذكر للأزمة إلا بعد مرورها بفترة وظهور كل التفاصيل المرتبطة بها.

إن المساهمات التي قدمها بعض المؤرخين في النقاش الدائر اليوم، سواء تعلق الأمر بالندوات التفاعلية على الأنترنت والتي عوضت الندوات الحضورية الفعلية للباحثين، أو تفاعلات المؤرخين مع وسائل الإعلام وغيرها، هي مساهمات تستحق توثيقها في كتاب جماعي، نظرا لأهميتها في تحديد طريقة تفاعل المؤرخ مع حدث آني كوني، لم يسبق أن خلف نفس التأثير على كل شعوب العالم في نفس المرحلة الزمنية. وهو ما قد يعطي للأجيال اللاحقة من الباحثين فكرة عن الزوايا التي يمكن للمؤرخ من خلالها أن يتفاعل مع الأحداث المماثلة، أخذا بعين الاعتبار أن حدثا بهذه الخصوصيات وبطابعه الكوني قد يتكرر أكثر من مرة، وقد لا يتكرر أبدا.

لا يتعلق الأمر في هذا الكتاب الجماعي بدراسات أكاديمية تتعلق بتاريخ الأوبئة في المغرب والعالم، بقدر ما هي مقالات تأملية لعينة من المؤرخين الذين ينتمون إلى أجيال مختلفة ومباحث تاريخية متنوعة، الهدف منها الإجابة على السؤال المطروح بخصوص دور المؤرخ في فهم الأزمة إلى جانب المتخصصين في الحقول المعرفية الأخرى، وكذلك توثيق التفاعل الآني للمؤرخ معها، والذي يهدده خطر التواري خلف ما سيكتبه المؤرخون بعد اكتمال الصورة وعودتهم إلى مكانهم الذي يراه البعض طبيعيا بعد توفر المسافة الزمنية الكافية مع

الحدث.

انطلقت الأجوبة على السؤال المطروح في هذا الكتاب من زوايا متعددة، فابراهيم القادري بودشيش ذهب إلى أن دور المؤرخ في فهم أزمة كورونا يتحدد أنيا في محاولة بناء عتبة الفهم الأولي للأزمة، عبر مجموعة من الترتيبات النظرية والإجرائية، بينما اختار محمد حبيدة وضع أزمة كورونا في سياق المقارنة مع وباء الكوليرا لإبراز الانتقال من الحدود البيولوجية إلى العولمة الفيروسية. فيما فضل عبد الواحد أكمير الانطلاق من زاوية تأثير الجوائح على الدولة والحضارة لاستشراف تأثير وباء كورونا على البنيات السياسية للدول والحضارات. أما الطيب بياض فبقي وفيا لانشغالاته المنهجية المتعلقة بالتاريخ الراهن، وطرح مسألة التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال. واختار محمد الأزهر غربي العودة لسياقات الأوبئة عبر وضع وباء كورونا في سياقه التاريخي إسوة بالأوبئة المماثلة التي عرفها التاريخ. وكان تاريخ الفلسفة حاضرا عبر ميشيل باسيل عون الذي حاول رصد دور أزمة كورونا في استنهاض العقل الإنساني، بينما حاول أسامة الزوكاري فهم مسألة العودة إلى الفردانيات في زمن الوباء. وكانت البضاوية بلكامل واضحة في طرح سؤالها حول جدوى العودة إلى التاريخ لفهم ما يجري خلال أزمة كورونا. وقدم محمد مزيان ملاحظات

أولية حول علاقة المؤرخ بكوفيد 19. أما سعيد الحاجي فقد اختار إبراز دور التاريخ في فهم وتفسير السلوك التضامني للدولة والمجتمع خلال أزمة كورونا. وقد ختمنا هذا العمل الجماعي بقراءة في المعطيات الإحصائية والتجارب العلاجية المتعلقة بوباء كورونا إلى حدود تاريخ صدور الكتاب، والتي أنجزها إبراهيم أوباها والحسين المكحول وامبارك اركوكو، لكي يكون القارئ أمام صورة واضحة لطبيعة الوضع الوبائي الذي استلزم انخراط المؤرخ إلى جانب غيره من المتخصصين في محاولة فهم الأزمة.

إجمالاً، فإن هذا العمل الجماعي يسعى إلى تقديم فكرة محورية تتمثل في ضرورة توثيق حضور المؤرخ في الأحداث الراهنة، والتشجيع على مراكمة ما يرتبط بهذا الحضور، فالمؤرخ وإن كان يضطلع بمهمة كتابة التاريخ انطلاقاً من مسافة معينة، سواء كانت زمنية أو منهجية، فإن هذا لا يعني غياب إمكانية تفاعله مع الحاضر بقدر تفاعله مع الماضي.

وفي الختام، أود التعبير عن امتناني وشكري للأساتذة الذين دعموا فكرة هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذ عبد الرحيم العلام منسق المجلس العلمي لمركز تكامل للدراسات والأبحاث، والمؤرخ المغربي الأستاذ الطيب بياض على مقترحاته القيمة ومواكبته للعمل منذ بداية إنجازه على أرضية الندوة

التفاعلية التي نظمها المركز في نفس الموضوع، وكذلك المؤرخ المغربي الأستاذ إبراهيم القادري بودشيش على تصويباته وتوجيهاته الدقيقة، إضافة إلى كل الأساتذة المشاركين بمقالاتهم، والذين شجعوا فكرة التأسيس لكتابات تفتح باب النقاش حول التاريخ الآن وأهميته. والشكر موصول أيضا إلى باقي أعضاء الفريق الذي انتدبه المركز للإشراف على هذه السلسلة، الأساتذة: دة، نجاة عماري، د. حفيظ هروس، د. ربيع أوطال. وكذلك مصمم الغلاف السيد عبد الخالق الطلال ومطبعة قرطبة بأكادير.

سعيد الحاجي

القصر الكبير، في 07 غشت 2020



أي دور للمؤرخ في فهم أزمة جائحة كورونا؟

ترتيبات نظرية وإجرائية لبناء عتبة الفهم الأولي

إبراهيم القادري بوتشيش

جامعة مولاي إسماعيل بمكناس



لم يسلط الضوء على سؤال الأوبئة والجوائح في الإسطوغرافيا التاريخية المغربية إلا في دائرة ضيقة تتسم بالمحدودية والابتسار، وسقف لا يتجاوز الشذرات والنتف المتفرقة. فإذا استثنينا ابن خلدون¹ وابن الخطيب² وغيرهما من المؤرخين الذين يعدّون على رؤوس أصابع اليد، فإن الوباء ظل هامشيا ومعزولا في ثنايا السردية التاريخية. بل إن "الخبر الوبائي" لم يحتل سوى موقع هامشي لدى المؤرخين الآخرين الذين حشروه في خانة الأخبار العامة، ووضعوه ضمن النصوص "الباردة"، بعيدا عن حرّ المعارك، لذلك غالبا ما كان يتم تأجيل ذكرها حتى آخر أحداث سنة من السنوات، أو في آخر مفاصل الروايات الخاصة بعهد ملك من الملوك أو الأمراء الذين أرخوا لهم، من دون أن يحتلّ الوباء في منهجيتهم مركزية الخبر التاريخي، أو يوضع فوق مشرحة التحليل والتفسير، أو يخضع لعملية الفهم والاستيعاب والتدقيق واستخراج

¹ تعرض عبد الرحمن بن خلدون لذكر الطاعون الجارف الذي حلّ بالمعمور خلال القرن 8 هـ/ 14 م في كتاب المقدمة، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ)، ص 32 - 33.

² عرف لسان الدين باهتمامه بالطب، وله عدة كتب في هذا الحقل العلمي منها على سبيل المثال لا الحصر: "عمل من طب لمن حبّ"، و"الوصول لحفظ الصحة في الفصول"، و"كتاب في علاج السموم". لكن أهم كتبه في الطب تتمثل في "مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل" التي كتبها عن الطاعون الجارف الذي هزّ العالم في منتصف القرن 14 م/ 8 هـ، ودام زهاء سنتين. وانتهى من تأليفها سنة 761 هـ. والمقالة حققتها الباحثة حياة قارة، وصدرت عن دار الأمان، الرباط، 2015.

الخلاصات، مما لا يسمح للباحث بوضع اليد على الضوابط والآليات المتحكمة في فهم تاريخ الأوبئة.

يختلف الحال في التاريخ الراهن، حيث أصبح وعي المؤرخ أكثر نضجا، وأكثر انفتاحا وتفاعلا مع قضايا عصره بفضل تأثير الثورات المنهجية، وتسيّد التكنولوجيا الرقمية، وتحولات المعرفة التاريخية، وتداخل العلوم وتطور حقول المعرفة. ومن هذا المنطلق يتأسس السؤال الذي طرحه مركز تكامل للدراسات والأبحاث: أي دور للمؤرخ في فهم أزمة جائحة كورونا؟، وهو السؤال الإشكالي الذي سندعى من خلاله إلى كشف الخيوط النازمة لعملية فهم أبعاد هذه الجائحة، وتقديم بعض الأجوبة الممكنة عنها.

أحسب أن السؤال المثار ذو طبيعة مركبة، فهو يروم إعادة التفكير في مسؤولية المؤرخ وانخراطه وتفاعله مع قضايا مجتمعه، وعدم بقائه في مقعد المتفرج أو المراقب عن بعد، ومن ثمّ توسيع مساحات حضوره في الحراك المدني والنقاش المجتمعي، حتى يكون له دور ملحوظ، وصوت مسموع في المجتمع، وهي المسؤولية التي دافع عنها بحرارة "مارك بلوك" الأب الروحي لمدرسة

الحوليات¹. كما يسعى السؤال في الوقت ذاته إلى استكشاف آليات الاشتغال المنهجي التي تتيح للمؤرخ بناء رؤية لفهم أزمة جائحة كورونا، وتلمّس خيوط الأجوبة الممكنة، لما يحتمل أن تفرزه من تغيّرات في شكل الخريطة الجيو-سياسية، وما يرتبط بذلك من أسئلة التاريخ الراهن، لاستشراف ما يلوح في أفق مستقبل العالم، لأن الأزمات لا تمرّ دون أن تنحت تغيّرات وتقلبات لا في الزمن البشري فحسب، بل أيضا في آليات وطرق التفكير.

تأسيسا على ذلك، فإن بناء محاور الفهم لأزمة جائحة كورونا يحتاج في تقديري إلى ترتيبات نظرية، وإلى تفعيل إجرائي تطبيقي.

1- فرضيات وترتيبات نظرية للوقوف على عتبة الفهم الأولي لأزمة جائحة

كورونا:

حتى لا نظلم المؤرخ، ولا نضخم دوره ونكلفه ما فوق طاقته في فهم جائحة كورونا، لا أعتقد أن المطلوب منه هو الفهم الصحيح لهذه الأزمة، بل

¹ يقول مارك بلوك حول مسؤولية المؤرخ وتفاعله مع قضايا مجتمعه، وما اعتبره مسؤولية أخلاقية: ((إذا كانت الحقيقة غاية علم التاريخ، فإن الأخلاق هي منتهاه)). ينظر: Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien, Arman Colin, Paris 1993, p 28. ويعتبر أن ((العلم التاريخي لا يكتمل الا في الاخلاق)). ينظر مقدمة جاك لوجوف لكتاب مارك بلوك في ترجمته العربية: دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ، ترجمة أحمد الشيخ، القاهرة 2013، ط2، المركز العربي للإسلامي للدراسات الغربية، ص 75.

فهمها بطريقة صحيحة، وهو ما يستلزم التآني والتروي والانضباط، ومحاولة التشخيص والتعقل القادر على تفكيك الحدث، وفحص مكُوناته، وتحديد السياقات المؤطرة له، والتعلق بكل آليات الفهم وتشبيكاتها، لفرز الأصوب منها، وتركيب بناء مقبول في التفسير.

إن فهم مثل هذه الأحداث المفصلية في التاريخ، يبدأ - فيما أرجح - بسؤال، وينتهي بتناسل أسئلة أخرى، دون الادعاء بالقدرة على تقديم جواب دقيق مكتمل الأركان، علما أن الفهم يصبح أكثر تعقيدا بالنسبة لحدث من طينة وباء كورونا الذي أحدث شرخا في رتابة مسيرة التاريخ الراهن، وصار لغزا محيرًا. لذلك فإن فهمه او بالأحرى إمكانية فهمه لا يخلو من مطبات، بسبب اللبس الذي يلقه، والاستعصاء على اختراق أسواره التي تحجب عن المؤرخ عددا من الحقائق المنظمة لعملية الفهم والإدراك. فالأزمات في التاريخ لا تقدم للمؤرخ معلومات ناضجة ومستوفية، بل غالبا ما تمدّه بمعلومات مبتورة أو مشوهة أو عصيّة على الفهم، مما قد يؤجل عملية الفهم إلى ما بعد نهاية الأزمة، وهو عادة ما يستحبه المؤرخ، لما يتيح ذلك من مهلة ومسافة للتفكير والتأمل.

كما أن وباء كوفيد 19 حدث آني بامتياز، لا يزال يتسم بفورانه، ولا

تزال لحظاته في طور التشكّل بإيقاع سريع لا يسمح بالمراقبة الدقيقة. لذلك فإن فهمنا لمستغلقاته لن يتجاوز عتبة الفهم الأولي، في انتظار أن ينقشع الضباب، وتتضح الرؤية. ولعلّ أقصى سقف يمكن أن يبلغه المؤرخ في رحلة الفهم هو ما نعتة الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط بـ "الجرأة على الفهم"، لإدراك الأحداث وتفاعلاتها، وتقديم التشخيص الأولي من أجل فهم أفضل للأزمة، دون الزعم بإمكانية تقديم إجابات دقيقة.

مع ذلك، ثمة محددات أرى أنها تشكّل خيوطا موجهة لآليات فهم أزمة كورونا، وترتيب خريطة طريق تحليلها:

- أولا: إن المؤرخ بحكم مهنته، ومسؤوليته الأخلاقية التي دافع عنها مارك بلوك، جعل هذا الأخير حسب تقريض جاك لاجوف لكتابه، قادرا على ((تحويل واقعه المعيش إلى مادة للتفكير التاريخي))¹، مما يعني أن عطاء الواقع، ومعايشة المؤرخ له، يجعل الحدث المعاش يصبح مادة للتفكير والتأمل بالنسبة له، وهو ما ينطبق على علاقة المؤرخ بالبواء الذي يعيش هذه الأيام لحظاته، مما يشكل لديه موضوعا دسما للتفكير والفهم والاستيعاب.

¹ ينظر أيضا المقدمة التي كتبها جاك لوجوف حول الكتاب السالف الذكر، دفاعا عن التاريخ،م.س، ص 57.

- ثانيا: إن وباء كورونا حدث معاش Événement vécu، لا يزال المؤرخ يعيش في قلب حركيته، ويحيا لحظات أهواله بالساعات والدقائق، ويقرأ عن قرب انعكاساته وتأثيراته في وجدان الناس ومشاعرهم، ويتابع عن كثب تطوراتهِ وخرائطهِ المتغيرة والمتوترة أحيانا بفعل الصدمة الفجائية التي يعرفها التاريخ البشري في هذه اللحظة. لقد وجد المؤرخ نفسه فجأة لصيقا بالحدث، غير مغترب عن الزمن الذي يؤرخ له. إنه حدث لحظي يطرح سؤالا راهنيا على لحظة تاريخية ساخنة، تجعل منه مؤرخا أنيا بامتياز، وكلما كان المؤرخ قريبا من الحدث، كانت مصادره وآليات اشتغاله أكثر وفرة وحظا للفهم والاستيعاب.

- ثالثا: إن زمن كورونا زمن غير طبيعي، بل يمكن وصفه بأنه زمن غريب، زمن ما فوق المألوف، تغيرت فيه المفاهيم والسلوكات الطبيعية، وانقلبت فيه المعادلات، حيث ساوى بين الطبقات، بل وحتى بين الدول، فلم تعد الفوارق بين الدول المصنعة والفقيرة، حيث أصبح الجميع على قدم المساواة في الضعف وقلة الحيلة أمام فيروس دقيق لا يرى بالعين المجردة، مما هزّ اليقينيات والنزعات الوثوقية والمسلمات ومنطق العقل المطلق. ولا ريب أن هذه المعطيات غير المألوفة في مرحلة تاريخية غريبة، يهيج غريزة الفهم لدى المؤرخ، وينشط مسالك تفكيره لتفسير ما يحدث، دون أن يجراً على استخلاص الأجوبة

الحاسمة بسبب خروج المرحلة عن دائرة اليقين، وإمكانية اختراق التفسيرات الغيبية لهذه الدائرة.

- رابعا: إن الحجر المنزلي الذي يعيشه المؤرخ وغيره من خدام المعرفة هذه الأيام، هو فرصة للتفكير والتدبر، فالانعزال والتأمل عادة ما يزيد من طاقة العمق الفكري، ويساهم في إتقان الأسئلة وبناءها بناء سليما، ويحفّز على متابعة الموضوع بدقة، وبعين فاحصة من أجل الفهم وإعادة الفهم. ألم يكن الحجر الصحي الذي خضع له العالم الفيزيائي "إسحاق نيوتن" إبان اجتياح وباء الطاعون مدينة لندن سنة 1665، وانعزاله في الريف مدة 18 شهرا، فرصة ذهبية اكتشف خلالها أشهر نظرياته العلمية كحساب التفاضل والتكامل، وقوانين الحركة والجاذبية كما أكدت ذلك الكاتبة "ميغان جونز" في تقرير نشرته مجلة "ريدز دايجست" الأميركية¹. ألم يقدم أشهر الفنانين والمبدعين لوحاتهم الفنية في عزّ أوبئة الطاعون كإدوارد مونش Edvard Munch صاحب لوحة "بورتريه شخصي مع الأنفلوانزا الإسبانية" وسالفاتور روزا Salvator Rosa وغيرهما، ناهيك عن المسرحيات والأعمال الروائية التي ولدت

¹ Meghan Jones, « 8 Geniuses Who Made History in Quarantine », *Reader's Digest. In* : <https://www.rd.com/list/geniuses-in-quarantine/>

من رحم أوبئة الطاعون كما تشهد بذلك أعمال وليام شكسبير الذي نسج أجمل رواياته المسرحية إبان الطاعون الذي عصفت ببريطانيا في أواخر القرن 16م¹. فالحجر الصحي في هذا السياق يشكل فرصة علمية للمؤرخ كغيره من المفكرين للتأمل والتفكير، بغية فهم الوباء وقراءته قراءة تاريخية صاحبة وعميقة.

- خامسا: إن مراحل الأزمات التي تسببها الأوبئة والمجاعات أو الحروب، تؤدي في الغالب الأعم إلى تكسير رتابة التفكير والقيّم الجاهزة، وتجنح نحو إبداع أسئلة جديدة، وابتكار رؤى إضافية تتقوى من خلالها ملكة التفكير والفهم لدى المؤرخ. إنها لحظة الرجة التي يستيقظ فيها العقل من جديد، ويراجع ذاته، ويعيد ترتيب الأولويات. فالإنسان كما يرى المفكر الفرنسي جيل دولوز Deleuze، لا يفكر إلا عندما يكون في عنق الزجاجة، وفي زمن المحن والأزمات. ولعلّ ما كتبه المؤرخ العربي ابن خلدون في "المقدمة"²، والمؤرخ والفيلسوف الإيطالي "جيامباتستا فيكو" في "أصول العلم الحديث"³، والمؤرخ

¹ Ibid, «8 Geniuses....» op.cit.

² ابن خلدون، المقدمة...، المرجع السابق والصفحة نفسها.

³ Vico, Giambattista, **Principi de Scienza Nuova**, (Classici Vol. 142) Formato Kindle 1725.

الفرنسي "مارك بلوك" في " مهنة المؤرخ" ¹ وغيرهم، قرائن تؤكد ارتباط الأزمة بيقظة عقل المؤرخ، وصقل ملكته الفكرية للفهم.

ويخيل إلينا أيضا أن قراءة أزمة كورونا هي قراءة مفتوحة تنتظمها خيوط متشابكة، يمكن أن تتمّ عبر مجموعة من دوائر الفهم، وترتب بناء على مجموعة من الفرضيات، منها أن هذا الحدث حدث كوني لا يمكن فهمه إلا في سياق عالمي متصل، أصبح يعرف في قاموس المؤرخين بالتاريخ المتصل ² Histoire connectée، وهو ما يمكن من فهم سرعة انتشار الوباء في جهات العالم الأربع انتشار النار في الهشيم. لذلك فالأمر في تقديري يستدعي فهم الجائحة ضمن منظومة "الزمن العالمي" الذي أصبحت الحضارات تعيش فيه كزمن بشري متزامن على الكرة الأرضية. وأحسب أن هذا المنظور النسقي الكوني يجعلنا نتجاوز الفهم السطحي المبني على قضايا جزئية ومبعثرة ...

وتقوم فرضية الفهم الثانية على أساس أن سؤال فهم أزمة كورونا هو سؤال إبستمولوجي يستدعي استنطاقه منهجيا من خلال مجموعة من

¹ Bloch, Marc, *Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien*, op.cit.

² أحيل هنا على المقال المفيد حول التاريخ العالمي المتصل على:

Douki Caroline, Minard Philippe, «Histoire globale, histoires connectées: un changement d'échelle historiographique? Introduction», *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, 5/2007, n° 54-4bis, p. 7-21

المقاربات، منها على سبيل المثال: هل تفهم هذه الأزمة الوبائية كحدث ظرفي؟ أم أنها وليدة بنية تمتد في الزمن الطويل؟ وما علاقتها بالزيف الديموغرافي الذي تخلفه على مستوى الطاقة البشرية والانكماش الاقتصادي وخراب العمران؟ وهل تندرج ضمن قوانين الحتمية التاريخية التي تفسر الأحداث الكبرى في سياق إيقاع يسير وفق خطاطة زمنية عالمية تتحكم في مسار وانعطافات التاريخ البشري وفق ما تقول به المدرسة المادية التاريخية؟ أم أن مجرى التاريخ يتغير من وضع لآخر دون أن يخضع لسنن أو قوانين كما ذهب إلى ذلك "بول ريكور"¹، و"كارل بوبر"² اللذان اعتبرا مقولة قوانين التاريخ كبوة معرفية تنافي العلم؟

وفي نفس المنحى، نتساءل حول إمكانية فهم أزمة كورونا من مرجعية السؤال الحضاري انطلاقاً من المنظور الخلدوني الذي يعتبر الأوبئة عاملاً مفسراً لصعود وسقوط امبراطوريات وحضارات فشلت في السيطرة على الوباء، مما أحدث تحولات تاريخية لم يغفل ابن خلدون وضع إصبعه عليها

¹ درويش، حسام الدين، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار، ط1، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت: 2016، ص404.

² بوبر، كارل، بؤس الإيديولوجيا: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، ترجمة عبد الحميد صبرة، دارالساقى، بيروت (1992)، ص 146.

من خلال سرده خبر وباء الطاعون، واعتباره عاملا حاسما في تحولات التاريخ

البشري في القرن 14م كما يتجلى ذلك في كلماته المختصرة والمعبرة:

((... وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض...، وإذا

تبدلت الأحوال جملة، فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره،

وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث، فاحتاج لهذا العهد من يدون

أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها¹)).

فضلا عن ذلك، هل نبي فرضية فهمنا لأزمة كورونا على محك السؤال

الوجودي؟ خاصة أن الإنسان في زمن الأوبئة يكون على خط التماس بين البقاء

والموت، وتكون نفسه في لحظة هروب وشيك من الجسد المحتضر. لذلك يفهم

الوباء في هذه الحالة بوصفه خطأ رقيقا يفصل بين الفناء والاستمرار، ومن

ثمّ يمكن أن يكون سلطان الخوف من الموت مصدر فهم للمؤرخ، قد يوظفه

لأجل الإمساك بمواقف وذهنيات غير مألوفة في السردية التاريخية في الزمن

الطبيعي.

في نفس السياق النظري، نتساءل هل يمكن فهم أزمة كورونا في سياق

¹ ابن خلدون، المقدمة....م.س، ص33.

سؤال الأخلاق الذي طرحه "مارك بلوك"، والقاضي بأن مسؤولية المؤرخ التي تفرضها أخلاقية حرفته¹، تتجلى في البحث عن الحقيقة التي لا تنفصل عن مبدأ الحق والعدالة. والحال أن نظام العولة المتسّيد اليوم، والقائم على الرأسمالية المتوحشة، غادر كليا دائرة الأخلاق، وأثر الريح على صحة البشر، وفرض تنميّطا ثقافيا سعى من خلاله إلى طمس القيم الإنسانية التي شيّدها الحضارات السابقة. ومن قلب هذه الدائرة اللاأخلاقية يتم تدفق المعلومات التي يبني عليها المؤرخ فهمه لأزمة جائحة كورونا. وبالتالي يصبح فهمه متأرجحا بين القيم الأخلاقية، والحقيقة والمراوغة، وصراع الخير والشر.

وعلى المستوى المنهجي، نرى أن لكل زمن سلطته المعرفية التي تنتج الخيوط النازمة للفهم. وقد جاء وباء كورونا في زمن تحوّلت فيه الثقافة إلى ثقافة رقمية توجهها تكنولوجيا المعرفة، واقتصاد المعرفة، ثم مجتمع المعرفة، ما يجعل العالم يتكلم بلغة جديدة ينبغي للمؤرخ استحضارها في آليات اشتغاله لإنتاج فهم أفضل لأزمة كورونا الحالية. لذلك عندما نقوم بفحص دور المؤرخ في فهم الأزمة على ضوء منظور مدرسة الحوليات الذي تأسس في مرحلة ثلاثينيات القرن الماضي، لا يمكن إلا أن يكون فهمنا قاصرا إذا اقتصرنا

¹ Bloch, Marc, *Apologie...* op.cit, p28.

على مفاهيمها فحسب، دون الاستناد إلى فائض المعرفة الذي أعقبها، على الرغم من أهمية منهج مدرسة الحوليات في استقصاء دور المؤرخ في فهم الأزمات. وآية ذلك أن العالم كائن متحرك دائم التغيير، يتجدد باستمرار، وتتجدد معه روح التاريخ ومناهجه، خصوصاً بعد أن تمّ الانتقال في ظلّ الجغرافيا الاتصالية (الكونكتوجرافيا Connectography) من المفهوم التقليدي للحضارات والدول، القائم على قاعدة الحدود، إلى حضارة الشبكات العالمية القائمة على بنيات الاتصال وسلاسل التوريد التي توحد الشعوب، وتضمن السيولة الاقتصادية انطلاقاً من القوة الناعمة القائمة على التواصل والاندماج، بدل الاحتلال العسكري التقليدي الذي ساد في القرن الماضي، وهو ما يعكسه نموذج طريق الحرير الصيني الرابط بين شنغهاي ولشبونة.¹ وعلى محك هذا التنافس الناعم بين القوى الدولية والحضارات، يمكن استحضار أسئلة حول أصل فيروس كوفيد 19، وهل هو طبيعي المنشأ، أم بيولوجي يسعى لصناعه الخوف والغلب؟، ومن ثمّ

¹ للتوسع في مفهوم الجغرافيا الاتصالية كنمط للاقتصاد التوسعي الناعم الرابط بين المدن الذكية الصناعية الكبرى، وكاقتصاد بديل في المستقبل، يراجع:

Parag Khanna, **Connectography: Mapping the Global Network Revolution**, Printed in USA , on acid free paper, First edition, Random House 2016.

وضع كل هذه الممكنات كفرضيات قابلة للنقاش. وأحسب أن المؤرخ لا يمكن أن يغفل هذا التحولات والسيناريوهات الممكنة في عملية الفهم والبناء لقراءة أزمة كورونا الحالية وإدراكها.

2- على مستوى الأجراء:

لا يتأتى فهم وإدراك أزمة كورونا اعتمادا على الخلفيات النظرية فحسب، بل يستدعي تدخّل المؤرخ لتطعيمها بإجراءات تطبيقية لتعميق الفهم. ومن بين النماذج التي تحتاج إلى الأجراء والتطبيق، إعادة قراءة النصوص الخاصة بماضي الجوائح والأوبئة على ضوء العلوم الحديثة، لاستخراج إحصائيات ومبيانات حول أعداد الموتى، وتحليل معدلات الفتك والإصابة، وطرق التصدي والمواجهة، ثم الوقوف على الغلاف الزمني الذي كان يستغرقه الوباء، وتحصيل المعدّل والنسب، وتحديد خرائط الانتشار المكاني، والانعكاسات الديموغرافية، بهدف المقارنة مع الوضع الوبائي الحالي، واستكشاف المعطيات وتوظيفها للفهم من زاوية تاريخية. كما يمكن استنتاج دلالات بعض الظواهر الثقافية المصاحبة للأزمة مثل ثقافة التضامن، خاصة في ظل الأزمة التي يشهدها المجتمع المغربي على غرار المجتمعات الأخرى. فاستعادة الذاكرة التاريخية لقيّم التآزر والتلاحم، قمين برفع منسوب السلوك

القيي داخل المجتمعات في مواجهة الأزمة الحالية، ورسم الخطوط الأولية لنظام القول في مواجهة الوباء من خلال التعااضد المجتمعي، والتلاحم الوطني. كما أن العودة إلى التراث مهم للفهم، وهي قاعدة سبق أن أثارها جورج هانز غادامير في كتابه " الحقيقة والمنهج"، وجعلها بمثابة بوصلة مرشدة للفهم (براديجم). فأى باحث – كما يؤكد- لا يستطيع الفهم، دون الاعتماد على إدراك مسبق لما يودّ فهمه¹؛ وبالتالي يتأسس فهم ظاهرة الأوبئة وما يتمخض عنها من أزمت- فيما نرى- من التصورات التي يستنبطها المؤرخ انطلاقاً من المرجعية التراثية في المجال الصحي.

وفي هذا المنحى، لا يمكن إنكار ما يتيح النبش في التراث من إمكانية استكشاف ما يزخر به من إسهامات وتجارب للوقاية من الأوبئة كالحجر الصحي الذي عاشه المغاربة كغيرهم من الشعوب في بعض مراحل تاريخهم²، والكمامات الوقائية التي ثبت استعمالها في المجال الحضاري الإسلامي للوقاية

¹ غادامير، هانز جورج، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، طرابلس: دار أوياء للطباعة والنشر والتوزيع 2007، ص 30.

² حول الحجر الصحي بالمغرب وموقف الفقهاء منه، يراجع: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992، مبحث " أدبيات الكرنيتنة"، ص 403- 406.

من الأمراض التي تسببها طرق الاشتغال في بعض المهن وفق ما تشير إليه كتب الحسبة حول صانع الخبز في المشرق الإسلامي والأندلس، إذ ورد في أحد مؤلفات الحسبة ما يلي: ((ولا يعجن إلا وعليه ملعبة ضيقة الأكمام، ويكون مثلثا أيضا، لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين))¹.

كما تمّ تطبيق قاعدة التباعد الاجتماعي ووسائل الوقاية الصحية والنظافة والتطهير التي أثبتت الأبحاث وجودها ضمن التنزيلات الطبية التي نهجها ابن سينا وغيره من أطباء العرب²، وغيرها من الابتكارات التي من شأنها أن تطور فهم المؤرخ لمختلف وسائل الوقاية من الأوبئة، والتي توصي بها حاليا منظمة الصحة العالمية، مما يجعل الماضي زمنا يعيش في قلب الحاضر.

¹ الماوردي، علي بن محمد بن حبيب الشافعي، الرتبة في طلب الحسبة، دراسة وتحقيق أحمد جابر بدران، مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، منشورات علاء سرحان، ط1، دار الرسالة، القاهرة 2002، ص 186. والملعبة معناه ثوب من غير كمّ حسب ما ورد عند المحقق.

وحول الأندلس، أنظر ما ذكره السقطي المالقي الأندلسي حول شروط الوقاية الصحية لمهنة الخبازين، كتاب في آداب الحسبة، نشره المستشرق ليفي بروفنسال، طبعة باريس 1931، ص 30، 31.

² البكري، عادل، "الطب الوقائي عند العرب"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء 2، المجمع العلمي/العربي، دمشق 1970، ص 273-274.

وفي سياق الإجراءات التطبيقية التي تشد فكر المؤرخ لفهم وإدراك أزمة كورونا، نحسب أنه ليس ثمة آلية إجرائية لفهم هذه الأزمة أكثر من إنصات المؤرخ إلى نبضات المجتمع في هذه اللحظة الفارقة، لأن في عملية الفهم تصبح كينونة الإنسان المبحوث عنه وعن تاريخه الداخلي (الأفكار والمشاعر والتمثلات) في عمق اهتمامات المؤرخ، وذلك من خلال متابعته لأحوال الناس ممن تعرضوا للبطالة، أو أقفلت محلات بيعهم، وتقييم وجس نبض عملية التعليم عن بعد، بإيجابياتها وسلبياتها، ورصد المواضيع الساخرة التي واكبت كورونا من نكت وطرائف، فضلا عن كافة أنماط الفعل التي تظهر في شكل قولي أو غير قولي، وكل ما يندرج في ما يسميه بول ريكور بـ "حضارة الكلام"¹، والتقاط هذه المشاهد بدقة، لأنها تحمل رسائل بلاغية تعبّر عن مواقف وذهنيات تجاه وباء كورونا، وتحتاج إلى تخزين فوري لذاكرة جماعية بالصوت والصورة، تستثمر في مرحلة التحليل والتفسير. وبنفس القدر، ينبغي أن يستغل كل ما ورد من معطيات وتدوينات في منصات التواصل الاجتماعي وغيرها من تقنيات التعبير، لكونها مكتبات حية تساعد على تخصيص مادته التاريخية وتخزينها تمهيدا لفهم هذه الأزمة.

¹ Ricœur, Paul, **Histoire et vérité**, 3ed, Seuil, Paris 1967, p263.

قد تكون أجراً بعض هذه التطبيقات تستلزم بحثاً ميدانية على عينة من الأفراد من خلال ما يعرف "بالوصف المكثف" Thick description، اعتماداً على وجهات النظر التي يعبر عنها المواطنون في تفاعلهم الاجتماعي مع هذه الجائحة. بيد أن البحوث الميدانية متعذرة اليوم بسبب الحجر المنزلي، لكن يمكن تعويضها بالوسائل التكنولوجية الحديثة والإمكانات الوسائطية المتاحة عبر تطبيقات الحواسيب المتطورة والهواتف الذكية. ولا شك أن نتائجها ستكون مؤشرات تساعد المؤرخ على الفهم.

وبالمثل، فإن فهم المؤرخ لجائحة كورونا يعتمد في جانبه التطبيقي أيضاً على المصادر الأساسية من إحصائيات ومؤشرات الأمن الصحي العالمي¹ (GHS index)، بالإضافة إلى الدراسات والأفكار التي طرحها المتخصصون والمفكرون الذين استطلعت آراؤهم حول هذه الجائحة²، وتوظيف كل هذه المعطيات وفق منهج استقرائي.

وأخيراً يبدو لي أن فهم المؤرخ لأزمة جائحة كورونا لا يكتمل من دون

¹ Global Health Security Index, in : <https://www.ghsindex.org/>

² ينظر المقال المنشور في مجلة Foreign Policy: "رؤى مختلفة لما سيبدو عليه العالم بعد «كورونا»، وفيه تمّ استطلاع المجلة لأراء عدد من المتخصصين في الاقتصاد العالمي حول مستقبل العالم في ظل جائحة كورونا: ينظر: الموقع الإلكتروني: <https://www.emaratalyoum.com/politics/news/2020-05-04-1.1344243>

محاولة استشراف المستقبل، إذ لا يمكن فهم هذه الأزمة بمعزل عن معرفة تداعياتها واحتمالاتها وتفاعلاتها عالميا، والتفكير مستقبلا بعقل جماعي تشاركي تبادلي. ومن هنا يمكن التخطيط لتكوين مختبرات جامعية تحت إشراف شعب التاريخ، تكون متخصصة في تاريخ الأوبئة، على أن يشارك فيها أيضا متخصصون في الطب، لأن ذلك يساهم في فهم تاريخ الأوبئة من زاوية طبية. كما يمكن لعلم النفس والسوسيولوجيا وغيرها من حقول المعرفة أن تقدم إضاءات وأشعة جديدة في الموضوع، تصبح فيها الحقول المعرفية المتنوعة سوقا مشتركة قائمة على التبادل والتفاعل.

وبهدف الرفع من جودة الفهم والإدراك لمفاتيح الأزمات كأزمة جائحة كورونا، ينبغي السعي إلى تكوين مؤرخ لا يحمل صفة الذات المؤرخة أو المفكرة فحسب، بل مؤرخ معلوماتي مندمج في العالم الرقمي. وإذا كنا قد طرحنا هذه الفكرة منذ عشرين سنة خلت في كتابنا "مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنت"¹، فقد أثبتت الأزمة الحالية أن فهم كورونا واستشراف ما سيتبعها من أحداث تاريخية كبرى، تتطلب مؤرخا متكيفا مع عالم جديد،

¹ إبراهيم القادري بوتشيش، مستقبل الكتابة التاريخية في عصر العولمة والإنترنت، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص 48 - 76.

عالم لم يعد يعتمد على المادة كرأسمال، بل على الافكار الرقمية، والبرامج المرقمنة التي بدونها ينخفض منسوب الفهم. وهذا ما يساعد على الرفع من قيمة التاريخ، وتسويق إنتاجه، ويسمح للمؤرخ بموطأ قدم بين المفكرين والمتدخلين في الشأن العام، بدل أن يبقى على قارعة الطريق.

حاولنا في هذا الدراسة التحليلية المتواضعة التي أسسناها على مصادر واجتهادات خاصة، رسم خريطة طريق للمؤرخ بغية فهم أزمة جائحة كورونا، وتحديد آليات الاشتغال المنهجي التي نرى أنها تقود نحو مسالك الفهم الصحيح، وتوظيف المعطيات الإيجابية التي تتيح له بناء رؤية سليمة لفهم هذه الأزمة، وتلمس خيوط الأجوبة الممكنة حولها. كما بيّنا في الوقت ذاته الصعوبات التي تعتور عملية الفهم، والملابسات التي تشوش عليها. وفي كل الأحوال، وبالنظر للبس والغموض الذي لا يزال يلفّ هذا الحدث المفصلي في تاريخ الإنسانية، فإننا توصلنا إلى نتيجة نعتبرها مؤقتة، مفادها أن فهم المؤرخ لهذا الأزمة الوبائية التي هزت مسار التاريخ البشري، لا يمكن أن يتجاوز في اللحظة الراهنة عتبة الفهم الأولي، في انتظار أن يبوح الحدث بكل أسرارهِ وأغازه مستقبلاً.

مصادر ومراجع البحث

باللغة العربية:

- ابن الخطيب، لسان الدين، مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق حياة قارة، دار الأمان، الرباط، 2015.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب المقدمة، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دون تاريخ).
- البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1992.
- البكري، عادل، "الطب الوقائي عند العرب"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، لجزء 2، المجمع العلمي العربي، دمشق 1970.
- بلوك، مارك، دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ، ترجمة أحمد الشيخ، القاهرة 2013، ط2، المركز العربي الإسلامي للدراسات الغربية.
- بوبر، كارل، بؤس الإيديولوجيا: نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، ترجمة عبد الحميد صبرة، دار الساق، بيروت 1992.

- درويش، حسام الدين، إشكالية المنهج في هيرومينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: نحو تأسيس هيرومينوطيقا للحوار، ط1، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت: 2016، ص404.
- استطلاع مجلة Foreign Policy لأراء عدد من المتخصصين في الاقتصاد العالمي حول مستقبل العالم في ظل جائحة كورونا نشرت تحت عنوان: "رؤى مختلفة لما سيبدو عليه العالم بعد «كورونا»"، في الموقع الإلكتروني:

<https://www.emaratalyoun.com/politics/news/2020-05-04-1.1344243>

- السقطي، المالقي الأندلسي حول شروط الوقاية الصحية لمهنة الخبازين، كتاب في آداب الحسبة، نشره المستشرق ليفي بروفنسال، طبعة باريس 1931،

- غدامير، هانز جورج، الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، طرابلس: دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع 2007.

- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب الشافعي، الرتبة في طلب الحسبة، دراسة وتحقيق أحمد جابر بدران، مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، منشورات علاء سرحان، ط1، دار الرسالة، القاهرة 2002.

باللغات الأجنبية:

- Bloch, Marc, Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien, Arman Colin, Paris 1993.
- Douki, Caroline, Minard Philippe «Histoire globale, histoires connectées : un changement d'échelle historiographique? Introduction», **Revue d'histoire moderne et contemporaine**, 5/2007, n° 54 - 4bis, p. 7 - 21.
- **Global Health Security Index**, in : <https://www.ghsindex.org/>
- Parag, Khanna, **Connectography: Mapping the Global Network Revolution**, Printed in USA , on acid free paper, First edition, Random House 2016.
- Meghan Jones, « 8 Geniuses Who Made History in Quarantine », Reader's Digest. In : <https://www.rd.com/list/geniuses-in-quarantine/>
- Ricœur, Paul, **Histoire et vérité**, 3ed, Seuil, Paris 1967.
- Vico, Giambattista, **Principi de Scienza Nuova**, (Classici Vol. 142) Formato kindle 1725.

منذ سنوات 1970، مع موجة التاريخ الاجتماعي والأنثروبولوجيا التاريخية، تعددت الدراسات عن الأمراض والأوبئة، من طاعون وكوليرا وجذري وتيفوس ومالاريا، وغيرها، بقلم مؤرخين محترفين ساهموا في توسيع دائرة الفهم، بعدما كان هذا الموضوع حكرا على الأخصائيين في العلوم الطبية والبيولوجية. مثلا، لما ضربت الإنفلونزا الإسبانية العالم سنة 1918، لاحظ الجميع كيف أن المرض عصف بالياfecين والشبان بينما سلّم منه الكهول والشيخوخ. وكان جواب المؤرخين محوريا بهذا الصدد، لما أبانوا عن أن وباءً مماثلا، وهو الإنفلونزا الروسية، كان قد اجتاح أوروبا قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة (عام 1889)، مما دفع بالمختصين في الطب وعلم الأحياء إلى استنتاج ما مفاده أن الشبان في نهاية القرن التاسع عشر كانوا قد اكتسبوا من جراء ذلك مناعة ساعدتهم على مقاومة وباء 1918 وهم كهول وشيوخ. ثم إن الحجر الصحي الذي عاشه العالم في ربيع هذا العام (2020) وتسبب في قلق الأهالي في مختلف أنحاء المعمور له جذور تاريخية، إذ يعود إلى العصر القديم، مع النهج الذي رسمه الطبيب الإغريقي أبقراط.

وقد تناولت هذه الدراسات التاريخية الوباء كظاهرة شاملة ذات تأثير على الاقتصاد والديموغرافيا والطبائع، وباعتباره عاملا محفزا على التطور

العلمي. ومعنى ذلك أنها أكدت على آليات التحول التي نقلت العالم الغربي من المقاربة الغيبية إلى المعالجة العلمية، والتي جعلت من الطب "تقنية" تستند إلى الملاحظة والتجربة، ابتداءً من عصر الصناعة، حيث ما فتئت أمور الصحة تتطور إلى وقتنا الراهن.

في عصر الصناعة هذا، أي في القرن التاسع عشر الذي يوافق الحداثة الكبرى وما خلقتة من تحولات في حياة الأوروبيين المادية، ظهر وباء الكوليرا الذي يسمّى أيضاً بالخوف الأزرق، حيث كانت تلعو الجلد زرقة بسبب الإسهال الحاد والقيء. وقد عصفت الكوليرا بحياة مئات الآلاف من البشر، في آسيا وأوروبا وشمال إفريقيا، ليس فقط عامّة الناس، من البروليتاريين، خاصة في أوروبا، الذين عاشوا خلال القرن التاسع عشر ظروفًا حياتية مزرية في المدن الصناعية نتيجة الاكتظاظ والسكن غير اللائق وقلة النظافة وغياب قنوات الصرف الصحي، بل خاصّة الناس أيضاً. الفيلسوف الألماني هيجل، مثلاً، كان قد ذهب ضحية هذا الوباء عام 1831، مثله في ذلك مثل العالم الفرنسي جون فرانسوا شامبليون الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية)، والمستكشف الملاحي الروسي فاسيلي غولوفنين. ففي عامي 1831 و1832 كانت الكوليرا، التي انطلقت من الهند وانتشرت باتجاه اليابان

والصين شرقا وأوروبا وبلدان الحوض المتوسط غربا، والتي نعتها ألكسندر مورو دو جونيس في التقرير المقدّم للمجلس الأعلى للصحة الفرنسي بـ "وباء الكوليرا الخبيث"، قد خدشت معالم هذه الحادثة وذكّرت الجميع بأهوال طاعون القرون الوسطى. باريس وحدها، في ربيع عام 1832، توفي بها 18402 شخص (من أصل 785862 نسمة).

ومن أوروبا انتقل وباء الكوليرا إلى المغرب عام 1834، بحكم الاتصالات التجارية مع بلدانها. وقد انكب عدد من الباحثين المغاربة على دراسة هذا الوباء الذي تسبب في موت "خلق كثير وجم غفير"، في مقدمتهم محمد الأمين البزاز، في كتابه "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب"، الذي أورد شهادة إخبارية تقول: "هو ربح ما سمعوا به، قاتل من حينه، ويسمونه عندنا في المغرب بأسماء الكوليرة والريح الأصفر وبوقليب.. إذا أصاب الرجل تغير لونه واسود جفن عينه ويجعله يقيء من أعلى ويسهل من أسفله، ومن الناس من يشتكي مع ما ذكر وجع رجليه ويموت في الحين".

لكن ما يحتفظ به المؤرخ، فيما وراء الشهادات، والإحصائيات التي صارت موثوقة في هذا الوقت، هو المآسي الاجتماعية الفظيعة التي أفرزها هذا الوباء، من موتٍ وتشرّدٍ وترمّلٍ وتيتّمٍ، والتي لم يستسلم لها المجتمع، حيث أبان

الناس عن قيم التضامن والتكافل التي وإن كانت تختلف باختلاف المجتمعات، فإن قيمها الإنسانية كانت كونيةً. هذا ما أبانت عنه عمليات علاج المرضى، ومساعدة الفقراء، وتبني الأيتام. كما لعبت السلطات دوراً كبيراً في التخفيف من معاناة الناس. في المغرب، مثلاً، كان المخزن يوزع الصدقات على المحتاجين، وفق إشارات الوثائق، ويعاقب المضاربين الذين كانوا يستغلون الأزمة لتخبئة المواد الغذائية والزيادة في أسعارها، كما كان يُسقط الضرائب على الأسواق، ويُخرج ما في مخازنه من حبوب لضمان وفرتها في الأسواق، وخلق توازن بين العرض والطلب.

ما يظهر من تجربة الأوبئة هذه، التي لا يتسع المقام للتفصيل في حيثياتها البيولوجية ووتيرة انتشارها وحجم نتائجها، هو أنها دشنت منذ كارثة الطاعون الأسود، خاصة في أوروبا، لمسلسلٍ من التحول الاجتماعي والفكري، وذلك بتفكك النظام الإقطاعي، والشك الذي صار يخيم على إيمان الناس بتعاليم الكنيسة، لأنها ظلت متمسكة بغيبٍ لم يُجدِ نفعاً. فقد مكنّ الوباء شيئاً فشيئاً من تعويض سلطة الرهبان بسلطة قوات حفظ الأمن التي استندت إليها الدول القومية الصاعدة، والتي كانت ضرورية لفرض الحجر الصحي كوسيلة فعالة للحد من انتشار العدوى عبر الاختلاط والاحتفاظ. وكانت "الكرنيتينة" التي

قضت، في القرون الوسطى، بحبس المطعونين في محلات سكنهم لمدة أربعين يوما تفاديا للعدوى، قد استُلِهمت من نهج الطبيب الإغريقي أبقراط الذي كان يرى بأن المرض لا يتطور بعد أربعين يوما من الانعزال. وقد تمت عمليات العزل هذه بقرار محلي من سلطات المدينة أو قومي مصادق عليه من طرف الدولة، كما حصل في إيطاليا وفرنسا. وما لبثت هذه الطريقة في مكافحة الوباء أن تعززت مع الوقت في معظم دول أوروبا إلى أن صارت سياسة رسمية في القرن التاسع عشر مع تفشي وباء الكوليرا، حيث شُددت المراقبة على الموبوتين، على الرغم من القلاقل الاجتماعية التي تسببت فيها عمليات العزل هذه. ثم تحول هذا النهج إلى سياسة دولية لما نادى فرنسا عام 1834 بتوحيد مقاييس الحجر الصحي، والتي لم يصادق عليها المجتمع الدولي إلا سنة 1851 خلال أول مؤتمر طبي عالمي انعقد بمدينة باريس.

لقد كان القرن التاسع عشر مفصليا في عملية مكافحة الوباء، إذ استطاع الأطباء، الذين تعاظمت سلطتهم بفضل تقدم العلم، معالجة المصابين بالكوليرا بطريقة مرتبطة بالبحث العلمي، حيث اتخذت هذه المكافحة شكل ثورة علمية مع عالمي البكتيريا، الألماني روبرت كُوشْ مكتشف "بكتيريا الكوليرا"، والفرنسي لويس باستور مكتشف التلقيح. منذ ذلك الوقت، أصبح

العنصر المرضي الرئيسي الواجب الاحتماء منه هو الميكروب الذي لا لون له ولا رائحة، والذي لا يمكن الكشف عنه إلا بواسطة المجهر. وبذلك تغيرت الممارسات الصحية رأساً على عقب، تعززت مع إقرار أولى عمليات الفحص المنتظمة والفعالة عند الدخول إلى نيويورك عام 1887.

هكذا، في هذا القرن، استطاع الغرب رسم حدود بيولوجية بين عالمين متفاوتين: عالم أوروبا وأمريكا الشمالية وحتى اليابان التي استطاعت اللحاق بالركب الغربي مع ثورة الميكي، من جهة، وباقي العالم (آسيا وإفريقيا) من جهة ثانية، حيث صارت الأوبئة ميدانا مواتيا للتعبير عن "تفوق" أوروبا العلمي، كما أبان عن ذلك باتريس بوردولي وجون إيف رولوفي دراسة تحت عنوان "الخوف الأزرق". وقد تجلّى ذلك من خلال إجراءات الحجر الصحي، والاكتشافات الطبية والمخبرية، والتجارب السريرية، والمؤتمرات الصحية الدولية التي انعقدت في كبريات المدن الأوروبية، والمجلات المتخصصة، والتجهيزات الصحية، التي جعلت من الطب مؤسسة قائمة على البحث العلمي. أما في المجتمعات الهندية والعربية الإسلامية، ومجتمعات أخرى في آسيا وإفريقيا، فقد ظل الناس أوفياء لطرق العلاج التقليدية ومتشبثين بالغيب. في المغرب مثلاً، عارض الفقهاء تدابير "الكرنطينة" التي سهر عليها المجلس الصحي الدولي

بطنجة، ومجالس أخرى مماثلة في تونس ومصر، حيث رأوا فيها "بدعة" وإجراء "ممنوعا عرفا وشرعا"، باعتبارها "اقتداءً بالأعاجم"، كما عبّر عن ذلك العربي المشرفي وأحمد بن خالد الناصري وأبو القاسم الزياني، إنكارا لحقيقة العدوى. مع موجة الاستعمار، عمّت الثورة العلمية الباستورية (نسبةً للويس باستور)، القائمة على أساس التشخيص والمجهر والتحليلات الطبية، أقطار عريضة من العالم. في المغرب مثلا، الذي عانى لقرون طويلة من الأوبئة شأنه في ذلك شأن باقي المجتمعات البشرية، لعب "معهد باستور"، الذي رأى النور بالدار البيضاء عام 1929 بمبادرة من الطبيب الفرنسي إميل رُو، دورا كبيرا في الانتقال من طب تقليدي إلى طب حديث. ويبيّن الباحث بوجمعة رويان في كتابه "الطب الاستعماري الفرنسي بالمغرب"، كيف أظهرت هذه المؤسسة للجميع تفوق العلم على الشعوذة والدجل، لما زوّدت المستشفيات والمستوصفات بكميات كبيرة من اللقاح، إذ وقّرت ما بين 1932 و1935 ما يقرب من أربعة ملايين جرعة لقاحية لأغراض طبية مختلفة، إيذانا بمرحلة جديدة اتسعت فيها دائرة عمليات التلقيح وآليات العلاج المرتبطة بالإسعافات والأدوية ولوازم النظافة في معالجة الأمراض والأوبئة.

ظهر التلقيح إذن، وتحسنت الخدمات الطبية وتضاعف عدد البشر.

وبعد الحرب العالمية الثانية، ازدادت ثقة الناس في العلوم البيولوجية والطبية، ونسوا كوارث الماضي الوبائية، خاصة لما اكتشف العلماء المضادات الحيوية، ورأت منظمة الصحة العالمية النور عام 1947، وتعددت اللقاءات العلمية عبر العالم ومعها تبادل الخبرات. وأبان التقدم العلمي عن فعاليته في مواجهة التهديدات الوبائية التي مثلها الإنفلونزا: الإنفلونزا الآسيوية (1957)، وإنفلونزا الخنازير في الولايات المتحدة (1976)، وإنفلونزا الطيور في هونغ كونغ (1997). وحدث ما لم يكن في الحسبان، حيث ظهر وباء جديد في متم عام 1919 بالصين: فيروس كورونا المستجد الذي أثار جدلا واسعا بين المختصين والمهتمين، وأربك حسابات الجميع، من عالم الاقتصاد إلى عالم السياسة.

لكن وباء اليوم يختلف عن وباء الأمس، لأنه كسّر "الحدود البيولوجية" التي أقامها الغرب في القرن التاسع عشر كما ذكرنا، وجمّع الدول المتقدمة والأقل تقدما في سلة واحدة، لعبت فيها العولمة دورا كبيرا، بواسطة الإعلام الدولي الذي نقل الهلع الذي تسبب فيه فيروس كورونا على الهواء مباشرة، وتتبعَ بؤر تفشّيه من آسيا إلى أوروبا فإلى أمريكا، مروراً بالحوض المتوسط وإفريقيا وباقي بلدان العالم. لقد لاحظ الجميع كيف تقاسم البشر عبر أرجاء المعمور، سلوكيات وتدابير وقائية جديدة في سياق الحجر الصحي الدولي، من

خوفٍ واحتياطٍ، وارتداءً للكمامة، وتباعدٍ بدني بين الناس، واجتنابٍ للمصافحات والقبلات، ونظافةٍ للأيدي، وغيرها.

غير أن هذا الوباء المسمى كوفيداً، يطرح على المؤرخ من الأسئلة أكثر مما يدفعه على إيجاد الأجوبة. هذا، لأن تفسير ما هوراهني ليس بالأمر الهين، لأن "مؤرخَ الراهنِ يجهل نتيجة ما يدُرُّسه"، كما يقول جون لاكوتير في بحث مرجعي عن "التاريخ الفوري". ومرد ذلك أن نقص المسافة الزمنية بين الدارس وموضوع الدراسة قد يحوّل التفسيرَ إلى تشخيصٍ، والتشخيصَ إلى تعليقٍ. وهما معاً، أي التشخيص والتعليق، لا ينجوان مهما غلبَ التفسير من التشويش الطبيعي الذي تمارسه تقلبات الساعة. ولذلك، يبقى المخرج هو السؤال، والسؤال التأويلي. مع تكنولوجيا الافتعال البيولوجي، ومع تضارب نتائج الأوراق العلمية المنشورة في المجالات المتخصصة، ومع المخططات الاستراتيجية التي تحاك بدوائر القرار في الدول العظمى، لا أحد يعرف حقيقة هذا الفيروس التاجي. هل الأمر يتعلق بحرب بيولوجية كما يقول البعض؟ هل تجربة ربيع 2020 مجرد تمرين لمواجهة الأسوأ في القادم من السنين، في شكل أمراض وأوبئة منحدرة من سائس كورونا-1 (كما حصل في أعوام 2002-2004، و2009، و2012)، والتي قد تُدخلنا في دورةٍ من فيروسات كورونا تحت مسمى

"الكورونات" أو "الكوارين" مثلما هو الأمر بالنسبة لطواعين الماضي، وفي عولمة فيروسية من شأنها أن تُفعّل المجتمعات والاقتصاديات على نحو دوري؟ وبغض النظر عن هذا السؤال أو ذاك، يبقى الدرس العملي والآني، على المستوى الوطني بالخصوص، هو درس الحياة، كون أن الاستثمار في البحوث الطبية والأساليب الوقائية المواتية والأنظمة الغذائية الصحية، هو السبيل الوحيد لمستقبل بيئي يضمن السلامة لجميع الأجيال.

مراجع:

- البزاز (محمد أمين)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992.
- رويان (بوجمعة)، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب، 1912-1945، الرباط نيت، 2013.
- فانيورون (فريدريك)، "الإنفلونزا الإسبانية: عودة إلى وباء 1918-1919"، ترجمة محمد حبيدة، منشورة بموقع مؤسسة مؤمنون بلا حدود، بتاريخ 15 أبريل 2020 (<https://www.mominoun.com>).
- المشرفي (العربي)، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، تحقيق الحسين الفرقان، الرباط، منشورات دار التوحيد، 2014.
- Bourdelais (P.) et Raulot (J.-Y.), *Une peur bleue. Histoire du choléra en France, 1832-1854*, Paris, Payot, 1987.
- Grmek (M. D.), éd., *Histoire de la pensée médicale en Occident*, Paris, Seuil (t. 1: Antiquité et Moyen Age; t. 2: De la Renaissance aux Lumières; t. 3: Du romantisme à la science moderne), 1995-1999.
- Lacouture (J.), «L'histoire immédiate», in J. Le Goff (dir.), *La Nouvelle Histoire*, Bruxelles, Editions complexe, 1988, pp. 229-254.

- Raoult (D.), *Epidémies. Vrais dangers et fausses alertes. De la grippe aviaire au Covid-19*, Paris, Michel Lafon, 2020.



الجوائح وجدلية الدولة والحضارة

عبدالواحد أكميز

جامعة محمد الخامس، الرباط



مقدمة:

هناك علاقة سببية بين الجوائح وبين الدول والحضارات، وهي علاقة معقدة ومتشابكة، ولا تعطي دائماً نفس النتائج. الضحايا المباشرون للجوائح هم المجتمعات، فهي تهاجم السكان الذين يشكلون تلك المجتمعات، ومنهم تتغذى. ولكنها في المرحلة المولية تهاجم الدول، وقد تضعفها وتغرس فيها بذور السقوط التدريجي، ولكن هذا ليس بالقانون الثابت؛ فالجوائح . خصوصاً العنيفة منها . قد تقوض دولاً، ولكنها كذلك قد تقوي دولاً أخرى، وهو ما يعني أن العلاقة التبادلية بينهما ليست محسومة، بل تدخل فيها عناصر مركبة ومعقدة، هي التي تحسم المعركة في الأخير.

هذا بالنسبة للدول، أما بالنسبة للحضارات فإن المواجهة تأخذ مساراً آخر؛ فالجوائح لا تستطيع قتلها مهما كانت شرستها، وإذا قتلها فذلك ليست بحضارات وإنما مجرد ثقافات. وسنقدم في هذه الورقة بعض الأمثلة المحسوسة للثقافة التي لا ترقى إلى مستوى الحضارة. عندما تشعر الحضارات أن الجوائح تهددها بالموت وتريد أن تفعل فيها ما فعلته في المجتمعات والدول، تفروتنجح دائماً في ذلك، لتصل إلى أماكن ليست فيها جوائح ولا خطر الموت. هناك تتخلى عن بعض خصوصياتها للتمكن من مواصلة إشعاعها في البيئة

الجديدة. وهذا يدخل في إطار الماهية الحضارية؛ فكل حضارة هي في حاجة إلى بذور الحضارات السابقة، لذا فالحضارة لا تلد ذاتها، بل تولد من خلال عملية اخصاب مع حضارة أخرى. قد تكون في نفس مستواها وقد تكون أقل أو أرقى منها. وذلك هو تلاقح الحضارات.

هذا الكلام النظري سأعتمده كآليات لتفكيك العلاقة بين الجوائح والدول والحضارات عبر التاريخ، منذ توفرت أقدم المصادر عن الجوائح وإلى اليوم، مع مراعاة الاختصار حتى لا تتجاوز هذه المقالة المجال المخصص لها.

1. الجوائح والحضارة اليونانية:

أقدم جائحة تتوفر على معلومات تاريخية بصدها هي حمى التيفويد التي ضربت أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، ونعلم عنها من المؤرخ "ثوقيديدس" الذي ترك معلومات عن الوباء وأثار في كتابه "تاريخ الحرب البيلوبونيسية". وقد قتل الوباء حوالي خمسين ألف شخص (ربع سكان المدينة)، أي أكثر مما قتلت الحرب. وكان هو العدو الفعلي الذي عرّض أثينا للهزيمة، وأفقدتها هبتها. ولكن الوباء وضع كذلك حداً لتلك الحروب بين المدن الدول، بل ولذلك التمزق السياسي في اليونان القديمة، لتحل محله في القرن الموالي دولة مركزية تعتبر واحدة من أهم الامبراطوريات في التاريخ، تلك التي

أسسها الإسكندر المقدوني. إمبراطورية قوضت بشكل كبير الإمبراطورية الفارسية بعدما جردتها من جل أراضيها في آسيا الصغرى. وقد كانت الأوبئة كثيراً ما تتفشى بين الجنود خلال الحملات التي قام بها الإسكندر المقدوني شرقاً وغرباً، ولكنها لم تستطع أن تقضي على الإمبراطورية، لأن قوة الدولة كانت أكبر من قوة الوباء، عكس ما كان عليه الحال في أثينا عندما ضربها الوباء.

هذا على مستوى الدولة، أما على مستوى الحضارة، فالأمر مختلف، فلما ضرب الوباء أثينا، كانت هذه الأخيرة تضع اللبنات الأولى للحضارة الإغريقية؛ فقد كان على رأسها "بريكليس"، واضع أسس الديمقراطية في العالم، ومؤسس مبدأ الأخلاق في السياسة. وقد وصل "بريكليس" إلى السلطة عن طريق الانتخابات، كعضو بـ "مجلس العموم" الذي يحكم الدولة، قبل أن يصبح رئيساً للمجلس. وحرص وهو في السلطة على ربط المسؤولية بالمحاسبة. وقد توفي بالوباء، ولكن موته لم يكن يعني موت حضارة أثينا، بل إن موروثها الحضاري هو الذي سيتم اعتماده لبناء الحضارة الإغريقية، والتي وصلت أوجها في القرن الموالي مع كبار الفلاسفة والأطباء مثل أبوقراط وسقراط وأفلاطون وأرسطو الذي يرجع إليه الفضل فيما اغترفه الإسكندر المقدوني من

فكر سياسي وفلسفي، لأنه أستاذه الأول الذي لقنه مبادئ العلمين وهو في مطلع شبابه.

2. الجوائح في الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية:

أخذنا كنموذج الطاعون الأنطوني وطاعون جستينيان، وضرب الأول الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي، وكان سبباً في مقتل الملايين¹. وقد سمي بالأنطوني نسبة إلى السلالة الأنطونية التي كانت تحكم آنذاك. تأثيره على الدولة كان قوياً في البداية، وكان سبباً في نهاية السلالة الأنطونية ووصول سلالة أخرى إلى الحكم. ولكن الدولة استعادت عافيتها بعد ذلك، بل وتوسعت شرقاً بشكل كبير. لذا فإن التغييرات السياسية العميقة التي ستحدث فيما بعد، مثل الانقسام إلى إمبراطوريتين (الرومانية الشرقية والرومانية الغربية)، ومثل سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، لم يكن سببه. المباشر على الأقل هو الوباء؛ فالانقسام إلى إمبراطوريتين كان بسبب الصراع على السلطة، وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية كان بسبب هجمات الشعوب الجرمانية. وقد حدث الانقسام بعد قرنين من الوباء، في حين أن سقوط

¹. كل الأرقام التي ترد في هذا المقال بخصوص عدد الضحايا يجب أخذها بتحفظ، فهي مجرد تقديرات من قبل المصادر التاريخية التي تحدثت عن الجوائح، وقد استقتها تلك المصادر من الذاكرة الجماعية التي تميل بطبيعتها إلى التضخيم.

الإمبراطورية الرومانية الغربية حدث بعد ثلاثة قرون من الوباء.

هذا بخصوص علاقة الجائحتين بالدولة، أما بخصوص علاقتهما بالحضارة، فلم يكن لهما عليها تأثير كذلك، وقد قاومت الحضارة الرومانية الغربية، بدليل أن "ماركوس أوريليوس" الذي حدث الوباء في عهده، يجسد قمة هذه الحضارة؛ فهو بالإضافة إلى كونه إمبراطوراً، يعتبر أحد أهم فلاسفة الإمبراطورية الرومانية، وكتابه "تأملات" (*Méditations*)، بقي لقرون، من أهم مصادر التشريع الروماني. وحتى عندما ضيق الطاعون الأنطونوني الخناق على هذه الحضارة خلال المراحل الموالية، فإنها فرت إلى مكان آخر، لتنبعث بقوة وعنفوان مع الإمبراطور "قسطنطين"، الذي نقل العاصمة إلى القسطنطينية، وكان ذلك يعني فجراً جديداً للحضارة الرومانية؛ لأنه ابتداءً من ذلك التاريخ، ستصبح المسيحية ولأول مرة ديانة الدولة، مع ما يمثل الدين بالنسبة لتشكيل الفكر الحضاري، بحيث تم صبغ الحضارة الرومانية بطابع مسيحي من خلال الفن والهندسة المعمارية، كما يظهر في الكنائس التي شيدت في تلك المرحلة. وكان انتقال هذه الحضارة إلى الشرق مع انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية، فرصة لامتزاج هذه الأخيرة بالحضارة اليونانية، بل وأصبحت الإمبراطورية الرومانية الشرقية الوارث الطبيعي لحضارة الإغريق.

بالنسبة لطاعون "جستينيان" (نسبة إلى الامبراطور "جستينيان") الذي ضرب الإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي، فقد ظهر في مصر قبل أن يمتد إلى بقية أنحاء الإمبراطورية، وقدر عدد ضحاياه بسبب طول مدته الزمنية بالملايين كذلك، وأحدث رجة في الدولة، لكنه لم يقض عليها، بدليل الانتصارات العسكرية التي حققها الامبراطور "جستينيان"؛ فهو الذي استعاد روما، كما اتسعت امبراطوريته في آسيا الصغرى والبلقان، ناهيك عن بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا وجنوب إسبانيا.

وكما لم تنل الجائحة من الدولة فإنها لم تنل من الحضارة، ويعتبر "جستينيان" (على غرار ماركوس أوريليوس) رمزاً لهذه الحضارة، فهو من كبار المشرعين، بل وعلى امتداد قرون، كان القانون الذي وضعه والذي حمل اسمه من أهم مصادر التشريع. وإليه يرجع الفضل كذلك في وضع أولى القوانين التي عرفها التاريخ والمتعلقة بالجوائح، مثل قانون الحجر الصحي، وقانون الأربعينية، الذي كان يُفرض بمقتضاه على كل من دخل الإمبراطورية، قضاء مدة من الوقت في جزيرة معزولة. ومع جستينيان كذلك، سيعرف الفكر الديني تطوراً غير مسبوق، بحيث في عهده ظهرت الأرثوذكسية كفرع من فروع المسيحية.

3. الجوائح بين الدولة والحضارة الإسلامية:

أشهر هذه الجوائح هو طاعون عَمَواس¹ الذي ضرب بلاد الشام خلال الفتوحات الإسلامية (حوالي 640 م). وهو امتداد لطاعون جيستينيان الذي ضرب في القرن السابق الإمبراطورية البيزنطية. وحسب المصادر التاريخية، تراوح عدد ضحاياه ما بين 25 و30 ألفاً، من بينهم مجموعة من الصحابة، مثل معاذ بن جبل، وأبي عبيدة بن الجراح الذي كان والياً على الشام وقت الوباء. ولتفادي وصوله إلى شبه الجزيرة العربية، أمر الخليفة عمر بن الخطاب بتطبيق الحجر الصحي. وقد استمرت الطواعين في الدولة الإسلامية، خلال القرن الموالي، حيث ضرب طاعون غُراب بلاد الشام سنة 743م، ثم تلاه طاعون مسلم بن قتيبة الذي حدث في نفس المنطقة سنة 748م.

عندما نبحث في الكيفية التي أثَّرت بها هذه الجوائح على مسار الدولة والحضارة الإسلامية، نجد أن طاعون عمواس لم ينل من الدولة؛ فبعد فتح الشام، وفي خضم الطاعون، قام عمرو بن العاص بفتح مصر، وبعد زوال الوباء، تواصلت الفتوحات الإسلامية في العقود الموالية نحو بلاد المغرب ثم الأندلس. أما بالنسبة للطاعونين الآخرين، فقد ساهما بشكل فعال في زوال

¹. نسبة إلى بلدة صغيرة كانت توجد قرب القدس

الخلافة الأموية، ذلك لأن العباسيين استغلوا الوضعية المأساوية التي تعرفها البلاد بسبب الوباء، للقضاء على الدولة الأموية.

وهنا أريد أن أحلل الأوبئة الثلاثة من الناحية السياسية؛ فطاعون عمواس صادف دولة في طور النشوء والنمو والامتداد والحماس، ويكفي التذكير بأن السورة الوحيدة التي تنبأ فيها القرآن بانتصار المسلمين، تهم هذه المرحلة¹. وبالتالي ما كان هذا الطاعون ولا المؤامرات السياسية التي تعرف بـ "الفتنة الكبرى"، لتقوض قوة هذه الدولة، التي كانت تستند على ركيزتين عندما تتوفران تعطيان القوة للدولة آنذاك، هما الدين والسياسة. لكن الوضع سيختلف بالنسبة لمرحلة الطاعونين المواليين، حيث بدأ الضعف والفساد والانهييار يدب في الدولة الأموية، وبالتالي الطاعون كان فقط عنصراً مكملًا لذلك الانهييار المنتظر.

هذا من حيث علاقة الجائحة بالدولة، أما بخصوص علاقة الجائحة بالحضارة، فهنا الجائحة الأولى جاءت قبل تأسيس المسلمين للحضارة؛ فشبه

¹ يتعلق الأمر بسورة الروم التي جاء فيها: ﴿الْمَ غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴿في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرخ المؤمنون﴾ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

الجزيرة العربية قبل الإسلام هي أرض بداءة، وشرط الحضارة وهو المَدَنِيَّة كان منتفياً فيها آنذاك. ونعلم أن عُمر الحضارات لاحق لِعُمر الدول؛ فعندما تنشأ الدولة وتصبح مهيكلية، تبحث عن جينات حضارات أخرى وتضعها في حاضنة، وهذه الحاضنة تتطلب وقتاً حتى يقع داخلها الإخصاب الحضاري. وعندما وقع طاعون عمواس، كانت تلك الجينات لازالت تتبلور، على اعتبار أن ما بين تفشي هذا الطاعون وتأسيس الخلافة الراشدية هناك فقط سبع سنوات. أما بالنسبة للطاعونين الآخرين، والذين ساهما في القضاء على دولة بني أمية، فإنهما لم يستطيعا خنق الحضارة الأموية الناشئة، لأنها فرت بعيداً إلى أرض الأندلس، حيث أسس الأمويون هناك واحدة من أهم الحضارات في التاريخ.

نستمر مع الحضارة الإسلامية، ونتوقف عند الطاعون الذي ضرب الدولة الموحدية في المغرب والأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد أرغم الوباء، الخليفة الموحي يوسف بن عبد المومن على مغادرة إشبيلية والعودة على وجه السرعة إلى المغرب، بعد أن تفشى الطاعون في جنوده، وقتل مجموعة من كبار رجال الدولة. وهنا أريد التذكير أن الطواعين كانت تكثر أثناء الحصارات العسكرية، وهذه ظاهرة ميزت الدولة الموحدية، بسبب حروبها الكثيرة، خصوصاً في الأندلس، وتقدم لنا مصادر التاريخ، الظروف المأساوية

للحصارات سواء التي يقوم بها المسلمون أو النصارى، فالجوع وقلة الماء والموت

بسبب الحصار يؤدي إلى تعفن الجثث، وإلى انتشار الوباء.

ولكن ذلك الوباء رغم شراسته، لم ينل من قوة الدولة، بل ستحقق

الدولة بعد ذلك أهم انتصاراتها مع يعقوب المنصور، الذي كون امبراطورية

تمتد من إسبانيا شمالاً إلى الحدود المصرية الليبية شرقاً. وهذا يدل على أن

الوباء منح للدولة تجربة في تنظيم الغزوات، وفي كيفية الحصار، ومتى يجب

رفعه حتى لا يتضرر الجنود، ومن خلالهم يتضرر المجتمع.

بالنسبة للحضارة، يلفت انتباهنا أن واحدة من أزهى مراحل الحضارة

المغربية الأندلسية، هي التي عرفت البلاد بعد الوباء المشار إليه. فإلى تلك

المرحلة يعود تشييد أهم معالم العمارة مثل لاهيرلدا، وبرج الذهب، وحصن

الفرج بإشبيلية، وجامع حسان بالرباط، ومسجد الكتبية بمراكش. وكانت

الأوبئة من أسباب تقدم الطب، وإلى تلك الفترة ينتهي كبار أطباء البلاط

الموحدي مثل ابن رشد وابن طفيل وابن زهر.

4. الجوائح والنهضة الأوربية:

يتعلق الأمر بالطاعون الأسود الذي ضرب أوروبا في منتصف القرن

الرابع عشر الميلادي وامتد خارجها. نحن نتحدث عن مرحلة مفصلية في تاريخ أوروبا هي التي تسمى القرون الوسطى المتأخرة. كان الوباء شرساً حيث قتل الملايين، كما أنه دام عقوداً. فكيف كان أثره على الدولة والحضارة؟

من الناحية السياسية أضعف الوباء دولاً ولكنه بعث دولاً أخرى. خلال القرن الرابع عشر كانت أوروبا تعرف ما يسمى بحروب المائة سنة، والتي تواجهت فيها فرنسا مع إنجلترا، لتمد بعد ذلك المواجهة إلى دول أخرى، سواء في شمال أو جنوب أوروبا. لكن في خضم كل ذلك، وبعد زوال الوباء، تأسست الدول المهيكلية، وبدأت النواة الأولى لما سيعرف بالدول الحديثة في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وغيرها.

هذا على المستوى السياسي، أما على المستوى الحضاري، فإن هذا الوباء كان بكل المقاييس باعثاً للحضارة الرومانية، لذا فالذي حدث في أوروبا خلال هذه المرحلة ليس تلاحقاً أو استنساخاً حضارياً، مثلما حدث مع الحضارة الإسلامية التي تلاقحت مع الإغريقية أو الفارسية أو البيزنطية، وإنما انبعاث حضاري. هناك نهوض بعد قرون من الركود الحضاري، الذي عادت عقبه أوروبا إلى ما يسمى بالعصر الكلاسيكي والموروث اليوناني الروماني، أي أن الذين صنعوا حضارة عصر النهضة، هم أحفاد الذين فرت منهم الحضارة

في القرن الخامس الميلادي.

لقد كان سقوط روما سنة 476 م، يعني نهاية المدن والعودة إلى البوادي في إطار الفيودالية، فجاء الطاعون الأسود في القرن الرابع عشر، ليفني البادية من سكانها، ويقضي على نظام القن، وتعود الحياة للمدن، وتنبعث المدنية التي هي أساس الحضارة. حدث ذلك في التجارة، حيث بدأت النواة الأولى للبرجوازية، بفضل المدن الإيطالية وتجارتها الخارجية مع الشرق، وقد ازدهرت مدنٌ مثل البندقية وجنوة والتي بدأ تجارها يخترقون الآفاق ويعبرون المتوسط شمالا وجنوبا شرقا وغرباً، ويصلون عبر طريق الحرير إلى الهند والصين، ويعودون بالحرير والتوابل والثروات (حالة عائلة ماركو بولو معبرة). وقد سمح تراكم الثروة في التجارة، بتأسيس النواة الأولى للصناعة وكذا تأسيس أولى الأبنك في أوروبا.

ازدهار الاقتصاد أدى إلى ازدهار المجتمع، بحيث لم تبقى البرجوازية كنظام اقتصادي فقط، وإنما أصبحت طبقة اجتماعية أزاحت طبقة النبلاء من قمة الهرم الاجتماعي. ومع البرجوازية خرج الفكر من الأديرة، وحل محل الاسكولائية التعليم الجامعي العلمي، وبرزت جامعات مثل بولونيا Bolonia والسربون وأكسفورد. وظهر المفكرون الذين مهدوا للنهضة، من أمثال "دانتي"

و"بيتراركا"، وتطورت علوم الطب، وتقهقر الفكر الغيبي الذي روجت له الكنيسة، بعد أن اقتنع الناس بأن الذي سينقذهم من الوباء هو الطب وليس الدعاء والتضرع.

5. جوائح اكتشاف أمريكا:

الوباء الذي ضرب العالم الجديد هو نتيجة للتطور الذي عرفته أوروبا والتي أصبحت حضارتها مهيمنة على العالم. ففي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي حدث اكتشاف أمريكا، وفي القرن السادس عشر حدث ما يسمى بمرحلي الغزو والتعمير لنفس القارة. وقد نجم عن ذلك إبادة مئات الآلاف من الهنود، لكن موتهم لم يكن بسبب الحروب فقط، لأن مدة هذه الحروب كانت قصيرة وقد حسمتها أسلحة النار بسرعة، وإنما أكبر عدد منهم ماتوا بالأوبئة التي حملها معهم الأوروبيون. لم تكن أعراض تلك الأوبئة تظهر على الذين أتوا بها من أوروبا، فهم حاضنون للوباء ولكن غير متأثرين به، لأن أجسامهم اكتسبت المناعة الطبيعية، بخلاف الهنود الذين لم تكن أجسامهم متعود عليها. وزاد في تأزيم الوضعية، ضعف بنية الهنود التي أنهكها استغلالهم المكثف في الضيعات الفلاحية وفي مناجم الذهب والفضة.

من الناحية السياسية، أسفر غزو أمريكا وإبادة الهنود، عن اختفاء

تلك الكيانات القديمة، مثل دولتي الأزتك (المكسيك الحالية) والإنكا (البيرو الحالية)، وأصبحت كل الأراضي المكتشفة بالعالم الجديد تابعة للتاجين الإسباني والبرتغالي، قبل أن تدخل على الخط دول أخرى مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا، التي سيطرت على أجزاء من أمريكا الوسطى والشمالية.

هذا بالنسبة للدولة، أما بالنسبة للحضارة، فالذي سيقع هو غرس حضارة جديدة. لأول مرة سيتم غرس حضارة من الأساس، لأن النموذج الموجود لم يكن مهيأ للتلاقح. نحن هنا نتحدث عن نموذج متفرد؛ فكل الحضارات التي تحدثنا عنها في النماذج السابقة، هي حضارات متلاقحة، لها جينات تغرس في أرض جديدة فتتلاقح وتتناسل، ولكن مع وصول الإيبيريين إلى العالم الجديد، وجدوا حضارات لم تتلاقح مع غيرها، لذا أنا أفضل أن أتحدث عن ثقافات وليس حضارات العالم الجديد قبل وصول المكتشفين. والثقافات بخلاف الحضارات، ليست مرتبطة بالضرورة بالمدنية، بل الثقافة هي انعكاس لمستوى معين من التفكير والعادات والذهنيات والسلوكات والعلاقات الاجتماعية وأنماط الإنتاج لمجموعة بشرية محددة. أما إذا ألحنا على وصف ما كان عند الهنود بحضارة كما يريد البعض، فهي في تقديري حضارة من التاريخ القديم تنتمي إلى التاريخ الحديث، لأن كل عناصرها

أصبحت متجاوزة عندما تم اكتشاف أمريكا.

6. جوائح الثورة الصناعية:

أخذنا كنموذج للتحليل ما يسمى بالطاعون العظيم، الذي ضرب إنجلترا في ستينات القرن السابع عشر، فهو على شراسته لم ينل من الدولة، فقد أصبحت إنجلترا تقود العالم منذ ذلك التاريخ، وانتصرت في كل حروبها على القوى الأوروبية الأخرى (إسبانيا وفرنسا وهولندا). أما داخليا فقد حدث بعد الطاعون أهم ثورة في تاريخ إنجلترا، وهي الثورة المجيدة لسنة 1689، والتي أقرت بشكل لا رجعة فيه الديمقراطية البرلمانية، التي وضعت قطيعة مع نظام الاستبداد الذي فرضه "كرومويل" من قبل.

وكما لم ينل الطاعون من الدولة لأنها قوية، لم ينل من الحضارة لأنها بنيت على أسس متينة، فقد ازدهر الفن والأدب وبدأت تظهر البوادر الأولى لعصر الأنوار الإنجليزي (سابق لعصر الأنوار الفرنسي). وإلى هذه المرحلة تنتمي الثورة التجارية التي قادت فيما بعد إلى الثورة الصناعية، وأصبحت الماركنتيلية الإنجليزية ماركنتيلية صناعية، لا تسعى إلى تخزين الذهب كما تفعل الماركنتيلية الإسبانية، وإنما لتسخيره في الصناعة. وأدركت إنجلترا، أن ثروة الأمم هي في التصدير وفي ميزان تجاري مريح وفي الرأسمالية، وكل هذه الأشياء

وجد فيها "أدم سميت" مادة لنظرياته في الاقتصاد السياسي، التي ضمنها كتابه ثروة الأمم. بكلمة واحدة، إنجلترا القرن السابع عشر، كرست مسألة التجاوز بين الغرب وبقية العالم، بحيث أصبح منذ ذلك التاريخ "الشرق شرقاً والغرب غرباً"، ليس كمفهومين جغرافيين وإنما حضاريين.

وما قيل عن الاقتصاد يقال عن العلوم، فالقضايا العلمية التي اهتم بها "إسحاق نيوتن" أثناء فترة الحجر الصحي الذي فرضه الوباء، كانت نقطة الانطلاق لنظريته العلمية حول قانون الجاذبية، بل وكانت نقطة الانطلاق لكل النظريات العلمية التي وضعها فيما بعد، حول الميكانيكا الكلاسيكية، وقانون الحركة الثلاثية، ونظرية الألوان، ونظرية الشمس كنموذج للكون والتي قادته لاختراع التلسكوب.

ونحن نصل إلى هذا المستوى من التحليل في علاقة الجوائح بالدول والحضارات، قد يكون من المفيد وضع مقارنة مع مغرب نفس المرحلة، فقد ضربه طاعون جارف في مطلع القرن السابع عشر، ذهب ضحيته الآلاف، من بينهم السلطان أحمد المنصور الذهبي. من الناحية السياسية كانت الدولة السعودية على عهد المنصور الذهبي، ثالث أهم امبراطورية في العالم الإسلامي بعد تلك التي أسس العثمانيون والصفويون. وقد قام المنصور الذهبي بغزو

بلاد السودان، في عمل غير مسبوق في التاريخ، بحيث اخترقت قواته الصحراء الكبرى. ولكن بعد وفاته ستدخل الدولة في حرب أهلية بين أبنائه، وبما أن الطاعون استمر، فقد تحالف الوباء مع الحرب ليساهما في تقويض أسس الدولة التي ما فتئت أن سقطت.

هذا من الناحية السياسية، أما من حيث الحضارة، فلم يكن بإمكان الدولة السعدية . على غرار الدولتين العثمانية والصفوية . أن تحقق أي مساهمة في الحضارة الإنسانية التي أصبحت مركزة في أوروبا. لقد وقع التجاوز الحتمي الذي لا رجعة فيه، وأصبح العالم الإسلامي مستهلكاً للحضارة وليس منتجاً لها.

7. جوائح القرنين الأخيرين:

- النموذج الأول الذي أخذناه، هو التيفوس الذي تفشى في حملة نابليون على روسيا سنة 1812، وكان من أسباب فقدان الجيوش للقدرة على مقاومة البرد القارس الذي تحالف مع الوباء ليبيد معظم الجيش، وكان قوامه حوالي نصف مليون جندي، لم ينج منهم إلا بضعة آلاف. وسيتكبد نابليون بعد ذلك مجموعة من الخسائر آخر في إيطاليا، بحيث شهدت معركة "واترلو" نهاية الحلم البونابارتي سنة 1815. وقد كانت لهذه النهاية انعكاسات خطيرة على

السياسة الداخلية والخارجية لفرنسا، ولكن البلاد استعادت عافيتها بعد سنوات من ذلك، بدليل أنها استعمرت الجزائر في 1833، في إطار مشروع استعماري لا يتأتى إلا لدولة قوية، وهو المشروع الذي سيتكرس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بمناطق أخرى من المعمور.

وما يقال عن الاشعاع السياسي يقال عن الاشعاع الحضاري، فالوباء الذي نال من قوات نابليون، لم يقوض الحضارة الفرنسية، بل كان نابليون نفسه، أول من نقل حضارة الغرب إلى الشرق، وأول من أعاد اكتشاف حضارة الشرق من خلال حملته على مصر.

- النموذج الثاني هو الانفلونزا الإسبانية¹، التي قتلت الملايين خلال الحرب العالمية الأولى. الجائحة لم يكن لها تأثير كبير على مجريات الحرب ونتائجها رغم تفشيها في جبهات القتال، والسبب هو أنها لم تظهر إلا في السنة الأخيرة من الحرب، وبعد أن أصبح انتصار الحلفاء شبه مؤكد. كما لم يكن لها دور في خلق رجة حضارية، لأن الهيمنة الحضارية كانت قد حسمت لبلدان بعينها، كانت أكبر من أن تقوضها الأوبئة؛ فالولايات المتحدة التي ضربتها

¹. لم تمس الجائحة إسبانيا، وإنما سميت بالإسبانية لأن الصحافة الإسبانية كتبت عنها أكثر من صحافة البلدان التي كانت تخوض الحرب، والتي تجاهلتها حتى لا تؤثر بما تنشره عنها، على معنويات الجنود.

الجائحة أكثر من أي بلد آخر، ورغم الأعداد المبهولة من القتلى، لم تنل منها حضارياً، بل كانت نهاية الحرب مؤشراً لهيمنة أمريكا على العالم من الناحية الحضارية، إذا أعطينا للحضارة مفهوماً علمياً تكنولوجياً وليس تراثياً.

- النموذج الثالث هو جائحة كورونا، وهنا أريد القول إنه بالنسبة للمؤرخ، ربما يحتاج إلى بعض الوقت ليقوم بالتحليل بنفس المنهجية التي اعتمدها طيلة هذه الورقة، لأن المؤرخ في نهاية المطاف له جانبه الذاتي، وهو الجانب الذي قد يضعف عندما يتحدث عن مرحلة بعيدة عنه في الزمن، وذلك مما يساعده على تحليل الأشياء بموضوعية أكبر، ولكن هذا الجانب الذاتي يكون قوياً عندما يؤرخ لمرحلة عاشها وتفاعل معها. ونحن نعلم أن مسار جائحة كورونا لم ينكشف بعد. وبما أن الحديث هو عن حدث يتطور يوماً عن يوم، فإنني سوف أمزج هنا بين التحليل التاريخي والتحليل السياسي، لأقول إنه مهما أخذه مسار الجائحة، فتأثيرها على الدول، سيمس بالخصوص السياسة الداخلية لهذه الدول. وهنا الذي أتوقعه هو صعود التيارات الشعبوية والقومية، التي ستقوم بحملات انتخابية، تريد من خلالها أن تكسب نقاطاً للوصول إلى السلطة. وستعتبر أن ارتفاع عدد ضحايا كورونا، كان بسبب السياسات الحكومية. كما ستحاول أن تلعب بورقة الهجرة. كما فعلت دائماً.

لكن ستضيف معطيات جديدة، مثل الأزمة الاقتصادية التي نجمت عن الجائحة، ومثل الزعم بأن المهاجرين السريين قد يحملون معهم الوباء وقت وصولهم إلى أوروبا.

هذا بالنسبة للجانب السياسي أما على المستوى الحضاري، فحضارة الغرب ستستمر هي المهيمنة، ولن تنال منها الجائحة مهما بلغت ضراوتها. الحضارة الغربية متحركة في العالم من خلال مسلسل تاريخي بدأ مع النهضة الأوروبية. ربما ستحسن الصين موقعها على المستوى الاقتصادي والتكنولوجي مستفيدة من الأزمة، لكنها لن تتبوأ الزعامة الحضارية، لأن الزعامة الحضارية هي قضية ثقافية، وهي قضية سياسية. الصين لن تحقق الزعامة السياسية لأن نظامها السياسي مفتقد للديمقراطية، ولن تحقق الزعامة الحضارية لأن ثقافتها، ولغتها، وإثنياتها، وعقليتها وعاداتها، غريبة عن بقية العالم. بخلاف الثقافة الغربية. وكل هذا سيجعلها غير قادرة على زحزحة الغرب عن هذه الزعامة الحضارية.

خاتمة:

ألخص كل ما سلف ذكره، بالقول إن العلاقة السببية بين الجوائح والدول والحضارات، ليست علاقة ثابتة أو مطلقة، بل هي القاعدة التي يكسرها الاستثناء، ذلك لأن علم التاريخ لا يسري عليه الاستنتاج الاستدلالي ولا الاستنتاج الاستنباطي، فهذه الاستنتاجات تنتمي إلى علم المنطق، وقد تصلح للعلوم الطبيعية والتجريبية، وليس لعلم التاريخ، لأن علم التاريخ لا منطبق له.



التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال

الطبيب بياض

كلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق الدار البيضاء



لا يمكن أن نجادل في عبر التاريخ وما يمكن أن يقدمه من دروس، لكن وظيفته ليست في تقديم الموعظة من خلال تنبيه الخلف إلى مزالق السلف ومهالكه، بل في تقديم أجوبة على قضايا مجتمعية، باعتباره علما انسانيا واجتماعيا له أدواته وآليات اشتغاله الكفيلة بتقديم عناصر إجابة وفهم لما يعتصر العصر من تعقيدات.

يعيش العالم اليوم على وقع جائحة كورونا وتداعيتها، ويحبس أنفاسه تطلعا للخلاص. ترنو العيون إلى ترياق تجود به مراكز البحث بقي شر الوباء، وتشرب الأعناق إلى انبعاث الدخان الأبيض من أسطح إحدى المختبرات مُبشرا بلقاح يخلص من هذا البلاء. لكن هل على المؤرخ أن ينتظر نهاية هذا المخاض ليخص الموتى بطقوس جنائزية على مقاسه، تعوضهم بعضا من الدفن المغبون الذي انتهوا إليه بدون تشييع ولا وداع أحبة؟ وهل من واجبه، من باب الانضباط لقواعد صناعته، ألا يخوض في بنية لم تكتمل صيرورتها بعد لتتيح له التقاط حدث مؤشر على ذلك، يسعفه في التأريخ وربما التحقيق؟ أم هي فرصته لكي لا يبقى حبيس الكتابة عن الأموات، ويقدم للأحياء ما يجعل صناعته معبرة فعلا عن طلب اجتماعي ومستجيبة لحاجة مجتمعية، صنعة

موضوعها الإنسان وليس الماضي¹؟

يقدم مارك بلوك درسا بليغا في هذا الشأن من خلال تجربته مع الحرب العالمية الثانية²، ويمدنا فرانسوا فورييه بنماذج تطبيقية على تفاعل المؤرخ مع قضايا عصره الملحة والآنية طيلة أربعين سنة من خلال إطلاقاته التحليلية في مجلتي فرانس أوبسرفاتور والنوفيل أوبسرفاتور³. ربما هنا العبر الحقيقية التي تجعل مؤرخ اليوم الذي درج على وصف التحولات الكبرى والمحطات التاريخية الشائكة دون أن يعيشها، أمام امتحان حقيقي ليكون شاهدا وفاعلا ومتفاعلا مع محطة مفصلية أصابت الناس بالفزع والهلع والجزع، لذلك يراهنون على حكمة المؤرخ التي تجعله قادرا بكل هدوء على استحضار البنية الممتدة في الزمن الطويل لسبر أغوار القوى العميقة المفسرة لما تحبل به الظرفية من التباس وغموض.

¹ Marc Bloch, *Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien*, édition critique préparée par Etienne Bloch, Armand Colin, Paris, 1993, pp. 81-83

² Marc Bloch, *L'étrange défaite, témoignage écrit en 1940*, Gallimard, Paris, 1990.

³ François Furet, *Un itinéraire intellectuel, L'historien journaliste, de France-Observateur au nouvel Observateur (1958-1997)*, édition établie et préfacée par Mona Ozouf, Calmann-Lévy, Paris, 1999, p. 7.

- ما جدوى التاريخ؟

اختار باتريك بوشرون أن ي دشّن دخوله لكوليج دو فرانس بدرس افتتاحي يوم 17 دجنبر 2015 تحت عنوان نعتقد أنه منتقى بعناية: "ما يستطيعه التاريخ". فهو يعي جيدا قيمة المنصب ورمزية المكان، ودلالة عنوان الدرس الافتتاحي في مؤسسة تتربع على عرش المعمار الجامعي الفرنسي. كما يستحضر ولا شك رهانات الحقل المعرفي الذي ينتهي، إليه بالقياس إلى ما راكمه الرواد إنتاجا وتدافعا مع باقي فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، من أجل الريادة والقيادة في مختلف المواقع. وقد كان حريصا على جعل المؤرخ في قلب الحدث، جاهزا لتقديم عناصر تفسير لما استجد من وقائع وأحداث مرتبطة بمتغيرات العصر، كيف لا وهو الذي كان عليه أن ينفعل وجدانيا كأبي مواطن مع مُصاب جلل هَزَّ بلاده، ويتفاعل علميا مع نفس الحدث في سخونته كمؤرخ؛ مفتتحا محاضراته بالقول: "عدت بعد شهر إلى ساحة الجمهورية. كنت مثل الآخرين، ومع السواد الأعظم منهم، حزينا وغير مصدق لما وقع¹. كانت شمس نونبر تلقي بأشعة تكاد تكون وقحة بلا مبالاتها المتعالية على أحزان الناس. فمند ينابر

¹- يشير المحاضر إلى العمليات الانتخابية التي عرفتها باريس في 13 نونبر 2015 مخلفة عددا كبيرا من القتلى، وتلتها وقفات الإدانة والاحتجاج في ساحة الجمهورية وسط باريس.

2015، أصبح الزمن يمر على الحجر الأبيض، الذي يشكل أساس تمثال ماريان، كأنه موجة عاتية تتكسر على الجرف. كان الزمن ينساب، ومعه الليالي والأيام، والأمطار والرياح تبلل رسوم الأطفال وتجعل ألوانها شاحبة، تبعثر الأشياء، وتمحو الشعارات، فتخفف من غضبها. كنا نسرّ إلى أنفسنا: هذا التمثال المعلمة الذي يرفع عاليا في السماء ذاكرة نشيطة، حية وهشة، وكنا نقول ليست المدينة سوى هذا، أي هذه الطريقة التي تجعل الماضي قابلا للسكن وللحضور بيننا، حيث تجمع تحت خطوات أقدامنا شظايا المبعثرة. والتاريخ هو كل هذه الأشياء متى عرف كيف يستضيف من نفس الجهة التوائر البطيئة للديمومة وفُجاءة الأحداث"¹.

كان بوشرون المؤرخ كما المواطن يقع تحت تأثير الضربات الانتحارية التي هزت باريس ومعها الرأي العام الفرنسي قبل حوالي شهر من تقديم هذه المحاضرة، لذلك عندما بادر بطرح السؤال أين يكمن الخطر؟ ما انفك يرحل في الزمن ذهابا وإيابا بين الحاضر والماضي، باحثا أحيانا على متوازيات بينهما، لتقديم عناصر إجابة عن ما يشغل بال معاصريه، مستلهما أحد أهم إشراقات

¹- باتريك بوشرون، ما يستطيعه التاريخ، ترجمة جلال الحكماوي، الدار البيضاء، 2018، ص 9-10.

مارك بلوك في منافحته المنهجية دفاعا عن التاريخ¹.

استهل هذا المؤرخ الفذ (مارك بلوك) كتابه الموسوم بـ "دفاعا عن التاريخ أو صنعة المؤرخ" بسؤال أكثر عمقا وربما استفزازا للذات وماهية اشتغالها، ما جدوى التاريخ؟ وقدم الاستفهام على لسان طفل صغير موجه لأب مؤرخ، بصيغة واضحة لا لبس فيها: "هلا شرحت لي يا أبت إذن ما جدوى التاريخ؟"². قد يكون السؤال مباغتاً فلا تسعف سرعة البديهة في إرواء الظمأ، وقد تعوق القدرة التواصلية إيصال المعنى بشكل مبسط ينسجم وسنَّ السائل، لكن على المؤرخ في كلتا الحالتين أن يجعل من هذا الاستفزاز المنتج نقيضة مطالب بفك رموزها أو تميمة ملازمة له، لا لطرد النحس، بل لإذكاء سؤال أعمق وأعقد يتعلق بشرعية التاريخ، فمسألة الاستطاعة أو العجز (ما يستطيعه التاريخ) تبدو ثانوية، أو على الأقل لاحقة تتقدمها وتعلو عليها مسألة شرعية الوجود وماهيته وغايته. ذلك هو الانشغال المعرفي والقلق الفكري الذي لازم مارك بلوك في عز الحرب العالمية الثانية والذي حرص على التجنيد فيها رغم كل مبررات الإعفاء، فما إن انتهى الضابط/ المؤرخ بلوك من كتابة شهادته/وصيته

¹ Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., pp. 89-98.

² Ibid., P. 69.

لعموم القراء عن الهزيمة الغربية،¹ حتى انبرى لكتابة ما يحصن به حرفة أولئك الذين جرى نعتهم بـ "قبيلة المؤرخين". والتحصين هنا مزدوج؛ من اساءة الذات لفهم قواعد حرفتها، ومن تطاول المتربصين بها المحتقرين لها في شكلها الوضعاني التقليدي. لذلك جاءت الصيغة الأولى للعنوان الفرعي للكتاب على شكل سؤال مزدوج: "كيف ولماذا يشتغل المؤرخ"². فوضع من خلال هذا الكتاب/ المرافعة خارطة طريق لعمل علمي ومجدد، ونصب في الوقت نفسه متاريس صَدَّ أمام النزوعات الهيمنية للسوسيولوجيا الدوركايمية. إذ مثلما صاغ الخليل بن أحمد الفراهيدي علم العروض على إيقاع نغمات علم الموسيقى الذي برع فيه خارج أسطورة طقطقات مطارق الصفارين على الطسوت، دَوَّنَ مارك بلوك أوتار التاريخ على ميزان الإنسان ومقام الإشكال بعيدا عن أصنام الحدث والفرد والأصول. فتوجهاته التجديدية تغذت من تطور الفكر العلمي سواء في العلوم الرياضية أو الفيزيائية أو الطب التجريبي،³ وهو الذي لم يوفر علما من العلوم المسماة صحيحة أو دقيقة (رياضيات، علوم طبيعة، علوم الحياة، الإحصاء، الفيزياء...) إلا واستدعاه لخدمة قضيته

¹ Marc Bloch, *L'étrange défaite*, op.cit.

² Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p. 7.

³ فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 58-59.

المركزية. يتعلق الأمر بتميز وعلمية الحقل المعرفي الذي يعتز بالانتماء إليه. ودون مركب نقص تجاه أي من هذه التخصصات العلمية يعلن: "أن وحدها العلوم التي تفلح في تأسيس روابط شارحة بين الظواهر، تستحق أن تسمى علوم صحيحة"¹. ووحده التاريخ بين سائر فروع العلوم الانسانية والاجتماعية، وفي علاقته معها، يمكن أن يكون شبيها مقابلا للرياضيات في علاقتها بباقي العلوم المسماة صحيحة؛ فمثلا لا يمكن لدراسي الفيزياء أو الإحصاء أو المحاسبة أو الهندسة الاستغناء عن الرياضيات في مجالات أبحاثهم، يستحيل على علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة فهم مواضيعهم دون الرجوع بشكل أو بآخر للتاريخ. لذلك ما على التاريخ إن أراد أن يحجز له مكانا بين العلوم إلا أن يقترح ترتيبا عقلانيا ومعقولية متقدمة، بدل الاختصار على تقديم إحصاء بسيط. فمارك بلوك لا يرى من مهام التاريخ الكشف عن القوانين الخاطئة، لاستحالة الأمر بفعل تواتر المصادفات، لكن لا يتصوره صالحا كحقل معرفي إلا وهو مشبع بالعقلانية والوضوح وكل ما يدرك بالعقل، الأمر الذي يجعل علميته مستمدة من مقارنة المؤرخ ومنهجه وليس من طبيعة موضوعه. وفي مسيره نحو ما يدرك بالعقل لا بالحواس يحتل التاريخ مكانة أصيلة بين تخصصات

¹ Marc Bloch, *Apolog*
ie, op. cit., p. 16.

المعرفة الإنسانية، مثل أغلب العلوم وربما تفوق عليها بفعل الزمن، الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من موضوعه، إذ هو "علم متحرك"، وليحافظ على علميته عليه عدم الكف عن الحركة والتقدم، مثلما على المؤرخ أن لا يكون كائناً جالساً فيتحول إلى بيروقراطي التاريخ، بل حرفته تقتضي منه المسير الدائم نحو واجبه في البحث والمغامرة¹.

عندما يثير مارك بلوك سؤال "شرعية التاريخ" منذ الصفحة الأولى من كتابه، فالإشكال الابستيمولوجي للتاريخ يتجاوز عنده المستوى المعرفي والعلمي، ليأخذ لبوس المواطنة ووازع الأخلاق. فعلى عاتق المؤرخ تقع مسؤوليات ينبغي القيام بها، وهو في ذلك لا يختلف عن أي حرفي يُفترض فيه الإخلاص لواجبات صناعته، بضمير مهني². ولأجل ذلك ينبغي تصحيح المسار، وتنقية الشوائب، وكسر جرة النمطي، وإعادة توجيه البوصلة، بما ينسجم وجدوى التاريخ وشرعيته وقواعد حرفته. لذلك اقترح ما يجوز اعتباره خارطة طريق لحنطة المؤرخين، يمكن تكثيف عناصرها فيما يلي:

¹ Ibid.

² Marc Bloch, *Apologie*, op.cit., pp. 12-13.

- موضوع التاريخ:

"نقول أحيانا: التاريخ علم الماضي، يا له من كلام سيء، وإنه لأمر سخيّف أن يكون الماضي في حد ذاته موضوعا للعلم".¹ هكذا يُهشّم مارك بلوك الجرة فوق رؤوس الإخباريين ورواة السير ومحنطي التاريخ. ثم سرعان ما ينتقل من هدم القديم إلى بناء الجديد، وفي رسمه لمعالم الممكن بدل القائم يستحضر اجتهادات السلف المجدد في جعل الإنسان موضوعا للتاريخ وغايته في الآن نفسه، "في الواقع تعلمنا منذ زمن طويل، من خلال شيوخنا العظماء من أمثال ميشلي وفوستيل دو كولانج أن ندرك أن موضوع التاريخ بطبيعته هو الإنسان"،² أو لمزيد من الدقة "يجب إضافة الإنسان في الزمن".³ فالزمن بطبيعته مستمر، لكنه دائم التغيير أيضا، ومن تناقض هذين الميسمين الذين يسمانه، تنشأ الإشكاليات الكبرى للبحث التاريخي.⁴ فالمؤرخ شديد الالتصاق بالزمن، لا يخرج منه أبدا، تقوده مراوحة ضرورية إلى أن يصيخ السمع أحيانا للموجات الكبرى للظواهر المرئية العابرة في الزمن من جانب إلى آخر، والقبض

¹ Ibid., p. 81.

² Ibid., p. 83.

³ Ibid., p. 84.

⁴ Ibid., p. 85.

أحيانا على اللحظة الإنسانية حيث يجري تكثيف هذه التيارات في العقدة القوية للوعي¹. فيصير التاريخ بذلك علما للإنسان في الزمن المستمر والممتد لكن أيضا المتغير؛ أي علم التغيرات والتبدلات في أحوال الناس وطبائعهم وذهنياتهم بل وحتى أجسادهم². وعلى المؤرخ أن يعي أن صنعته في بعدها الفني والعلمي تتطلب حرفة عالية، فلغتها الجميلة تجعلها فنا مشتهى، وصرامتها المنهجية ترقى بها لمصاف العلم المبتغى.

- المؤرخ والوثيقة:

يقتضي المؤرخ الأثر ويبحث عن السر ويطمح إلى التفسير، لكن يفسر ماذا؟ ويفسر بماذا؟ هل يفسر الوقائع والأحداث؟ أم يفسر مضامين المادة لفهم ما جرى؟ والمادة هنا قد تكون نقيشة أو لُقى أثرية أو رواية مكتوبة أو شفوية، هي في نهاية المطاف شواهد على المؤرخ أن يبرع في اقتناص شواهده أولا، وألا يطمئن إليها ثانيا، وهو وحده المؤهل لتحديد قيمتها ومنحها الحياة وشرعية الوجود في مختبره، بعد جسها وفحصها والاطمئنان إلى مصداقيتها. وواهم في نظره من يعتقد أن الوثيقة تقول، فهي تُستنطق وتُقول لكي تبوح بالأسرار

¹ Ibid., pp.166-167.

² Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.24.

والخفايا. والمؤرخ النبیه هو الذي يتوسل عُدّة منهجية وتكويناً عابراً للحقول المعرفية ليتقمص دور المحقق الذكي في العلاقة مع وثائقه، وإلا صار هو في خدمة هذه الوثائق، يعيد تركيب التاريخ حسب الأهواء الواردة فيها. فأكثر النصوص والوثائق الأثرية وضوحاً وإرضاءً، لا تتحدث إلا عندما نعرف كيف نستنتقها.¹ وسيكون من غير المجدي تصور أن كل إشكالية تاريخية، تتطلب في تحليلها نوعاً خاصاً وفريداً من الوثائق. إذا كلما طمح البحث التاريخي للوصول إلى أعماق الحقائق، كلما تلمس إدراكها تحت الأشعة المتقاطعة للشواهد المتنوعة في طبيعتها.²

- مركزية النقد التاريخي:

يدرك أكثر المحققين من رجال الشرطة سذاجة أنه من غير المعقول الاطمئنان إلى أقوال الشهود، كما جرى منذ القدم رفض القبول الأعلى للشواهد التاريخية. فقد أثبتت التجارب القديمة للإنسانية، أن النصوص تُرد إلى غير أصولها، وليست كل الروايات صحيحة، فيما الآثار المادية يمكن تزويرها. لذلك فعلمية التاريخ ارتبطت بثورة الشك في المسلمات واليقينيات.

¹ Ibid, p.109.

² Ibid., p.111.

حصل التقدم الحقيقي في اليوم الذي لعب فيه الشك دور الفاحص، حيث جرى وضع القواعد الموضوعية التي ميزت بشكل تدريجي بين الكذب والحقيقة، وأرست أسس الفرز والانتقاء.¹ جرى ذلك على مراحل منذ مطلع القرن السابع عشر، إذ انطلق مع دانيال بابينبروك، ثم تعمق تدريجيا مع كل من جون مايبلون وريتشارد سيمون. وهو جيل مؤسس لقّح التاريخ بالنقد، والذي تعزز بعمل سبينوزا "رسالة في اللاهوت والسياسة" و"خطاب في المنهج" لديكارت.²

يبقى على المؤرخ إذن أن يتقن دور قاضي تحقيق غاضب من بعض الأدلة التمهيدية، حيث يُسَهِّل غياب الحذر فرض الصور المشينة، وهو يدرك بعيدا عن السذاجة أن شهوده يمكنهم أن يخادعوا أو يكذبوا. لكن ينشغل قبل كل شيء بجعلهم يتحدثون، لكي يفهمهم.³ فالملاحظة والشك والسعي للفهم والتفسير، والمقابلة بين الشواهد والنفاز للمسكوت عنه فيها بنَفَس نقدي، وقوة استشعار حادة تميز بين المحتمل وغير القابل للاحتمال، كلها مداخل تُؤمِّن للتاريخ مكانا محترما بين العلوم.

¹ Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.120.

² Ibid., p.122.

³ Ibid., p.126.

- المؤرخ والقاضي:

يقول بول ريكور: "وماذا بأمر المواجهة بين مهمة القاضي ومهمة المؤرخ؟ إن ظروف النطق بالحكم داخل محكمة قد فتحت، كما رأينا، ثغرة في الجبهة المشتركة التي يحتفظ بها المؤرخ في وجه الخطأ والظلم. على القاضي أن يقضي إنها وظيفته. عليه أن ينهي. عليه أن يَبُتَّ (...) كل هذا لا يقوم به المؤرخ، ولا يستطيع أن يقوم به، ولا يرغب في أن يقوم به، وإن حاول وجازف بأن ينصّب نفسه وحده محكمة للتاريخ، فإن ذلك سيكون على حساب الاعتراف بالطابع المؤقت لحكم يعترف بتحيزه، بل حتى بطابعه النضالي. لكن عندها فإن حكمه الجسور يخضع لنقد جماعة العاملين بكتابة التاريخ، ولنقد الجمهور المستنير، وسيكون مُصنّفه عرضة لسيرورة لا تنتهي من المراجعات تجعل من كتابة التاريخ إعادة كتابة مستديمة. هذا الانفتاح على إعادة الكتابة هو علامة الاختلاف بين حكم تاريخي مؤقت وبين حكم قضائي نهائي".¹ ذاك ما سبق أن نبه إليه مارك بلوك بشكل أكثر صرامة، قبل أزيد من نصف قرن، إذ يرى جاك لوغوف في تقديمه لكتاب بلوك عن صنعة المؤرخ أن رفيق درب لوسيان فيفر

¹ بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009، ص 477-478.

في تأسيس مجلة الحوليات، كان يمقت المؤرخين الذين يصدرن الأحكام عوض أن يعمدوا إلى الفهم، وهو الحريص على ترسيخ أقدام مهنتهم بشكل أعمق في الحقيقة والأخلاق، إذ الحقيقة غاية علم التاريخ والأخلاق منتهاه.¹ ألم يكن المنصب الذي شغله جول ميشلي في كوليج دو فرانس بين 1838 و 1851 هو كرسي التاريخ والأخلاق؟

- المنزع الإشكالي للتاريخ:

سبق لفرانسوا سيميان منذ سنة 1903 أن هاجم النمط السائد في المعرفة التاريخية الموسوم بالوضعاني، إذ "دعا المؤرخين ليتخلصوا من بهرجهم ليجددوا أنفسهم، واعتمد الصورة المجازية لبايكون عن «أصنام قبيلة المؤرخين»، وعددها ثلاثة، وكلها غير مفيدة. هناك أولا «الصنم السياسي»، أي الدراسة المهيمنة، أو على الأقل الاهتمام الدائم بالتاريخ السياسي، يضاف إليه «الصنم الفردي أو العادة الراسخة في فهم التاريخ كتاريخ للأفراد»، وأخيرا «صنم التسلسل التاريخي، أي عادة الضياع في البحث عن الأصول». وهو بذلك يضع موضع الشك وبصورة واضحة قدرة هذا العلم القديم القائم الذي هو التاريخ، أن يتشكل كطريقة ايجابية للمعرفة. وعلى العكس من ذلك فعلم

¹ Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.28.

الاجتماع الناشئ يقترح نفسه أن يكون « مدونة للعلوم الاجتماعية». إنه يدعو المؤرخين إلى العبور من المفرد إلى الظاهرة المنتظمة وإلى العلاقات الثابتة التي تسمح باستنباط قوانين علمية ومنظومات السببية¹.

هذا الاستفزاز المنتج الذي جرى تخصيصه في مجلة التوليف التاريخي لصاحبها هنري بير، ساعد مارك بلوك ولوسيان فيفر على هَدِّ المعبد على رؤوس حراسه من الوضعانيين، قبل أن يحين موعد تصفية الحساب مع المُستصغرين لصنعة المؤرخين في بُعدها الإشكالي. فكان سرنجاح ثنائي جامعة ستراسبورغ، ومعهما تجربة الحوليات، واكتساح مفهومهما الجديد للتاريخ نابع، كما نبه إلى ذلك جاك لوغوف، من أمرين: نحتما لمفهوم جديد للتاريخ قائم على أساس إشكالي ومنفتح على باقي الحقول المعرفية، ثم من مدة صلاحية هذا المفهوم الذي أحكم مارك بلوك إتقانه في كتابه/ المرافعة عن التاريخ. فإلى حدود اليوم، وبعد مرور ما يقرب من الثمانين حَوْلاً، مازال طرح مارك بلوك يحتفظ ببريقه وجدته، وإن كان قد أخذ سره معه عن فهمه لموقف المؤرخ اتجاه المستقبل، فقد ترك هذا الإشكال في عُمدة المؤرخين وعلى عاتقهم². "إن المؤرخ بالنسبة إلى مارك بلوخ ولوسيان فيفر لا يستطيع أن

¹ فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، مرجع سابق، ص 49.

² Marc Bloch, *Apologie*, op. cit., p.31.

يكتفي بالكتابة تحت إملاء الوثائق، عليه أن يسائلها ويضعها ضمن إشكالية. إنهما يقترحان ضد التاريخ - الرواية الذي ينادي به لانغلوا وسينيوبوس تاريخاً- مشكلاً، يكون أرضية نظرية لمفهومية تاريخ بنيوي مستقبلي. لم يعد التقسيم التاريخي يتمفصل إذا وفق حقبات كلاسيكية ولكن وفق مشكلات يتم إبرازها والبحث عن حلول لها"¹.

لقد كان جاك لوغوف شديد الوضوح في جوابه عن سؤال لبرنار بيفو، في برنامجهِ الثقافي الشهير أبسطروف، حول التاريخ الجديد، بالقول: "التاريخ الجديد هو تاريخ إشكالي"².

- تفاعل المؤرخ مع أزمة كورونا:

يذكرنا فرانسوا بداريدا بأنه "في مواجهة توقعات المجتمع واهتمام الجمهور يُطلب من المؤرخ أن يفك اشتباك الأحداث، وأن يوفر خيطاً هادياً، بالمنزج بين دوره كناقِد والدور المدني الأخلاقي. وحتى حين لا يتعلق الأمر بمحاولة إعداد وتقديم المؤرخ، عبر الاحتكام لخبرته الكبيرة، بصفته حكيم البلدة المعترف به، فعلينا أن نشدد على اعتلاء المنبر استجابة لقضايا العصر-

¹ فرانسوا دوس، التاريخ المفتت، مرجع سابق، ص 118.

² Hervé Coutau- Bégarie, *Le phénomène nouvelle Histoire, grandeur et décadence de l'école des annales*, Ed, economica, Paris, 1989, P.32.

المشروط بالالتزام الصارم بقواعد البحث العلمي – هو أمر مشروع تماما من حيث أنه يمد التاريخ بعمق كبير"¹. قبل أن ينبه إلى "انفجار المعرفة التاريخية الذي يحدث عقب اتساع مجال المؤرخ إلى مجالات جديدة لم تكتشف حتى الآن، ومهما كان من حسن اطلاع المؤرخ على العالم حوله، فهو يخطو على صراط ضيق يسير بين المهمتين المتعارضتين المطلوب منه إنجازهما. إن عليه من ناحية أن ينأى بنفسه عن الأساطير الكامنة في العقل العادي، وأن يبتعد عن تشوهات الذاكرة الجماعية، حتى يتسنى له وضعها إلى جانب خطاب يخلو من الغموض، يكون مؤيدا بالبراهين وعقلانيا في "في نفس الوقت". ومن ناحية أخرى فبوصف المؤرخ بانيا وناشرا للمعرفة، عليه أن يساهم في صوغ الضمير التاريخي وذاكرة معاصريه، بعبارة أخرى، إن كونه فاعلا اجتماعيا لا يفصله عن كونه باحثا"².

يدفعنا اتساع مجال المؤرخ إلى مجالات جديدة لم تكتشف حتى الآن، إلى طرح جملة أفكار حول مدى تدخله وتفاعله مع قضية عصره الحالية المتمثلة في جائحة كورونا وما أفرزته من تداعيات، وعن آليات اشتغاله الكفيلة

¹ فرانسوا بداريدا، "الممارسة والمسؤولية التاريخية"، ترجمة بهلول شريف، مجلة ديوجين، العدد 168، دجنبر 1994، ص 3.

² فرانسوا بداريدا، مرجع سابق، ص 3-4.

بجعله ليس فقط في صلب انشغالات مجتمعه بل في صلب انشغالات الإنسانية جمعاء. إذ هي فرصته لركوب قطار التجديد عبر مواضيع جديدة وإشكاليات جديدة بمقاربات جديدة.

ما يستعطيهِ التاريخ اليوم بلغة باتريك بوشرون هو استدعاء البنيات الممتدة في الزمن الطويل والسياقات المفسرة للمستبطن والخفي فيما جرى ويجري اليوم، الكاشفة لبيئة الاستنبات ومنحى التبلور ومسار التطور.

هل سننساك مرة أخرى مع القراءات التي لا ترى من جبل الجليد سوى وجهه الظاهر، فتتحدث عن الجوائح كما لو أنها وحدها المسؤولة عما حصل ويحصل، متناسية السياق الذي جاءت فيه والواقع الهش المهترئ الذي وجدته، ولم تعمل في الواقع سوى على تعميق جراحه؟

كيف قُدر للبشرية أن تعيش من جديد سلوكات وممارسات حسبت أن الزمن قد طواها إلى غير رجعة؟ ليس فقط عودة أسلوب تبادل البضائع بما يقابلها نقدا على الطريقة الفينيقية في زمن كورونا، لتفادي الاحتكاك المباشر ونقل العدوى، لكن الأدهى والأشد غرابة هو عودة القرصنة وتحلل منظومة أخلاقية قيمية في مجال العلاقات الدولية؟!

في زمن اختار فيه البعض أن يتحدث عن مناعة القطيع المعبرة عن داروينية اجتماعية في لبوس مادي مفتقد لأي حس إنساني، وانتفاء في النوع البشري بإرادة البشر لتحديد من يعالج ومن يترك لمصيره، وأمام عودة المالتوسية في صيغتها الأكثر شراسة ومعادلة الربح ولو على حساب صحة الانسان، حيث الوفرة على حساب الجودة والجانب الصحي، ناهيك عن الأخطار البيئية، سقطت أقنعة النيوليبرالية وطُرح سؤال الأولوية هل للإنسان أم للاقتصاد؟ وكذا التمايز بين القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية للبضائع؟ وما أثر كل ذلك على مختلف اقتصادات العالم وتداعياتها على الفئات الأكثر هشاشة؟

هل نحن أمام نهاية للتاريخ أم أمام سقوط مدوي لنهاية التاريخ مع ظهور تباشر نهاية القطبية الأحادية؟

أي خصائص تميز هذه الجائحة عن سابقتها طبيا واجتماعيا واقتصاديا ونفسيا في زمن تحكُّم كبريات شركات الأدوية في العالم، والرهاب الموجه إعلاميا بضخ رهيب للإشاعات وتوظيف الفيروسات في لعبة الأمم؟

ماذا عن وقع كل ما حصل على البنيات الذهنية السائدة في زمن الثورة الرقمية واستمرار التمرس خلف الهوية؟ وأي عاهات نفسية قد يحملها

القاصرون المحاصرون في بيوتهم، القابعون خلف شاشات حواسيبهم زمن

الحجر الصحي؟

هل نحن حقا أمام محطة جديدة للتحقيب أم أمام مؤشرات تحول في

طور التشكل لم تنضج شروط اكتماله بعد؟

تلك جملة أورايش، إلى جانب أخرى، يسمح توسع مجالات المؤرخ

بالانخراط فيها، بانفتاح منتج ومبدع على باقي الحقول المعرفية، مع ضرورة

الخلق والابتكار في زاوية المعالجة. ولأن الظرفية استثنائية وغير مسبقة،

فالمقاربات السائدة بما فيها آخر اجتهادات التاريخ الجديد قد تحتاج بدورها

إلى نفس تجديدي مبتكر لسبر الأغوار وكشف الأسرار.

بيبليوغرافيا مساعدة:

- بداريدا فرانسوا، "الممارسة والمسؤولية التاريخية"، ترجمة بهلول شريف، مجلة ديوجين، العدد 168، دجنبر 1994.
- بوشرون باتريك، ما يستطيعه التاريخ، ترجمة جلال الحكماوي، الدار البيضاء 2018.
- بياض الطيب، الصحافة والتاريخ، إضاءات تفاعلية مع قضايا الزمن الراهن، منشورات دار أبي راقراق، الرباط، الطبعة الثانية، 2019.
- حبيدة محمد، المدارس التاريخية، برلين- السوربون- استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، 2018.
- حبيدة محمد، كتابة التاريخ، قراءات وتأويلات، در أبي رفاق، الرباط، 2013.
- دوس فرانسوا، التاريخ المفتت، من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.
- ريكور بول، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.
- Bloch Marc, *Apologie pour l'Histoire ou métier d'Historien*, édition critique préparée par Etienne Bloch, Armand Colin, Paris, 1993.
- Bloch Marc, *L'étrange défaite, témoignage écrit en 1940*, Gallimard,

Paris, 1990.

- Coutau-Bégarie Hervé, *Le phénomène Nouvelle Histoire, Grandeur et décadence de l'école des Annales*, Ed, economica, Paris, 1989.

- Furet François, *Un itinéraire intellectuel, L'historien journaliste, de France-Observateur au nouvel Observateur (1958-1997)*, édition établie et préfacée par Mona Ozouf, Calmann-Lévy, Paris, 1999.



"الكورونا" وأخواتها في سياق التاريخ

محمد الأزهر غربي

كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس



يصف المتنبي الحمى بـ "الزائرة" التي تُباغت المريض وتسري منه مسرى
الدم، حيث يقول:

وزائرتي كأن بها حياء فليست تزور إلا في الظلام

بذات لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

ومنه يُعتبر تعرُّض البشرية للأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية كالزلازل
والفيضانات ظاهرة قديمة قدم الإنسانية¹ وتتعدّد الأمثلة في هذا الشأن²
لِيُصَوِّرَ الأدب بعض الحالات المأساوية التي عاشتها بعض المجتمعات بسبب
الطاعون مثل رواية ألبر كامو *La peste* Albert Camus³، التي نُشرت لأول مرة
في جوان 1947، ليكون بالتالي لجائحة الكورونا التي يتعرض لها العالم منذ
نهاية عام 2019 أخواتها وسابقتها التي نحاول التعرض إليها بالتركيز على بعض
الحالات في سياق مسار تاريخي عام.

ولعل أهم خاصية لجائحة الكورونا أنَّها لم تطرق باب فرد أو فئة أو
جهة وإنَّما زارت الإنسانية جمعاء و"دون حياء" متحدّية العلماء والأطباء، عابثة

¹ - انظر مثلاً: ثريا مرابط أزوال، الزلازل الكبرى بالمنطقة المغربية وملفاتها على الانسان ومحيطه، الرباط، مطبعة بني يزناسن، 2005.

² Citons le proverbe : « choisir entre la peste et le choléra ».

³ Gallimard, 1947.

بالرؤساء والعظماء في مشهد سريالي ساخرة من نواميس الكون كسخرية المعري أو دانتي، ولقد اختلف تفاعل الطبيب ورجل السياسة وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع مع هذا الحدث كل من موقعه وزاوية نظره، ولعل القاسم المشترك بينهم هو البحث عن "أصل الداء" لتحديد طرق مقاومته.

ضمن هذا السياق يعتبر الطبيب أنَّ جائحة كوفيد 19 ناجمة عن قدرة الفيروسات على التجدد والتطور تحاول الأجسام مقاومتها باكتساب مناعة جديدة تكون بمثابة الأسلحة المضادة للمنظمات الفيروسية، في حين يذهب عالم الطبيعة إلى أنَّ المنظومة الكونية اختلت بفعل سوء تصرف الإنسان فثارت لنفسها لاستعادة توازنها البيئي (مثل ثقب الأوزون)، كما يعتبر الفقيه أن الجوائح من صنع الله يبعثها عقابا للبشر ولسنا في حاجة إلى سرد النصوص التي تعجُّ بها الكتب المقدسة في هذا الصدد، ويحاول بعض علماء الإسلام الربط بين التفسير الطبيعي والتفسير الديني الذي يعتبر سلوك الإنسان متناسقا مع المنظومة الكونية حيث "يُسَخَّر" الله "النواميس" الطبيعية لجزائه أو لعقابه ويعتمد في هذا الصدد على الآية القرآنية التي تقول بأنه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾¹ بل دفعت

¹ الآية 40 سورة الروم

المقاربة التوفيقية بين الديني والعلمي بعض المفسرين إلى شيء من المبالغة، حيث اعتبر الإمام محمد عبده أنَّ الطير الأبايل التي بعثها الله لم تكن سوى جراثيم أرسلت عقابا لأصحاب الفيل.

ولعل السؤال الذي يُطرح هو الآتي: هل للمؤرخ رأي في المسألة أم هو قابع في ماضيه لا صلة له بواقع اليوم ومصير الغد؟

لعل خاصية المؤرخ أنَّه منذ الوهلة الأولى يفر إلى مخبره ويبحث بمجهره وينقّب في خلايا جسم الإنسانية المتمثل في الماضي ليجد حالات شبيهة فيُشخّصها لاستقراءها وفهمها ومقارنتها بالحاضر لاستنباط السلوكيات في المستقبل، وهو ما سنحاول القيام به بصفة محدودة حسبما تقتضيه حدود هذه الورقة.

أصبحت دراسة المجاعات والأوبئة اختصاصا تاريخيا قائما بذاته يندرج ضمن تخصص أوسع هو الديموغرافيا التاريخية¹ التي تُصنّف ضمن التاريخ الاجتماعي في علاقته بالتاريخ الاقتصادي والسياسي. ولقد اهتمت بعض الدراسات العربية وخاصة المغاربية بهذا التخصص سواء في المغرب أو في تونس

¹ Collectif, *La démographie historique en Tunisie et dans le Monde Arabe*, Tunis, Cérès Productions et Institut d'Education et de Formation continue, 1993.

أو في الجزائر¹ نذكر منها دراسة الأستاذ محمد الأمين البزاز حول تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر²، وكذلك دراسة الأستاذ حسين بوجرة حول الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير والطبيب³.

ولسنا في حاجة لدراسة ظاهرة وبائية معيّنة في تاريخ بلاد المغرب باعتبار أنّ ذلك متوفّر في الدراسات التاريخية، وحسبنا في هذه الورقة أن نذكر بعض ما صوّرتة المصادر التي عاش أصحابها انتشار الأوبئة فوصفوا حالة السكان وهلعهم وتدهور الاقتصاد وعجز السّاسة، غايتنا في كلّ ذلك أن يصل القارئ بنفسه إلى المعلومة التاريخية ليقارن الأمس باليوم، وسنقتصر في هذا الصدد على مصادر تتعلق أولها بالكوليرا في البلاد التونسية سنة 1849 بتونس ثم بطاعون 1720 بمرسيليا.

¹ Farid Khiari, *Vivre et mourir à Alger. L'Algérie ottomane au XVIe-XVIIe siècles : un destin confisqué*, Paris, L'Harmattan, 2002.

² محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط 1992.

³ حسين بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير والطبيب 1800-1350، مركز دراسات الوحدة العربية سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت 2011.

أولا: الكوليرا بالقطر التونسي في 1849

أورد أحمد ابن أبي الضياف مؤرخ البلاط الحسيني ما يلي:

"وفي السابع عشر من محرم فاتح سنة 1266هـ، ست وستين ومائتين وألف (الأحد 16 محرم -2 ديسمبر 1849م)، ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يُعبر عنه في أرض الحجاز بالريح الأصفر، وأصله من أمراض الهند، وعبر عنه في بلادنا بالكوليرة من طرف أطباء الإفرنج.

وصورته - والعياذ بالله - أن يُصيب الإنسان إسهال وقيء فيصفر لونه ويسودّ، ويموت في ساعات أو قليل من الأيام، وقلّ من ينجو، ولم يُتقدم مثله في هذا القطر وأول ظهوره في جبل الرقبة¹، ثم انتقل إلى باجة² ليستمر بها ويموت بها الكثير، فعزم الباي بإشارة بعض الأطباء على التحفظ من وصوله إلى الحاضرة بمنع الخلطة، فأمر أمير لواء عسكر الخيّالة، أبا العباس أحمد أن يرتب عسّة³ من العسكر تمنع القادمين من باجة ونواحيها إلى الحاضرة. وأمر أبا الفلاح صالح بن محمد كاهية أن يتوجه في عقد من الخيل لجهة أخرى،

¹ منطقة جبلية تقع في الشمال الغربي التونسي على الحدود مع الجزائر وهي حاليا منطقة غار الدماء

² أهم مدينة تقع في الشمال التونسي في مجال الحبوب وتبعد قرابة مائة كلم الحاضرة تونس

³ حراسة

ومن المقدور لا يغني الحذر، وارتحل الباي إلى بستان وزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار المعروف بقرطاجنة على ساحل بحر حلق الوادي، يوم الخميس الثامن والعشرين من محرم (13 ديسمبر)¹، ومعه خواص أتباعه. واستصحب لعسسته عددا من العسكر في أخبية، أمر عليهم الشريف أبا محمد حسن المقرون (أمير لواء)، وأمر صهره وزير الحرب أبا النخبة مصطفى (باشا أغا) أن يتوجه (بأهله) إلى بستانه المعروف بالكرم. على حال التحفظ، وهو لصق قرطاجنة، بحيث يأتي كل يوم للاجتماع بالباي. (والوزير خزنة دار بأهله في مسكن وحده بقرطاجنة) وأقام متحفظا على عادة الكرنتينة². واشتد خوفه من المرض، وضيق بعدم الخلطة في الكرنتينة تضيقا لا يلزم عند الأطباء، حتى قال بعضهم إن التحفظ بالكرنتينة لم يكن في الملة الإسلامية، وهي من اختراع الأمم الإفرنجية، فنحن أدرى بكيفيتها، فيعرض عنهم، حتى وقع الإرجاف بأنه سافر من المملكة خفية وأبقى ختمه بيد وزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار، فصار يخرج بعض الأيام أمام القصر، وربما يصل إلى قرب أخبية العسكر لتراه الناس. وقلت له يوما: "قد بالغنا في الخوف"، فقال بديهية: "يقبح الخوف إذا كان من قرن تراه ويراك وتنال منه وينال منك، أما

¹ 1849 م

² Mise en quarantaine.

من سطوة الله فإذا لم يجمل الخوف فلا يقبح، ولعل الشجاعة في مثله من سوء الأدب مع الله، ولسنا من رجال التوكل"، ثم قال لي: "لو سبق القضاء والقدرومت بذا المرض وأخشى أن أقول عند حلوله لو فعلت الكرنتينة ما حل بي، مع اعتقادي أن لا فاعل إلا الله، وكان الشيخ محمد بيرم ألف رسالة لعمي في جواز التحفظ من الوباء"، فأرخيت له العنان، إذ لم يكن موضع جدال. وقال بعض الحاضرين، وهو أبو النخبة مصطفى خزنة دار: "إن ميّت الوباء شهيد"، وقد جاز التحفظ منه، وهذا لا نص في أن ميّته شهيد. وسأل عن ذلك، فكتب له العالم النحرير أبو عبد الله محمد الطيب الرياحي بان ميّته شهيد، لأنه مبطلون والمبطلون شهيد، كما هو صريح حديث الموطأ، في تقرير نفيس.

وخالفه الشيخ المفتي أبو عبد الله محمد بن سلامة، وكل منهما مات بهذا المرض رحمهما الله. ولما قرب المولد النبوي من السنة 1266هـ، كاتب شيخ العصر إمام الجامع الأعظم، أبا إسحاق إبراهيم الرياحي، بالاجتماع يوم المولد على العادة، ولا يتوقف على قدومه. وأمر بالزيت لمآذن البلاد وغير ذلك مما عوده، ووقع الاجتماع وإطلاق المدافع... وفي أيام مقامه بقرطاجنة، أتى قنصل من دولة الانبريال، فخرج وقابله مقابلة كرنتينة، واتى بمكاتيب من دولته

تقتضي عمل شروط، وأحسن قبوله ووعدده أن يكون عمل الشروط بعد زوال المرض والخروج من الكرنطينة. وعاقه المرض عن إتمامها فعقدتها ابن عمه بعده.

لم يزل على هذا الحال من شدة التحفظ والحذر، وهو مع ذلك لم يفرط في شيء من سياسة المملكة. وتأتيه المكاتيب من كل ناحية ومطالب العسكر، فيصدر جوابها، على كثرتها، من الغد. ولم يكن معه من الكتب غيري، وغيره كتب البارع أبي عبد الله محمد العزيز بوعتور، وهو يحرضنا على الاستعجال بأجوبة المكاتيب.

وفي قرطاجنة أتاه نعي أمير لواء الخيالة أبي العباس احمد، وهو المأمور بالعسّة، في الجهة الغربية¹. فكتب الالاي وعزاهم بأمرهم. ثم انتقل من قرطاجنة سادس ربيع الثاني (الثلاثاء 19 فيفري 1850م) إلى المحمدية، وهو في التحفظ الكرنطينة، وفيها أولى أبا محمد خير الدين أمير لواء عسكر الخيالة. ثم وقع بها المرض فرجع إلى باردو، فوقع به المرض، فانتقل إلى غار الملح وأخرج من السنة (أوائل جوان 1850م)، وصاحبها يومئذ أبو الفلاح صالح بن عثمان شيبوب، أمير لواء عسكرها المعاوضين. وفيها أتاه نعي الشيخ المفتي

أبي عبد الله محمد ابن سلامة، فوقع بها المرض وكثر في العسكر، فرجع إلى المحمدية في شعبان (جوان - جويلية) واستقر بها ثم رجع إلى قرطاجنة ثانيا، ومعه الاكتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي، لأنه سرحني إلى حمام الأنف لمرض أصابني. وقد كان هم بالتوجه إلى باجة، لولا أعيان من رجال الدولة عارضوا ميلاً. وهو وان اشتد جزعه في هذا المرض إلا انه فعل مع أهل الحاضرة في أيامه ما لم يزل ذكره حسناً جميلاً.

وذلك أن هذا المرض لما أتى الحاضرة نزل أولاً بفقره اليهود، واشتد عليهم خطبه، وفرّ القريب من قريته، فأحضر لهم قشلة سوق الوزر، ونقل إليها المرضى، وأجرى عليهم الجريات الواسعة، وتطوع لمداداة الفقراء الطبيب مصكر والصبنيولي، وله بذلك يد حسنة في البلاد اقتضت مزيد حبه. وجعل بربضي المدينة أطباء، وصرف في هذه الشدة أموالاً عظيمة، مع طعام وكسوة للفقراء من أي ملة [تشهد بذلك صحائف الدفاتر] ويأتيه كل يوم عدد من مات بالحاضرة. وممن مات من أعيانها في أول الأمر الفقيه الماجد أبو عبد الله محمد ابن الإمام أبي عبد الله محمد الشريف، والعالم النحرير أبو عبد الله محمد الطبيب ابن عالم الملة أبي إسحاق إبراهيم الرياحي، فاهتز لموته وتأسف لفقده، وكانت له صباغة في الشيخ والده، فأمره أن اكتب عنه معزياً وهو في

قيد الكرتينة...

ولما وصل المكتوب إلى الشيخ وهو في [حزن] مأتمه أمر الكاتب البارع تلميذه أبا عبد الله محمد الباجي السعودي، وكان حاضرا بين يديه، أن يكتب جوابه، فكتب عنه، بعد صدر بليغ. وإنما لم ننقل هذا الجواب بتمامه لأن من الشدة في هذه الكرتينة أنَّ المكاتب لما تأتي يقع تبخيرها، ثم يخرج لها الكاتب وهي عند أخبية العسة، ولا تدخل ساحة القصر الذي به الباي، وهو من الزيادة في الغلو.

واشتد حال هذا المرض في شعبان، ومات بسببه في الحاضرة أكثر من مائتين في اليوم ، فأشار العالم الفقيه القاضي الحنفي أبو النخبة الشيخ مصطفى ابن شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن حسن بيرم بجمع أربعين شريفا اسمهم محمد، يجتمعون في جامع الزيتونة من الصباح إلى الظهر، ويقرؤون سورة يس أربعين مرة، ويدعون الله بدعوات حررها لهم، ناقلا ذلك من بعض الكتب [عن بعض الصالحين، والأعمال بالنيات]، فاجتمعوا [بجامع الزيتونة] وتضرعوا إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، فتراجعت الشدة ونقص عدد الموتى من ذلك اليوم شيئا بعد شيء، حتى اضمحل بفضل الله ورحمته¹.

¹ احمد ابن ابي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، المجلد الثاني الباب السادس ص 128-136.

خلق الوباء ذعرا كبيرا لدى الباي وحاشيته مما جعله ينتقل من إقامة إلى أخرى يتخذ كل إجراءات الحجر الصحي من ذلك "الكرنطينة" والتحرّي من المكاتب التي ترد عليه وهو ما لم يمنعه من إدارة شؤون البلاد بل وظّف أموالا وانتدب أطباء للمرضى وهو ما يشبه السياسات الصحية المتبعة اليوم من قبل الدول الأمر الذي يدلّ على نوع من الوعي الصحيّ الذي قد يكون ناجما عن تواجد أطباء أوروبيين بالبلاط الحسيني ومع ذلك انجرّ عن هذا الوباء الذي دام قرابة السنة تراجع ديمغرافي حيث هلك يوميا ما يناهز مائتي شخص، مما جعل البلاد تفقد حوالي 100 ألف من سكانها حسب شهادة الطبيب الألماني غوستاف نختغال¹ في وقت ناهز عدد سكانها قرابة المليون نسمة². وقد اقتصر صاحب الإتحاف كشاهد عيان على فئتين تضررتا من الوباء هما بعض الأعيان من العلماء وكذلك فئة فقراء اليهود المتواجدين بمدينة تونس.

¹ منير الفنري، البلاد التونسية بين 1863- 1866 من خلال رسائل الطبيب الألماني غوستاف نختغال طبيب المحلّة، مركز النشر الجامعي تونس 2003، ص 254.

² Nous citons quelques estimations faites pour la Tunisie par des voyageurs européens au milieu du XIXème siècle :

-1845 Richardson.....2 061 000

- 1853 Pellissier de Reynaud.....800 000

Cité par Moncer Rouissi, *Population et société au Maghreb*, Tunis, Cérès Productions, 1983, p. 47.

أما عن مصدر الكوليرا فهو منطقة "الرقبة"¹ الموجودة في شمال غربي البلاد التونسية وهي متاخمة للحدود الجزائرية وليست بعيدة عن السواحل الشمالية وخاصة طبرقة. ولا يشير النص إلى مصدر الوباء وهل هو "محلي" أم هو وافد من الجزائر إما برّاً أو بحراً أو من غيرها من البلدان، وإذا دققنا في الأمر، فإن الغرب الجزائري اجتاحه في 1849 وباء الكوليرا عن طريق باخرة قادمة من مرسيليا إلى وهران وقد تكون بذلك حركة الملاحة البحرية في الحوض الغربي للمتوسط أو حركة الهجرة² من الغرب الجزائري، إثر سياسة "الأرض المحروقة" التي سلكها بيجو Bugeaud هي التي حملت العدوى إلى الحدود التونسية ومنها إلى مدينة باجة ثم إلى مدينة تونس. وقد أشارت بعض الدراسات التاريخية إلى عودة وباء الكوليرا إلى البلاد التونسية سنة 1856 قادمة في هذه المرة من طرابلس إلى جربة وإلى الجنوب الشرقي للبلاد التونسية³.

حسب بعض النصوص المصدريّة التي تتحدث عن مدينة أوروبية يشبه

¹ هي منطقة غار الدماء حالياً.

² عبد الكريم المجري، هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجاؤنة إلى تونس 1831-1937 دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار والهجرة وتشكل الجاليات المغاربية بتونس وخصوصياتهما الاجتماعية والقانونية، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2010، ص 63-107.

³ Lucette Valensi, *Fellahs Tunisiens. L'économie rurale et la vie des campagnes aux 18^e et 19^e siècles*, Paris La Haye, Mouton, 1977, p.284

موقعها موقع مدينة تونس وهي مرسيليا، وسنقتصر على بعض النصوص الفرنسية التي وصفت حالة المجتمع والاقتصاد خلال طاعون 1720.

ثانيا: الطاعون الأسود بمرسيليا في 1720

قدم "الطاعون الأسود" عبر باخرة Saint Antoine الوافدة من المشرق المحملة بمواد أولية لصناعة الأقمشة حيث دبّ المرض والموت إلى بعض ركبائها ويوم أُرست بميناء مرسيليا أصبحت المدينة مهددة منذ 25 ماي 1720 ودخلت في مرحلة الحجر الصحي والاقتصادي¹. ونذكر بعض الشهادات في هذا الصدد مع الحرص على المحافظة على لغتها الأصلية:

« Toutes les portes de la ville ont peine à suffire à la foule de ceux qui sortent...Presque tous les intendants de la Santé, ceux du bureau de l'Abondance, les conseillers de la ville, les commissaires de police, les recteurs de tous les hôpitaux et de toutes les maisons et œuvres charitables, les commissaires mêmes qu'on vient d'établir depuis quelques jours seulement dans les paroisses et dans les quartiers, pour

¹ Paul Gaffarel, *La peste de 1720 à Marseille et en France, d'après des documents inédits*, Paris, Hachette, 2016.

vaquer au soulagement des pauvres, les artisans et tous métiers et ceux qui sont les plus nécessaires à la vie..., tout déserte, tout abandonne, tout fuit..., l'aspect de la ville excite déjà compassion, tout y a l'air de désolation ; tous les magasins, toutes les boutiques sont partout généralement fermés, la plupart même des maisons, des églises et des couvents ; toutes les places publiques sont désertes et personne n'est plus par les rues que des pauvres gémissants ; le port est dans un dérangement total, les galères sont retirées du quai et tous les vaisseaux et bâtiments marchands sont hors de l'amarre et à l'écart.

Cette superbe Marseille, peu de jours avant si florissante, cette source d'abondance, et si l'on ose dire, de félicité, n'est plus que la vraie image de la Jérusalem désolée »¹.

وتقدم مصادر أخرى بعض الصور المكملّة للوحة التي رسمها طاعون

1720 بمدينة مرسيليا وهي تتحدث عن انتقال المرض

¹ Pichatty de Croissainte, *Journal de ce qui s'est passé en la ville de Marseille depuis qu'elle est affligée de la contagion*, Mareille 17 aout 1720, Archives de la Chambre de commerce de Marseille, G-18.

« On ne pouvait plus ignorer qu'un seul malade suffit pour infecter toutes autres personnes qui se trouvaient dans sa maison ; on disait publiquement, et on le savait par expérience, qu'une personne mourait brusquement, dès qu'elle se sentait le moindre mal ; un charbon, un clou, un frisson, une défaillance du cœur, tout était mortel. La crainte, l'épouvante fait abandonner les malades, et, dès le premier symptôme qu'on apercevait en eux, on déserte les maisons suspectes : chacun se charge de quelque ballot, se cherche un asile ; la maladie se répand ainsi et se multiplie à vue d'œil »¹

وتصوّر شهادة أخرى حالة المصاب بالطاعون وسلوكه كما يلي:

« Il est séquestré dans un galetas, ou dans l'appartement le plus reculé de la maison, sans meubles, sans commodité, couvert de vieux haillons et de ce qu'on a de plus usé, sans autre soulagement à ses maux qu'une cruche d'eau qu'on a mis en fuyant auprès de son lit et dont il faut qu'il s'abreuve lui-même, malgré sa langueur et sa faiblesse,

¹ P. Giraud, *Journal*, manuscrit de la Bibliothèque de la ville de Marseille, n° 49 420.

souvent obligé de venir chercher son bouillon à la porte de la chambre et de se trainer après pour reprendre le lit. Il a beau se plaindre et gémir, il n'y a personne qui l'écoute, et on lui crie, de plus loin que l'on peut, qu'il ait bon courage, tandis qu'on le lui abat par cruel délaissement, heureux si on lui livre un domestique ; tout le reste de la famille s'enferme dans l'appartement le plus éloigné de la chambre du malade, ou même abandonne tout à fait la maison »¹.

كانت مدينة مرسيليا في مطلع القرن الثامن عشر أهم ميناء تجاري فرنسي يقع في المتوسط، تحاول من خلاله فرنسا ربط مبادلات تجارية مع المغرب والمشرق لتتجاوز تخلفها أمام الهيمنة البريطانية التي انتقلت من المتوسط إلى الأطلسي. لذلك، ربط التجار الفرنسيون شبكة علاقات تجارية مع "المشاركة"² الذين تردد الكثير منهم على مرسيليا التي أصبحت تورد الحبوب والزيوت والأقمشة والحريم مما جعلها تتأثر اقتصاديا واجتماعيا بالشرق، من

¹ Bertrand, *Relation historique de la peste à Marseille en 1720*, t. 117, cité par Pierre Léon, *Economies et sociétés préindustrielles*, T. 2 1650-1780, Paris, Armand Colin, 1970, p. 59.

² « Les Levantins »

ذلك طاعون 1720 الذي كان آخر حلقة في المنظومة الديموغرافية التقليدية بفرنسا.

لكن ما الذي تغير-انطلاقاً من المصادر التونسية والفرنسية التي أوردناها- بين الأمس واليوم؟

تكاد طرق العدوى والسلوكيات المتبعة إزاءها ومشاعر الخوف والهلع والاحتياطات هي نفسها التي تعيشها الإنسانية اليوم أمام جائحة الكورونا، ولا يهمننا الوباء في حد ذاته بقدر ما تهمننا التمثّلات التي يحملها.

ثالثاً: تمثّلات الوباء

-الآخر مصدر الوباء: تحمل جل المواقف بالأمس واليوم تصوراً يجعل مصدر المرض هو الآخر ثقافياً. وفي هذا الصدد، يعتبر المسلمون أن النصارى هم سبب الداء في حين يرى هؤلاء العكس، واعتبراليهود أحياناً أخرى مصدراً للعدوى. ولئن كانت هذه التمثّلات اليوم غير معلنة فهي لا تزال حاضرة في الذهنيات وهو ما يفسر تنامي السلوكيات العنصرية في سياق جائحة الكورونا. وبذلك يوجد في الذهنية العامة مزج بين الوباء والآخر إلى حد تحولهما إلى "عدو" مشترك، وبذلك يوظف الوباء دائماً ضمن دائرة الصراع الحضاري

كما يحصل اليوم بين الولايات المتحدة والصين من ناحية والولايات المتحدة وإيران من ناحية أخرى. ويصل هذا التصور الخطير إلى حد اعتبار الجار أو شخص من العائلة هو الآخر، وتكون النتيجة هي العزلة المادية والمعنوية ومزيد التفوق على الذات ورفض الآخر.

- الشرق منتج للوباء: تتفق اغلب النصوص في أن الوباء قادم من الشرق، حيث يعتبر الحجيج بالنسبة إلى مسلمي الغرب الإسلامي مصدرا لانتقال العدوى، ويعتبر التجار القادمين من الهند أو عبر "طريق الحرير" في المخيال الأوروبي حملة للأمراض. ولعل الغريب في الأمر أن سكان الحوض الغربي للمتوسط سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين يلتقون في "اتهام" الشرق بإنتاج الوباء وتصديره، ويصبح حينئذ الآخر الثقافي مجسدا في آخر مجالي، وهو ما يزيد من "قتامة" صورته مثلما صور أحد التجار الهولنديين حالة المرضى في الهند في منتصف القرن السابع عشر، وكأن الأمر غريب وخاص بهذه البلاد وهو بعيد كل البعد عن أوروبا.

"Des gens errent, ici et là, sans secours, ayant abandonné leur ville ou leur village. Leur état se reconnaît aussitôt: Les yeux profondément enfoncés, les visages blêmes, les lèvres couvertes

d'écume; la mâchoire inférieure saille, les os percent la peau, le ventre prend comme un sac vide; certains beurlent de faim en réclamant l'aumône. Des centaines et centaines de mille de gens mourraient, au point que le pays était entièrement couvert de cadavres, qui restaient sans sépultures; il s'en dégageait une telle puanteur, que l'air en était rempli et empesté »¹.

لقد انتاب نفس الشعور البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لما ظهرت الكورونا التي سماها البعض "مرضاً صينياً"، ولذلك صنع الغرب الشرق كما بين ذلك إدوارد سعيد ليثبت تفوّقه واستعلاءه، وإذا اتفق الغرب على أن الشرق منتج للوباء ومصدّر له فما هي الطريق التي يمر منها الطاعون حسب نفس التمثلات؟

- طريق الطاعون: لقد كان الطاعون حسب الذهنية السائدة يمرّ من الشرق عبر الطرق البحرية، ولذلك كانت سفن التجار والحجاج أهم ناقل للعدوى، وكانت الموانئ المتوسطية هي الباب الذي ينفذ منه الوباء، ولئن

¹ "Témoignage d'un marchand hollandais dans l'Inde de 1630-1931", cité par Ferdinand Braudel., *Civilisation matérielle et capitalisme*, Paris, A. Colin, 1967, T. I, p. 58.

اقتصرننا في النصوص التي أوردناها على مدينتي تونس ومرسيليا، فإن غيرهما من المدن المتوسطية كانت مرافئ أو محطات ينزل بها المرض، وقد اشتهرت المدن الإيطالية أو الإسكندرية بمثل هذا الدور حيث تتحول شبكة المدن إلى شبكة للوباء، وينجرّ عن ذلك أن أهم قواعد الحجر الصحي تبلورت بهذه الفضاءات التي يضرّ ركود اقتصادها ببقية أنحاء العالم. ويمكن الحديث عن وجود ثنايا أخرى لانتقال العدوى وهي الطرق البرية كطريق الحج أو القوافل التجارية الصحراوية أو طريق الحرير عبر آسيا الصغرى.

ولعلّ الجديد في الأمر هو أن النقل الجوي أصبح أهم سبيل لتنقل العدوى وانتشارها عبر العالم، ولا يقف الأمر عند كثافة شبكة النقل الجوي وعدد المسافرين في العالم، بل يجب الأخذ بعين الاعتبار معطى آخر جديد وهو سرعة الحركة مثلما هو الأمر بالنسبة إلى العملة التي يجب عدم الاقتصار على النظر إلى حجمها وإنما يجب الأخذ بعين الاعتبار سرعة تداولها، وهوما يجعل الكورونا اليوم ظاهرة عالمية على عكس الجوائح السابقة التي اقتصرت على مجالات جغرافية دون سواها.

- تمثلات الشفاء: تكون في الغالب الأعم مرتبطة بتصوّر أصل المرض، حيث يهرع البعض للعبادة والتوسل إلى الله مثلما حصل في تونس في 1850،

انطلاقاً من عقيدة دينية تعتبر الله مصدر الداء والشفاء، ويسود التشاؤم صنفاً آخر من الناس لا يرون سبيلاً للشفاء، ولذلك يستسلمون للوباء الذي يعتبرونه منذراً بالنهاية الفردية أو الجماعية أو بزوال الدنيا. وعلى عكس ذلك، يعتقد البعض أن الشفاء بيد الإنسان، وبالتالي عليه السعي والاجتهاد للحصول على الدواء، يدفعه في ذلك التفاؤل والاعتقاد في الغد الأفضل.

وانطلاقاً من الماضي يمكن للمؤرخ أن ينظر لظاهرة الكورونا من زوايا متعددة، يتعلق بعضها بالاختصاص الضيق كالتأثير في مجتمع محلي أو تاريخ العلوم والتقنيات، ولكن أهم يمتلكه المؤرخ هو الزمن والنظرة على المدى الطويل كما حددها فردينان برودال¹ في دراسته للمتوسط وللثقافة المادية بصفة عامة، وهي الزاوية التي سنعتمدها في هذا الصدد لتحليل ظاهرة الكورونا.

رابعاً: الكورونا" في مرآة المدى الطويل

إذا نظرنا إلى جائحة الكورونا من الزاوية التاريخية فهي تتميز عن أخواتها ببعدها العالمي من حيث الظرفية التي برزت فيها ومن حيث مدى انتشارها، فلئن اقتصرَت الأوبئة سابقاً على المدن والمراشي وعلى جهات من العالم دون

¹ Longe durée

سواها، فإنَّ الكورونا اكتسحت العالم كله وبسرعة فائقة ولم تخل منها أي منطقة ولو كانت نائية، ويرجع ذلك لحركة التنقل التي فرضها الاقتصاد المعولم وتطور وسائل النقل والى مستوى التشبيك الذي وصلت إليه الإنسانية، وربما تمثل "النزلة الاسبانية" التي اجتاحت جزءا هاما من العالم غداة الحرب العالمية الأولى مرحلة انتقالية بين الأوبئة الإقليمية والتقليدية والأوبئة المعاصرة والمعولمة.

ولا يقتصر بعد العولمة المتعلق بالكورونا وبكل الأوبئة التي ستظهر لاحقا على انتشارها الكوني، وإنما يشمل جوانب أخرى تتمثل في سرعة انتقال المعلومات المتعلقة بتقنيات التحاليل والأدوية وخاصة في كيفية "إدارة الأزمة". حيث تكاد تتبع جل البلدان سياسات الحجر الصحي بنفس الطريقة وفي توقيت موحد وتتخذ نفس الإجراءات الوقائية، وكأن العالم قرية واحدة وكأن الإنسانية جسم أصيب بمرض تشخيصه معلوم. وأصبحت بذلك منظمة الصحة العالمية تحدد سياسات الدول والحكومات في المجال الصحي والاجتماعي وتوجه الطواقم الطبية، ولعل هذه المركزة الصحية كادت تقضي على العولمة الأمريكية، وهو ما يفسر سياسة المقاومة والمواجهة التي توخاها

الرئيس الأمريكي اتجاء منظمة الصحة العالمية، الأمر الذي يذكّرنا بمقاومة "القارة العجوز" للعولمة الأمريكية إبان ظهورها.

وستؤدي عالمية الوباء ومركزة السياسات الصحية إلى تحولات في مستوى صنع القرار، من شأنها إضعاف القرار الوطني أو "السيادي" الذي أصبح رهين معطيات خارجية لا تتحكم فيها الدول، بل صار رجل السياسة ينتظر تعليمات الخبراء والعلماء والأطباء التي تمر عبر مؤسسات دولية، وانتقلنا من سلطة الساسة إلى سلطة العلماء الذين أصبحوا يلقبون بـ "الجيش الأبيض" و"الطواقم الطبية"، ليُنعت مثلاً وزير الصحة التونسي بـ "الجنرال". إضافة إلى شعور قادة الدول بتبعيتهم وبسرعة الانتقال، فأكثرنا من البروز في الإعلام بزيارة المخبر والمستشفيات التي أصبحت تشبه ميادين المعارك، وقدموا لبيانات صحية كما لو كانت بيانات عسكرية، وأعلنوا عن انتظار موجات كبيرة وكأنها "أم المعارك"، ليعلن في الأخير "الانتصار" على فيروس لقّب بـ "العدو" وأعدت "استراتيجيات المقاومة" تحسباً لعودته.

هل وقع افتعال معركة ليكتسب الساسة شرعية فقدوها فترة بفعل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية أم انتقلنا عبر التاريخ من دولة الفلاسفة إلى دولة الفقهاء ثم إلى دولة العسكروالى دولة رجال الأعمال والأموال لنصل اليوم

إلى دولة العلماء؟

يبدو أنَّ المرحلة المقبلة سيحتدّ فيها الصراع بين مواقع النفوذ التي تقف وراء المخابر وصناعة الأدوية والمستلزمات الطبية¹ لتكون حافزا لخروج الاقتصاد العالمي من أزمتة المتواصلة التي من المتوقع أن تضاعف من التحركات الاجتماعية التي ستقمع بعلة ضرورة التضحية التي تستلزمها مخلفات الحرب على العدو الذي لا يزال جائما، ولا بد من "مجهود تعبوي" مالي وشعبي لمقاومته.

ولا يدخل هذا الرأي في سياق التنبؤ وإنما يفرضه مسار التطور التاريخي على المدى الطويل والمتوسط، وبحكم تخصصنا في مجال التاريخ الاقتصادي فإننا سنحاول النظر للموضوع من هذه الزاوية.

لقد تميزت مرحلة النصف قرن الأخير بهيمنة الرأسمالية التي تحولت منذ نهاية الاشتراكية إلى رأسمالية متوحشة، وكأنها تثار لنفسيها من كل القيود التي فرضتها عليها الحكومات منذ نظرية الاقتصادي كينز خلال ثلاثينات القرن الماضي. وزادت أزمة 2008 من تفاقم حدة الرأسمالية في صيغتها الأمريكية،

¹ وقع الحديث في المغرب عن "دبلوماسية الكمّامة".

وتجلى ذلك في تفاقم دور الرأسمال المالي الذي أصبح يعتمد المضاربة سعياً لمزيد من الربح عوضاً عن الإنتاج وخلق الثروة، كما تجلى في نوع من القرصنة أو الصعلكة الجديدة المتمثلة في الاستراتيجيات العسكرية الصدامية وافتعال الأزمات لتبرير الإغارة على المواد وافتكاكها واحتكارها. وأصبحت بذلك الثروة لا تنتج عن طريق الاستثمار والعمل وإنما عن طريق الإغارة والنهب على طريقة القبائل في القرون الوسطى الأوروبية، وهو ما يعتبر مفارقة غريبة تتمثل في انحراف الرأسمالية عن جذورها ومبادئها الليبرالية المتمثلة أساساً في الحرية والمنافسة النزيهة والابتعاد عن الاحتكار. وبذلك، لا توجد اليوم في العالم منظومة رأسمالية كالتى حددها أدام سميث ودافيد ريكاردو وغيرهما من المنظرين، وكل ما في الأمر أننا نعيش اليوم منظومة اقتصادية هجينة أقرب ما تكون إلى مزيج من الرأسمالية والاقتصاد الموجه والتوحش القروسطي والهيمنة الاستعمارية، كل ذلك في إطار مركزية جديدة تتمثل في العولمة الأمريكية.

لقد أربكت الكورونا هذه المنظومة، وهو ما يفسر مواقف الرئيس الأمريكي المضطربة والمتوترة وعدم نجاحه في إدارة الأزمة، ورغبته في توجيه الأنظار إلى أطراف أخرى استفادت من الجائحة، وهو ما سيحيلنا على مرحلة

جديدة على المدى القصير والمتوسط قد تؤدي إلى تحولات جوهرية على المدى الطويل.

لقد استفحلت الكورونا بادئ الأمر في الصين وإيران وهما البلدان المعاديان لأمريكا مما جعل الشكوك تتجه إلى الإدارة الأمريكية في صنع الفيروس، ولكن عندما انتشر الوباء في الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت الاتهامات عكسية إلى حد السعي إلى تحميل الصين مسؤولية الضرر الذي حصل في العالم، وليست المعركة في حقيقة الأمر سوى معركة اقتصادية حيث ترغب الولايات المتحدة بحملتها الدعائية إضعاف القوة الاقتصادية الصينية الصاعدة، في حين تسعى هذه الأخيرة في صمت إلى "إعانة" الدول الأوروبية والإفريقية المتضررة لكسب أسواقها وتصدير التقنيات والبضائع والخبرة الصينية". وبدولنا أن منهجية العمل والطرق المتوخاة من هذا الطرف أو ذاك ستؤدي إلى المزيد من هيمنة مركز العولمة الجديدة المتمثل في الصين وضعف المركز القديم المتمثل في أمريكا، ليعيش العالم بلا شك مرحلة انتقالية هي مرحلة الاستقطاب الثنائي الصيني الأمريكي، لكن ستؤول الأمور إلى صالح الصين مثلما عاش العالم فترة استقطاب روسي-أمريكي انتهت لصالح أمريكا. ستترك الجائحة أثارا نفسية وفكرية قد تولد نظريات جديدة في

الفلسفة والاقتصاد والسياسة، مثلما تمخضت عن الحرب العالمية الثانية الوجودية والبنوية في بعدها الاجتماعي والاقتصادي. ولا شك أنها ستوحي للفنانين بلوحات يعبرون من خلالها بأصناف فنونهم، عن بعض هذه المشاهد ولكن يبقى المشكل الأساسي في فهم طبيعة ظاهرة "الكورونا" بكل تعقيداتها وأبعادها.

فإذا كانت أخواتها السابقة لها ظاهرة وبائية برزت بصفة طبيعية تاركة آثارا مختلفة، فإن كورونا تميزت بأنّها وظّفت من قبل "يد خفية" تحرك الأمور منذ بداية الجائحة لتوجه الساسة والأطباء والشعوب، ولكن المشكل الأساسي هو في طبيعة وحقيقة هذه "اليد الخفية" التي سيكشف عنها التاريخ.



هل استعادة المؤرخ لما حدث في الماضي سيفيد في فهم ما يجري زمن " كورونا "؟

البضاوية بلكمال

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الخامس، الرباط



لم يكن المؤلف بمعزل يوما ما عن محيطه، سواء كان مؤرخا أو فقيها أو فيلسوفا أو رساما أو نحاتا فهو يعيش ويتفاعل معه في لحظات الفرح، وأيضا في أوقات الشدائد. ولعل تدوين التاريخ الذي ارتكز على التأريخ للأحداث الكبرى، جعل أعمال البشر الأخرى فرعية وليست هامشية، بدليل أن أب التاريخ الإغريقي "هيرودوت" (Hérodote) نقل التاريخ من عالم الأسطورة إلى الواقع، فاهتم في حديثه عن الحروب الميديّة (498- 448 ق.م.) التي جمعت بلاد فارس العظمى ومدينة أثينا الصغرى، بسرد تاريخ باقي الشعوب والأمم التي تدور في فلك القوتين المتصارعتين، بهدف أن لا يطوي النسيان أعمال البشر¹. وانصب أيضا اهتمام معاصره المؤرخ الإغريقي "ثيوسيديدس" (Thucydide) (465- 395 ق.م.)² على تدوين أخبار الحروب البيلوبونيسية (431- 404 ق.م.)³ التي جمعت المدينتين الإغريقيتين أثينا وإسبرطة، ولكنه تميز عنه بكونه هو أول

¹ قال حرفيا - حسب ما ورد في نص المترجم له- ما يلي: "هذه أبحاث هيرودوت الهاليكرناسي كتبها ليبقى ذكر أفعال الرجال حيا ومآثر الإغريق والبرابرة وأعمالهم المجيدة خالدة، وهدفي منها توثيق أسباب النزاع بينهم"، أنظر: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2007، ط. 2، ص. 27.

² يقترح هرنشو تاريخا آخر لولادة ووفاة "ثيوسيديدس" (حوالي 471 - 401 ق.م.)، أنظر: ج. هرنشو، علم التاريخ، ترجمه وعلق حواشيه وأضاف إليه فصلا في التاريخ عند العرب عبد الحميد عبادي، دار الحداثة، بيروت، 1988، ص. 30.

³ ثيوسيديدس، حروب البيلوبونيس، الكتاب الثاني، الفقرة 47 (ويكيبيديا).

وأقدم من أرخ للوباء الذي ضرب مدينة أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد.¹

"ثيوسيديدس" هو شاهد على عصره بحديثه عن رخاء وحروب ووباء عاصمة العلم والعلماء أثينا آنذاك، بما تحمل لفظة "شاهد" من دلالات عميقة. ويعد نصه المستقى من مؤلفه "حروب البيلوبونيز" أقدم وثيقة مكتوبة حول جائحة الطاعون، كما يكتسي أهمية قصوى، لأن صاحب النص الذي عاين وعانى من الوباء، أراد أن تتعلم الأجيال كيف تواجه هذا المجهول، حيث قال: "أترك للطبيب وللعادين مهمة إبداء رأيهم حول المرض بتحديد مصدره الفعلي وتفسير الأسباب من وجهة نظرهم التي أدت لهذا الاضطراب، والتي جعلت (المرض) قادرا على ممارسة هذا الفعل. بالنسبة لي، أتحدث عن المرض كما يظهر، وأتوقف عند علاماته حتى إذا تكرر لا نكون أمام المجهول. هذا ما سأقدمه بحكم أنني عانيت شخصا منه، ورأيت بنفسني باقي الأشخاص المصابين به".²

ما الجدوى من تذكر الماضي في زمن "كورونا" الذي يقترن أيضا بالحديث

¹ تحدث "ثيوسيديدس" عن وباء الطاعون الذي ضرب أثينا بشكل متوال بين سنتي 430-426 ق.م.، لأنه أصيب به، وكان أحد الناجين منه، هو والفيلسوف الإغريقي المشهور "سقراط" (Socrate) (469-399 ق.م.) الذي تولى رعاية المصابين بالمرض وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة دون خوف أو تردد، وكأنه يشير إلى "مناعة القطيع".

² ثيوسيديدس، حروب البيلوبونيز، الكتاب الثاني، الفقرة 47 (ويكيبيديا).

عن مصير العولمة؟

استفاد المؤرخ "ثيوسيديدس" من الدرس القاسي للطاعون الأثيني، فقد أحصى هو ومعاصروه حوالي 30 سببا لحدوث الوباء، وخلص إلى القول: "أتوقف عند علاماته حتى إذا تكرر لا نكون أمام المجهول". أراد أن تتعلم الأجيال كيف تواجه "المجهول"، هو ذاك الذي نسميه اليوم بـ "الخفي"، والذي جعلنا نعتقد بأن كل الأشياء صالحة لأن تكون سببا لظهور الجائحة، بدءا من "الخفافيش"، وانتهاء بالحروب "البكتيرية والفيروسية".

هل استعادة ما حدث تفيد في فهم ما يجري في عالمنا على مرأى ومسمع

منا؟

منطقي أن يؤمن "ثيوسيديدس" - أب النقد التاريخي - ونؤمن معه كمتهمين للتاريخ، بأنه "علم دقيق بحوادث الماضي قد يفيد، لأنه من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي"¹.

هل خلف لنا الكتاب بصفة عامة والأطباء بشكل خاص بعده ما يفيد

في معرفتنا بأنواع الطواعين التي سادت في عصرهم؟

ما هي أشكال التدابير التي اعتمدت آنذاك؟

¹ هرنشو، علم التاريخ، مرجع سابق، ص.31.

هل يجب على المؤرخ المعاصر لـ"كرونا" أن يحبس نفسه في برج عاجي؟

هل تحركت يراعتة في محاولة لترك بصماته حول هذه الجائحة كما

فعل سابقوه بدءاً من المؤرخ "ثيوسيديدس"؟

يمكن اعتبار الأسئلة المذكورة أعلاه بمثابة حقل معرفي يحفز الدعوة

للكتابة، ويمكن أن يساهم في ميلاد عدة أطروحات تمتع من الماضي دروساً

وعظات تساعد على معرفة أنواع الأوبئة وطرق تديرها، بل محاولة فهمها كما

أوصى بذلك مؤرخ حروب الإغريق وأيضاً مؤرخ وبائها "ثيوسيديدس"، وأكرر

قوله لقيمته، حيث قال: "بالنسبة لي، أتحدث عن المرض كما يظهر، وأتوقف

عند علاماته حتى إذا تكرر لا نكون أمام المجهول، هذا ما سأقدمه بحكم أنني

عانيت شخصياً من المرض، ورأيت بنفسني باقي الأشخاص المصابين به".

من جهتي كمتخصصة في التاريخ بشكل عام، والتاريخ القديم بشكل

خاص، نهتني "جائحة كورونا" لتتبع ما يروج عبر مختلف المنابر والمنصات التي

تحركت بسبب الجائحة، وكذلك عمدت لالتقاط الإشارات الواردة ببعض

المصادر التي أشتغل على مضامينها لأكثر من ثلاثة عقود، يتعلق الأمر بالمصادر

التالية:

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، لعبد الله ابن البيطار المالقي (توفي

646هـ / 1248 م).¹

تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، لداود بن عمر الأنطاكي
(القرن 11هـ/16م)²،

الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، لمحمد بن أحمد الكانوني
العبدى (1311-1357هـ./1893-1938م)³

وبما أن المناسبة شرط، بمعنى آخر يلزم الحديث عن دور المؤرخ خلال
جائحة كورونا، وليس الحديث عن المؤسسات أو المفردات الطبية، انتقيت
المصدر الأخير "الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى"، للفيقه - المؤرخ
لتاريخ الطب، محمد الكانوني العبدى. ولا أرى أبلغ من عباراته في تقديمه
لكتابه، قال: "وها أنا الآن أتقدم إلى أبناء المغرب خاصة وإلى غيرهم عامة بهذا

¹ أحمد المالقي ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، تحقيق الفاروقي إبراهيم
العقار الدسوقي، القاهرة 1191 هـ، 4 أجزاء.

² داود بن عمر الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

³ نجد ترجمة الفيقه في هذين العملين، وقد تسلفت أخطاء مطبعية في المؤلف الأول حول
تاريخ ولادة الفيقيه، أنظر: محمد السعيدى الرجراجي، الفيقيه محمد بن أحمد العبدى
الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية أسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي
للطباعة والنشر، مراكش، 2000، ص. 32-50. محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب
العربي في عصر دول المغرب الأقصى، تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز، جامعة محمد
الخامس السويدي، منشورات كلية الطب والصيدلة بالرباط، مطابع الرباط نت، الرباط
2013، ص. 9-13.

الكتاب الذي لا شك سيكون تاجا على جبين تاريخ المغرب وبرهانا على ما لعظماء رجاله من أعمال خالدة وأثار ماجدة تفخر بها الأجيال المستقبلية".¹

يزدان مؤلف الفقيه الكانوني بالمعطيات التي تفيد في الاعتزاز بتراثنا الطبي، وتتيح كذلك إمكانية فهم موضوعنا، إذ يشير المؤلف للكتابات حول موضوع الأوبئة، وأيضا للتدابير والعلاجات المعتمدة من لدن مخلف الدول التي تعاقبت على حكم البلاد. وهو على خلاف الكثيرين، يعترف بازدهار العلوم والمعارف عبر تاريخ المغرب، حيث قال "سابق المغاربة الأمم الراقية في كل ميادين الحياة، فنبغ عدد من العظماء والمفكرين في كل العلوم والفنون"، ومنها بطبيعة الحال العلوم الطبية على اعتبار أنها موضوع كتابه.

المؤلف والمؤلف: الفقيه الكانوني مؤلف كتاب الطب في المغرب:

- تعريف المؤلف:

هو الفقيه محمد بن أحمد الزيدي الجحشي الكانوني العبدى،² ولد

¹ محمد بن أحمد الكانوني العبدى، تاريخ الطب العربي بالمغرب، (مبيضة للفقيه المنوني استخرجها من مخطوط بتاريخ 24 جمادى الأولى 1371/مارس 1952)، ص.18.

² خصص الأستاذ الباحث محمد السعيدى الجراجي مؤلفه المعنون: "الفقيه محمد بن أحمد العبدى الكانوني"، ص. 211-334 للتعريف بالفقيه وبمؤلفات ودفاتر الكانوني وتقديم نماذج منها. كما نجد تعريفا به وبأعماله ضمن التحقيق: محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص.9-16.

عام 1311هـ/ 1893 م برباط أبي زكريا بشمال مدينة أسفي، ومات في ريعان شبابه في 15 رمضان 1357هـ/ 8 نوفمبر 1938م. بإحدى مستوصفات مدينة الدار البيضاء متأثراً بحقنة أصابت منه مقتلاً. درس القرآن الكريم بمدينة الغربية بدكالة، وختمه بمنطقة الشاردة بسهل الغرب.¹ وأنهى حفظه بسلا سنة 1330 هـ. أرسله عمه للقرويين، فتتلمذ على يد العديد من الشيوخ، وأجازه العلامة أبا شعيب الدكالي عام 1339هـ. حل بعد ذلك بسيدي كانون حيث تعاطى للتدريس والتأليف، وبهذه البقعة الطيبة حمل لقب الكانوني، وقد تعرف عليه أعيان مدينة أسفي حيث كان يدرس أبناءهم، فحفزوه للانتقال إلى مدينة أسفي. تولى هناك التدريس 1342هـ، ثم عمل عدلاً شرعياً وإماماً بضرخ الشيخ أبي محمد صالح.

مؤلفات الفقيه الكانوني وكتابه "تاريخ الطب العربي في عصور دول المغرب":

تهم كتب العلامة عدة حقول معرفية: الفقه والحديث والفتوى والأعلام وحياة الرسول الكريم والتاريخ المحلي، وشهيرات نساء المغرب والرياضة والطب...، ناهيك عن الدفاتر، وهي من الحجمين الصغير والمتوسط². تحتوي

¹ انتقلت تربيته لأخواله بعدما توفي والده وعمره لا يتعدى سنتين، ولعمه بعد وفاة والدته.
² عدد محمد السعيد مؤلفات الفقيه، وأحصى 19 دفترا مع تقديم نماذج لمحتويات بعضها، للمزيد: محمد السعيد الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدى الكانوني، ص. 216- 355.

على معلومات قيمة في شتى دروب المعرفة، فعلى سبيل المثال: برر في الدفتر 11 سبب العزوف عن الكتابة في تاريخ الطب قائلا: "لا يخلو أن الطب كان يعد قائمة من قوائم الفلسفة وبابا من أبوابها لهذا كان يظن به سوء العقيدة. والنار لازالت وقت ما تنشب في الكتب الفلسفية والكتب الطبية تتبعها في ذلك...وأما الطب المغربي الأندلسي ... فجاء "مسيورونو" وتعاطى البحث فيه ولنا منه أبحاث جيدة...كتاب الاقتصاد والتيسير ينبئ مما كان عليه الطب الأندلسي الرفيع".

النسخ المعتمدة من طرف المحققين لمؤلف "الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى"¹:

اعتمد المحققان علال ركوك ومحمد بالوز على نسختين للتحقيق:

- نسخة 1: هي نسخة الخزانة الوطنية تحت رقم 019 الرباط 1970 ر

175، لا تحمل اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، تتضمن 114 صفحة و129 ترجمة.

نسخة 2: هي نسخة الخزانة الحسنية مكتوبة بخط اليد ولا تحمل اسم

¹ النسخة المعتمدة من لدن المحققين تعد من أكمل النسخ حول تاريخ الطب المغربي، ولا حاجة لندكر بأن جهود المحققين هامة وبأن الشباب الجامعي مدعو لدراستها ودراسة باقي المخطوطات التي ستثير طريقتهم حول تاريخ الطب ببلادنا.

الناسخ ولا تاريخ النسخ.

من جهتنا اعتمدنا على "المبيضة" التي سلمنا إياها العلامة الفقيه الفقيه محمد المنوني، وهي جاهزة للطبع، وقد قمنا برقنها.¹ يعرف الفقيه المنوني مصدر المبيضة قائلاً: "استخرجت هذه النسخة من مبيضتها الموجودة بالخزانة الأحمدية بفاس لصاحبها الصديق العزيز المؤرخ الباحث المؤلف الفاتح بيته وخزانتته للقاصدين أبي خليل عبد السلام ابن سودة ... الذي أعارني هذه المبيضة ليلة الجمعة 24 جمادى الآخرة عام 1371 هـ/ 21 مارس سنة 1952 م." ويضيف قائلاً: "المرجح أن المؤلف أخرج نسخة تامة من هذا التأليف. فقد قرأت بخط المؤلف كإعلان عن هذا ما يلي: «تاريخ الطب العربي بالمغرب» تأليف محمد بن أحمد العبدي".

وفي تقديم العلامة المنوني لمحتوى المبيضة، يقول: "يشتمل هذا الجزء 1 الذي يقع في صحائف 94 مع الصحائف 10 من الجزء 2 بعده على تأليف

¹ ساعدتني أختي زعيمة بلكامل يومها (في بداية التسعينات) على رقع المبيضة على أمل نشرها نزولاً عند رغبة الفقيه المنوني، وأيضاً من أجل إفادة المهتمين بتاريخ الطب، قدمت يومها نسخة للزميل بوجمعة رويان بسبب اهتمامه بموضوع الطب خلال عصر الحماية، ليكون المخطوط بمثابة أرضية لأطروحته. وبما أن الأستاذ الفقيه علال ركوك أخبرني بتوفره على نسخ أخرى، أثرنا أن يتولى نشرها، فهو سليل مدينة أسفي التي أحسنت للفقيه الكانوني، وأردت أن يكون عمله هدية للأسفيين باعتباره أحد أبناء أسفي الصامدة.

مهم في "تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى"، مؤلفه: مؤرخ أسفي البحاثة الجليل محمد بن أحمد الكانوني العبدى أصلا المتوفى عام 1357-1938. وقد عنونت هذه النسخة بـ "الطب العربي في عشر دول بالمغرب الأقصى" ثم رأته مسمى "تاريخ الطب العربي بالمغرب"¹.

افتتح الفقيه الكانوني من جهته مؤلفه بمقدمة تحدث فيها عن نشوء الطب في الأمة الإسلامية إلى أن بلغ درجة الازدهار، فنظرية النشوء والارتقاء حاضرة في الفكر العربي وواضحة عند العلامة ابن خلدون، ومتجذرة في فكر الكانوني، لقد قسم الفقيه الكانوني الطب بالمغرب وفق هذه النظرية إلى أربعة أدوار،² هي على النحو التالي:

دور التكوين والتربية من أواخر القرن الثاني إلى أوائل الرابع عصر الدولة الإدريسية ومن كان في أعقابها.

دور الازدهار في القرون الثلاثة الرابع والخامس والسادس حيث صار المغرب أولا تابعا للأندلس وأواخر الدولة الأموية، ثم ثانيا صار الأندلس تابعا

¹ المبيضة ، ص.18.

² قسم المحققان علال ركوك ومحمد بالوز المصدر إلى 6 فصول متبعين التسلسل التاريخ للدول الحاكمة، أنظر: محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، م.س.، ص. 31 - 183.

للمغرب في عصر الدولتين المرابطية والموحدية.

عصر الوقوف والركود في القرنين السابع والثامن عصر الدولة المرينية

عصر التقهقر والانحطاط في القرن التاسع فما بعده.

آمن الفقيه الكانوني في حديثه عن الدولة الإدريسية (أواسط القرن 2 إلى أواسط القرن 4هـ) - التي أدرجها ضمن الدور الأول- بأن "دولة شريعتها الإسلام الذي يأمر بالطب لا يسعها جهل الطب". وأردف قائلا: "هذا ما لا يستسيغه الطبع السليم والعقل المستقيم". وتلخص الفقرة الموالية رأيه في موضوع عدم توفر معلومات كافية عن الطب في البدايات وفي زمن الأدارسة يقول: "إن الطب في القرن الرابع وخصوصا أواخره بلغ الغاية في الرقي والازدهار، فهو والحالة هذه لا يبلغ تلك الدرجة إلا بعد تكوينه تدريجيا على قاعدة النشوء والارتقاء في الكائنات وهذا من الواضح بالمكان الذي لا يجهل".¹

بديهي أن لا نجد بمؤلف الكانوني في هذا الدور الأول ما يدل على الطب والأطباء، ناهيك عن معطيات حول الأوبئة موضوع بحثنا، لأن المرحلة هي مرحلة النشأة، وبالتالي تنصب اهتمامات المؤرخين القدماء في تدوينهم على

¹ المبيضة، ص.35.

بعض الأولويات، ومنها تتبعهم للفتوحات، والحديث عن نشأة الإمارات والدول.

اعتبر عصر الدولتين المرابطية والموحدية - أدرجهما ضمن الدور الثاني-

من أزهى عصور الحضارة المغربية في الميدان الطبي، ففي ترجمته للطبيب

الأندلسي أبو بكر محمد الحفيد بن عبد الله بن زهر الاشبيلي (504هـ - 595هـ

/1110-1199م.) تحدث عن تحضير هذا الطبيب "الترياق الخمسيني" للخليفة

يعقوب المنصور الموحي¹. وفي ترجمته للطبيب "أبو العباس أحمد بن محمد

بن أبي الخليل مفرج الأموي مولاهم الاشبيلي النباتي" (توفي حوالي سنة 637

هـ/1239م.)² أورد قصة طريفة تفيد من جهة في معرفة كيفية تحضير المغاربة

"للترياق الكبير". نستشف من عباراته حنكة ومهارة الخليفة يعقوب المنصور

الموحي في إبطال بيع الخمر، ويظهر كذلك مدى ذكائه في التأكد من نجاعة

خطته، ومما جاء في النص³: "كان المنصور قد أبطل بيع الخمر ونصب عليها

¹ محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربى فى عصر دول المغرب الأقصى، ص.91.

² نجد اختلافاً فى بعض المعلومات بين ما ورد فى تحقيق المخطوط من لدن علّال ركوك ومحمد بالوز، وما جاء فى المبيضة لمخطوط الكانونى من النسخة التى زودنى بها الفقيه العلامة محمد المنونى، وأرجعتها للفقيه من يوم تسلمها منه:

محمد بن أحمد الكانونى العبدى، تاريخ الطب العربى بالمغرب، (مبيضة للفقيه المنونى استخرجها من مخطوط بتاريخ 24 جمادى الأولى 1371/مارس 1952).

محمد بن أحمد الكانونى العبدى، الطب العربى فى عصر دول المغرب الأقصى، م.س.، ص.114-116.

³ نجد النص فى المبيضة، وليس فى التحقيق.

رقابة شديدة فأراد أن يختبر هل يوجد منها شيء في رعيته فقال لأبي جعفر هذا أريد منك أن تجمع لي أدوات الترياق الكبير وتركبه فامتثل أمره وجمع تلك الأدوات إلى أن أعوزه وجود الخمر فأنهى ذلك إلى الخليفة فقال له تطلبه في كل ناحية لعله يوجد عند أحد فتطلبه في كل وجه فلم يجد شيئاً منه فقال له المنصور والله ما كان قصدي بتركيب الترياق في هذا الوقت إلا لاختبر هل بقي من الخمر شيء أم لا".

يعد إعمال الرقابة على الخمر وصانعيه أمر مثير للانتباه، وإدراجه ضمن عناصر "الترياق الأكبر" أكثر إثارة، لأنه يبين اختلاف عناصر الترياق من عصر لآخر، ومن جهة لأخرى بأطراف المعمور. فالترياق الكبير الذي جاء في ترجمة الكانوني للطبيب مفرج الأموي الاشبيلي، هو دواء مركب من عدة عناصر لدرء السموم، وينسب صنعه للطبيب الإغريقي المسمى "أندرو ماخوس القديم"، حضره من أربعة مفردات طبية هي: "حب الغار" و"المر" و"القسط" و"الجنطيانا"، وسماه "ترياق الأربع"، وحمل مسميات أخرى ومنها تسميته بـ "الهادي"، ومعناه "الترياق الأكبر"، وهو المشار إليه من لدن الخليفة المنصور، ولكن لا نعرف من عناصره إلا شراباً واحداً "الخمر" بالرغم من احتفاظه بتسمية قديمة، ولا نعرف المواد المستعملة لتحضير الترياق الخمسيني لأبي بكر

بن زهر.

لقد زاد الأطباء في عدد عناصر الترياق حتى وصل إلى سبعين مفردة، ناهيك عن الأقراص، وحمل كل صنف مسمى خاص، ذكر داود الأنطاكي في "تذكرته" بأن العدد الأقصى لمفردات الترياق "ست وتسعون"، وأقلها "أربع وستون"، وبين كيفية صنعه والمدة التي تحتاجها مختلف هذه التراكيب لتندمج بينها، ووفق عباراته، "يلزم لتحقيق الفائدة أن لا تقل عن عشر سنوات. ونصف". أجاز بعض الأطباء استعماله قبل المدة المشار إليها، إلا أن صاحب مقترح "سته أشهر" هو الطبيب الإغريقي المشهور "جالينوس" (Galien) (121-201م).¹ لقد جعل مادة الخشخاش /الأفيون أحد عناصره.²

تعدد الأطباء المغاربة الذين اعتمدوا الترياق ل مداواة السموم والأوبئة

¹ للمزيد حول الطبيب جالينوس (121-201م):

البضاوية بلكامل، مصادر ابن البيطار من خلال مؤلفه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية "كمثال نبتة الفربيون"، مائدة مستديرة في موضوع الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، أيام 18-21 دجنبر 2008، منشورات عكاظ، 2011، ص.39

Gourivetch D., « Au temps de Galien, un médecin Grec dans l'empire Romain », Somogy éditions d'art 14 sept. Exposition de Mariement, Belgique 26 mai -2 déc.2018,(clio-cr.clionautes.org)

² أنظر حول مفردة الترياق: داود بن عمر الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص.92-96.

- كما سنرى - وكتب بعضهم عنه كتباً ووضعوا رسائل منذ عصر الدولة الموحدية وإلى مطلع القرن 19، فالحكيم أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي (591 هـ/1194 م.) على سبيل المثال ضمن كتاب "الكليات الطبية" رسالة في الترياق.¹

ما يثير الانتباه، هو أن أثينا بزعامة حاكمها "بركليز" التي كان داء الطاعون ينخر أوصالها، ويتساقط قادتها كأوراق الخريف.² لم تعرف للوباء سببا واحدا. وتتكرر الانتكاسة الصحية عهد الإمبراطور "مارك أنطوان" ووريثه الإمبراطور "كومود".³ خلال القرن الثاني للميلاد الذي بلغت فيه الحضارة الرومانية ذروتها في عدة مناحي، فيضربها الوباء بين سنتي 165-166. لقد حضر الطبيب "جالينوس" للإمبراطور الروماني "مارك أوريل" ترياقا أساسه مادة "الأفيون"⁴ كما سبق ذكره، ولكنه لم يقم حيث الوباء، بل فر هاربا من

¹ للمزيد: الكانوني، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص.100.

² توقفنا عند أنواع الجوائح قديما ضمن المقال التالي: "الجوائح عبر تاريخ المغرب القديم: مسألة المصادر"، الذي قدم للنشر ضمن الكتاب الجماعي لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

³ ولذا سمي بالطاعون الأنطوني (la peste Antonine) نسبة للأسرة الحاكمة، وسمي كذلك بالطاعون الجاليني نسبة للطبيب الإغريقي جالينوس الذي عاصر حدوث هذه الجائحة على اعتبار أنه كان الطبيب الخاص للإمبراطور الروماني "مارك أوريل" (Marc Aurèle)، أنظر: سورنيا، تاريخ الطب، ص.62-64.

⁴ للمزيد حول مفردة الترياق، أنظر: داود بن عمر الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)، ص.92-96.

العدوى¹.

أما العلم الذي أطلال الكانوني في التعريف به وبمؤلفه، فهو "علي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي الفاسي أبو الحسن"² (القرن 9هـ) من عصر بني مرين (أواسط القرن 7هـ/13م). كان إماما في الفرائض والحساب، كما كان مشاركا في معارف وعلوم أخرى كالطب، وله في الطب "أثر جليل": رسالة "في نحو كراس"، سماها "المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية"، لقد أرجع بن هيدور التادلي الفاسي سبب الوباء لعاملين، هما: فساد الهواء والأغذية.³

أورد الكانوني ضمن مؤلفه "تاريخ الطب العربي..."، مقدمة رسالة أبي الحسن الهامة، ولتعميم الفائدة نستحضرها كاملة في هذا المقام، ومما جاء

¹ تحدث المؤرخ ديون كاسيوس (DionCassius) (155- 235 م)، عن الوباء الأنطوني والجالاني، وذكر بأنه كان يقضي كل يوم على 2000 شخص، وحسب أتروب (Eutrope) (363-387 م) قتل خلقا كثيرا بربرع الإمبراطورية الرومانية، ويفهم من أسبابه انتشار العدوى من بؤرته نحو المناطق التي عبرها الفيلق الروماني خلال توجهه نحو روما من أجل الاحتفال بالنصر ضد الساسانيين. للمزيد جوزيف كلاس، مسيرة الطب في الحضارات القديمة، تقديم شاكر مصطفى، دار طلاس، دمشق، 2008، ط. 2، ص. 220-224. وأيضا: Fr.gwe.wiki

² توفي أبو الحسن بفاس، خلال مجاعة سنة ستة عشر وثمانمائة.

³ للمزيد: محمد بن أحمد الكانوني العبدى، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص. 153-154.

فيها¹: "الحمد لله خالق المخلوقات وكون المكونات حتى يقول وبعد فإني وضعت في هذه المقالة أنموذجا مختصرا مما قالته الحكماء ووسمته العلماء البوائية الكائنة عن فساد الهواء والأغذية، إذ هذا الزمان وقت كيانه ووجوده وإتيانه، فبادرت مؤلفا ما قالته الحكماء في دفعه ومداواته وحسم علته الكائنة في أوقاته: وذلك أن بناء الإنسان ودوامه في عالمي الكون والفساد إنما هو بدوام مزاجه الاعتدالي الصحي الذي نشأ عليه ترتيب جسده بتأليف أخلاطه الكائنة عن غذائه ودوام استنشاقه الهواء الموافق لمزاجه في كميته وكيفيته، فإذا اختل المزاج وخرج عن اعتداله الصحي بسبب ما يرد عليه من فساد الهواء والغذاء اضطربت الأخلاط وفسد نظامها الصحي وفسدت الأعضاء الرئيسية الأصلية بفسادها وانحل نظام ما تركب منها إما بسرعة وإما بمهلة فما كان منها بسرعة ووبئ عم ناسا كثيرين سمي الطاعون والوبائي ويسمى أيضا المرض الوافد هذا وأما سببه فإنه يقول: "إن سبب هذا المرض يكون من فساد الهواء وتعفنه ويكون أيضا من فساد الأغذية ويكون منهما معا وهو الطامة الكبرى. فأما فساد الهواء وتعفنه فإنه يحدث بسبب مطارح أشعة الكواكب المفسدة

¹ نجد ترجمته ومقتطفات من رسالته حول الوباء بالمبيضة وبالتحقيق، وأحيل على التحقيق لتيسير تداول المعلومة، أنظر: الكانوني، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص. 153- 154.

للمزاج المستولية على الفرانات وتحاويل السنين من غير نظر السعود المحللة".

قال أيضا¹: "وكان شيخي رحمة الله عليه يقول إذا ظهرت الخوارج واشتدت الفتنة فحقق ظهور الغلاء لأنه لازم لها، وإذا كان الغلاء وطال واشتدت أسبابه لزم منه الوباء. وهذا علم صحيح وقانون مطرد". ذكر كذلك بأنه توجد طريقتان للعلاج²: "وأما علاجه فبطريقتين: الأولى طريقة أسرار الحروف والتوجه لله تعالى بالدعاء المأثور، والطريقة الثانية بالطريقة الطبية يعني صلاح الأغذية والهواء".

انتقل بنا الفقيه الكانوني³ إلى علم آخر من نفس العصر، هو محمد بن عبد الله بن سعيد السليمانى لسان الدين الخطيب المشهور بابن الخطيب وهو من أعلام القرن 8هـ/14م . (776-713هـ/1313-1374م). فبعدما قدم نبذة مختصرة للتعريف به لا تتجاوز السطرين، أترأى يتحدث عن أعماله في الميدان الطبي، فقال: "له في الطب آثار غالية جلية المقدار"، وعرض بعضها باختصار، وبدورنا انتقينا من تأليف ابن الخطيب حول الطب رسالته في الطاعون الوافد حوالي أواسط القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر ميلادي. سعى

¹ الكانوني، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص.154.

² الكانوني، الطب العربي، ص.154.

³ نفسه، ص.155.

بن الخطيب عمله "منفعة السائل في المرض الهائل".¹ استعرض القانوني محتوى الرسالة بإيجاز مهبر، وعندما تقرأ للكاتب وللناقل، تخال نفسك وكأنك تعيش الحاضر، وتستمتع لما يتردد عبر مختلف الوسائط السمعية-البصرية عن داء "كرونا"، لن تجد أبلغ من الكلام الذي قيل.

وصف ابن الخطيب حسب عبارات القانوني "ذلك الداء الويل"، وذكر "أن وجود العدوى تثبته التجربة ثم البحث ودليل الحواس ثم الرواية الموثوق بها عن انتقال المرض بالملابس والأوعية والحلي (كالقرط في الأذن)، ومن شخص لآخر في المنزل الواحد، وبإصابة بناء سليم بوصول مريض من أرض موبوءة".²

أدرج القانوني كما ذكرنا سلفاً دولة الشرفاء السعديين التي تولت مقاليد الحكم خلال القرن 9 هـ/ 15 م، ضمن دور "التقهقر والانحطاط في القرن التاسع فما بعده"، ومع ذلك امتدحهم مدحا جميلا،³ وأرجع إليهم فضل تجديد "المحاسن ونشر رواق الحضارة والعلوم والفنون في ربوع المغرب". وتوقف عند بيمارستان عبد الله الغالب السعدي الذي أسسه سنة 981

¹ توجد نسخة منه بالأسكوريال: نفس الإحالة.

² القانوني، الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى، ص.155.

³ القانوني، الطب العربي، ص.167.

هـ/1573م، فوصفه وصفا دقيقا وتحدث عن العاملين فيه ومهامهم¹. كما خصص مبحثا هاما حول ما سماه بـ "المحجر الصحي في عهد الدولة السعدية أو الاعتناء بالصحة العامة".

لقد كانت بحوزة الفقيه الكانوني وثيقة تبين احتراز المنصور من الأوبئة، قال: "لدينا وثيقة مهمة تدل على مبلغ احتياط هذه الدولة من الأمراض الوبائية". تحفل الرسالة المؤرخة بتاريخ 1011هـ/1605م، بالمعلومات المتعلقة بتدبير الأمور خلال الوباء الذي ضرب سوس. فالسلطان المنصور السعدي (توفي 1012هـ/1606م) الذي كان بفاس يدعو ابنه للاحتراس، ولكنه ينصحه بمغادرة مراكش نحو سلا في حالة إذا تبين بأن الوباء حل ولو بشخص واحد، يرشده لتجنب فتح الرسائل، ودعوة قارئها لاستعمال الخل الثقيف، ويبين مكان حفظ الترياق الجديد، ويحدد المقدار الواجب استعماله منه، ويظهر بأن هناك بديل للترياق بالنسبة للشباب الذين لا يطيقونه. ويظهر أن الأطباء المغاربة إلى زمن السعديين تداولوا على الأقل ترياقين "الأكبر" و"الخمسيني" إن

¹ البضاوية بلكامل، "الوضع الطبي السعدي من خلال مؤلف: تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى لمحمد بن أحمد العبدى الكانوني (1357-1310 هـ / 1893-1941م)", مائدة مستديرة حول المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغرب، الدار البيضاء، أيام 18 إلى 20 دجنبر 2008، منشورات عكاظ، 2011، ص. 29-47.

لم نقل أكثر...، فالخليفة المنصور يميز بين ترياق قديم وآخر جديد استعملوا لدرء الوباء، ولكن لا نعرف ماهية الاثنين. ويبدو بأن الوباء حل بالسوس قادما إليها من الجنوب، لأن جميعنا يعرف حملة الخليفة نحو بلاد السودان، ولعل الوباء حل بها قادما مع ركب التجار. كان الوباء مستفحلا كما يتبن من شكاوي ابن خالة الأمير أبو فارس، أما حال فاس التي كان يقيم بها السلطان المنصور، وحال سلا التي يحث ابنه أبو فارس لطى المسافات والقدوم إليها، فأفضل وأسلم.¹

لما ذكر، نقدم بدورنا الوثيقة الاحترازية من زمن الخليفة المنصور السعدي كاملة للإفادة وتيسير المعرفة، وهي رسالة جوابية من السلطان المنصور لابنه، ومما جاء فيها: "كتب السلطان المنصور من فاس إلى خليفته بمراكش ولده أبي فارس جوابا له عن إعلامه بظهور الوباء بسوس قائلا في جوابه: إن أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ويبقى في القصبة وصيفنا

¹ جاء في رحلة الشهاب أحمد أبو علي التي نقل أخبارها صاحب "زهر البستان": أن الشهاب لما خرج من إسبانيا على طريق الجديدة في زي مسيحي فارا بنفسه أواخر القرن العاشر وقدم على المنصور السعدي قال: "رحلنا إلى محلة السلطان مولاي أحمد الذهبي وهي مخيمة بتانسيفت بسبب وباء كان بالمدينة"، تدل على انتشار الوباء بمراكش نفسها.

مسعود مع القائد محمد بن موسى...، وتخرجون بالسلامة ثم لا تعملوا كعملنا في الاقتصار على الوسيلة والتغلب بها بل لا تزيدوا إذا خرجتم على المقام أكثر من يومين ثم اطووا المراحل إلى أن تنزلوا بسلا ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق فلازموه ، وإذا استشعرت من حرارة وتخوفتموها فاستعملوا من الوزن الوصف المعروف منه ولا تهملوه. وأما ولدك حفظه الله فلما كان من سن الشبابة بحيث يمنع الحال من المداومة على الترياق فيها هي الشربة المعروفة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة هناك عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطون الترياق المرة والمرة على قدر الحاجة فيعود إليها. والبطاقة التي ترد عليكم من السوس من عند الحاكم أو من عند خالكم أو ولد خالكم أو غيرهما لا تقرا ولا تدخل دار بل تعطى لكاتبكم هو يتولى قراءتها ويعرفكم مضمونها، لأن كاتبكم يدخل مجلسكم ويلابس مقامكم حتى هو لا يفتحها إلا بعد أن تغمس في خل ثقيف، وتنشر حتى تيبس وحينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمونها. وقد طالعنا كتاب ولد خالكم أحمد بن محمد الصغير وصح عندنا من فحوى كلامه ما ذكرتم عنه من انه أكثر من خبر الوباء ليجده ذريعة للخروج من السوس والذي تأمرونه به أنكم تحذرونه من القدوم عليكم بمراكش، وأن ذلك لا يرضينا منه، إلا أن

تفاحش المرض بتلكم الناحية فلا عليه في الخروج والتنقل قرب البلاد أو يلتحق بمحلة أصحابه الذين بخنق الوادي، وأوصيكم أيضا إذا ظهر المرض بتلك الناحية وخرجتم خروج سلامة بحول الله وقوته، ألا لا تتركوا وراءكم بنت عمكم والددة ولدنا العزيزة وأمر يوسف العبد ان يخرج لكم من عند صاحب بيت الثياب القدر المحتاج إليه من الترياق الجديد الذي كان بقية المشور، ويدخله على أيديكم لدارنا واستدعوا أم المال قهرمانة الدار وأعطاها إياه برسم أهل دارنا وأمرها أن تعطيهم إياه في كل رابع من اليوم الذي يأكلون فيه، وهي أيضا تأكل منه والعبد يوسف يأكل منه وحتى صاحب السقيف أعطوه منه والله سبحانه يرعاكم ويتولى حفظكم انتم وأولادكم وقد استودعناكم الله الذي لا تضيع لديه الودائع والسلام، وكان ذلك سنة 1011هـ".

نقرأ في المبيضة: "والله بمنه وبحرمة صفوة خلفه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم خير البشر يتولى حمايتكم جميعا ويحكمكم من جميع كلائته ورعايته حصنا منيعا وأن يعافي البلاد والعباد بمنه وكرمه والقائد مسعود النبيلي تعزمون الخ ما في الاستقصاء".

حل الطاعون بعد ذلك بالمغرب الأوسط كما يفهم من حديث الفقيه

الكانوني عن أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي الولادة، ورحل الرجل لفاس للتحصيل، ثم لأرض الحجاز. ومنها عاد فاستقر بالجزائر، وبها مات شهيدا - حسب عبارات الكانوني- بدء الطاعون سنة 1045هـ¹. لا نعرف هل كان هذا الطاعون متوطنا بالمغرب الأوسط وحده، وليس بجهات أخرى بأرض الشمال الإفريقي؟

انتقل الفقيه الكانوني للحديث عن الدولة العلوية الشريفة، ومما ورد عنده من معطيات حول نشأتها قوله: "تملكت الدولة العلوية المغرب أواخر القرن الحادي عشر الهجري إلى الآن، وقد وجدت المغرب يعاني من ضروب الكوارث المتنوعة ألوانا ومن التفرق والشقاق صنوفا فجمعت كلمته ووحدت وجهته وشجعت العلوم والمعارف بتشديد المدارس وإغداق الأرزاق والجريات على أهل العلم وكانت لهم عناية خاصة بالأطباء وخصوصا السلطان مولاي إسماعيل فقد كان له عدد من الأطباء يلازمونه".

يقدم الفقيه الكانوني شذرات عن المحجر الصحي أو العناية بالصحة العامة خلال حكم السلطان المولى إسماعيل الذي تبنى سياسة الاحتراز ومنع اختلاط الأصحاء بالمرضى لمدة تصل إلى شهر، فقال: "كان السلطان المولى

¹ الكانوني ، الطب العربي ، ص.181.

إسماعيل له عناية بذلك ففي المنزع اللطيف لصديقنا النقيب مولاي عبد الرحمان بن زيدان ناقلا عن الترجمان المعرب للزياني: في سنة 1089هـ كثر الطاعون بفاس ومكناس فجعل السلطان المولى إسماعيل عسة العبيد بوادي سبو وغيره من الطرق المؤدية لهما يمنعون الواردين على المدينتين من الأصحاء خوف انتشار هذا الداء أخذا بالاحتياط وعملا بالمأمور به شرعا، وأمر مع ذلك بتحريق ما بسوق الخميس (ما من شأنه أن يوجد فيه المكروبات والعفونات) ففر من كان هناك من الناس وانقطع المرور ودام ذلك شهرا .

وفي ترجمته لمحمد بن يحيى بن الحسن بن محمد الشبي السوسي الحامدي 1164هـ، امتدحه واعتبره من أفاضل أهل عصره علما ودينا وفضلا نافذا في دقائق العلوم من شيوخ الإمام محمد بن احمد الحضيكي ترجمه في طبقاته، وأضاف: "توفي بالوباء يوم الأحد آخر ربيع الثاني سنة أربع وستين ومائة وألف وكان مولده يوم الثلاثاء 18 صفر 1102هـ. أردف قائلا: "اطلعنا على كتاب عنوانه (جملة الفوائد الطبية) للعلامة الولي الصالح سيدي محمد هذا بن يحيى الشبي رضي الله عنه، افتتحه بحقيقة الطب والعلوم الرياضية والإنذارات والتحذيرات ثم أردفه بالكلام على المفردات من النبات والحيوان والمعدن مرتبا ذلك على حروف المعجم ذاكرا أسمائها بحسب الوارد في كتب

الطب ثم بما هو معروف بالمغربية والبربرية ثم تكلم على الأمراض وأسبابها وعلاماتها والعلاجات مرتبا للأمراض على حروف المعجم، وفي هذا الفصل تكلم على الأوبئة كالأوبئة طويلا سعا في الاحتياط منه والتباعد عنه واتخاذ الأدوية وتطبيب الأهوية".

نجد في العهد الاسماعلي اعتماد السلطان على عدة إجراءات لمنع تفشي الوباء ومنها منع اختلاط السليم بالعليل. كما أن أطباء المرحلة كتبوا في الموضوع، وجاءت نصائحهم موافقة لما ينصح به الأطباء اليوم من الاحتياط والتباعد واستعمال الأدوية المناسبة وتنقية الهواء. ونلاحظ بأن فساد الهواء حسب أطباء العصور القديمة هو المسبب الأساسي في انتشار الأوبئة. ألم تدق المنظمات الدولية ناقوس الخطر حول تغير المناخ؟

توقف الكانوني عن ذكر الأوبئة بعد السلطان المولى إسماعيل، وتحدث عن تجديد بعض ملوك الدولة العلوية الشريفة، مؤسسة البيمارستان¹ كما هو معهود، وبذلك ينسب للسلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بناء المارستان الجديد بمدينة الرباط، إلا أن الأوبئة والمجاعات ترتب عنهما تفاقم حال

¹ البضاوية بلكامل، "بيمارستانات الرباط من الأصول إلى بداية فترة الحماية"، مدينة الرباط، التاريخ والذاكرة، مطابع الرباط نت، 2016، ص. 85-103.

الأوضاع الصحية، فعلى سبيل المثال كان غلاء الأسعار فاحشاً خلال عام 1073هـ / 1759م، وكان عدد من دفن من الأموات في مارستان فاس فقط حسب الضعيف " أربعة وثمانون ألفاً فيما قيل"¹.

¹ عبد العزيز الخليلي، مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912)، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2007، ص. 111 وهامش 108.

- استنتاجات عامة:

تلوح للمهتم بتاريخ الأوبئة معطيات تؤكد إسهام المؤرخ الفقيه ممثلاً في محمد العبدى الكانوني، في تزويد قارئ كتابه بما يغذي فكره حول الطب والأطباء بالمغرب بغض النظر عن أصولهم، كما يتجلى فيها مدى حرص المغاربة على الاحتراز والتباعد واستعمال الترياقات لمحاولة درئها والحد من سطوتها. فعلم التاريخ هو بالفعل علم دقيق بحوادث الماضي قد يفيد، لأنه من المحتمل أن يحدث في المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي، وما يحدث في القرن 21، زمن كورونا.

لا شك أن القارئ سيقنع بأن كتاب الكانوني من المنوغرافيات الهامة التي تستحق المزيد من العناية، حيث استعرض الفقيه المستنير تاريخ الطب وأعلامه ومؤسساته من القرن 2هـ إلى بداية القرن 14 منه، بل استحضر إسهامات الأطباء سواء بداخل قصور الخلفاء أو الملوك أو بالبيمارستانات أو بمنازل الأطباء ودكاكينهم، كما تحدث -كما أسلفنا ذكره- عن مؤلفات بعضهم، وعن أشكال تدبيرهم للأوبئة بدعم من الأسر الحاكمة، أو بمبادرات خاصة. ولا يتوانى صاحب المؤلف بالدفاع عن أطروحته حول قيمة الحضارة المغربية، ولا نخالفه الرأي في ذلك.

- بليوغرافية:

- مصادر:

- داود بن عمر الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

- عبد الله ابن البيطار المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، تحقيق الفاروقي إبراهيم العفار الدسوقي، القاهرة، 1291هـ.

- تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2007، ط.2.

- مراجع:

- البضاوية بلكمال، "مصادر ابن البيطار من خلال مؤلفه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" كمثال نبتة الفربيون"، مائدة مستديرة في موضوع الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، أيام 18-21 دجنبر 2008، منشورات عكاظ، 2011، ص. 147 – 177.

- البضاوية بلكمال، "الوضع الطبي السعدي من خلال مؤلف: تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى لمحمد بن أحمد العبدى الكانوني (1310-1357 هـ/ 1893-1941م)"، مائدة مستديرة حول المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في

المغرب، الدار البيضاء، أيام 18 إلى 20 دجنبر 2008، منشورات عكاظ، 2011، ص. 29-47.

- البضاوية بلكامل، "بيمارستانات الرباط من الأصول إلى بداية فترة الحماية"، مدينة الرباط، التاريخ والذاكرة، مطابع الرباط نت، 2016، ص. 85-103.

- عبد العزيز الخمليشي، مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912)، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2007.

- محمد السعيد الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدى الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية أسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش، 2000.

- جان شارل سورنيا، تاريخ الطب، ترجمة إبراهيم البجلاتي، عالم المعرفة 281، الكويت، 2002.

- هرنشو، علم التاريخ، ترجمه وعلق حواشيه وأضاف إليه فصلا في التاريخ عند العرب عبد الحميد عبادي، دار الحداثة، بيروت، 1988.

- Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans, Imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1995

- الأنترنت:

- ثيوسيديدس، حروب البيلوبونيز، الكتاب الثاني، الفقرة 47 (ويكيبيديا).

- Gourivetch D., « Au temps de Galien, un médecin Grec dans l'empire Romain»,Somogy, éditions d'art 14 sept. Exposition de Mariement, Belgique 26 mai -2 déc.2018,(clio-cr.clionautes.org) Fr.gwe.wiki.



الكورونا واستنهاضات العقل الإنسانيّ

مشير باسيل عون

الجامعة اللبنانية، بيروت



يتّضح للجميع أنّ جائحة الكورونا تستحثّ العقل الإنسانيّ على تناول طارئّات الوجود تناوّلًا جديدًا مبتكرًا. فالتحدّيات جليّة، والاستثنائات خطيرة، والمآلات ملتبسة، رجراجة، حمّالة أوجه. حين ينظر المرء في التحوّلات الظاهرة والاعتمالات الخفيّة التي غدت تحرك الاجتماع الإنسانيّ المعاصر في المسكونة قاطبة، يدرك أنّ الوباء العالميّ كفّ عن أن يكون مجرد حقبة وجيزة عابرة من حقبة التاريخ الكونيّ الصاخب. انطباعي أنّ البشريّة أضحت اليوم مضطّرة إلى ضبط مواقيت الزمان وفقا للطبيعة الحضاريّة التي نشأت في إثر هذه الجائحة¹. ومن ثمّ، لا بدّ من التفكير الرصين الهادئ في الاستنهاضات التي أثارها الوباء في مستوى الاستبصار العقليّ الأشمل. أمّا السؤال الأخطر الذي يجابهنا به الواقع المستجدّ، فهو التحريّ عن قدرة العقل على فهم الظاهرة فهمًا سليمًا، صائبًا، مثمرًا. ذلك بأنّ مثل هذا الفهم هو الذي يهيئ الإنسان لإعادة ترتيب أولويّات وجوده التاريخيّ الفرديّ والجماعيّ.

- الظاهرة الطارئة بين الفرادة والألفة:

لا بدّ، في البداية، من الاستقصاء في طبيعة الظاهرة والتحريّ عن

¹ Cf. Steven Taylor, *The Psychology of Pandemics. Preparing for the Next Global Outbreak of Infectious Disease*, Cambridge, Cambridge Scholars Publishing, 2019.

موقعها، هل تستوي في مقام المؤلف من الأحداث التاريخية، أم إنها تتغير تغيراً مطلقاً هي والمظاهر التي عاينها الإنسان واختبرها في سياق الاعتلالات البيولوجية والبيئية التي تعاقبت على الوجود الإنساني¹ من البديهي القول إنَّ الكورونا قد أصابنا في الصميم، في النخاع الشوكي، في عمق أعماق الكيان الإنساني. فاجأنا بحلوله فينا على غير استئذان، فإذا بنا نتنقل من مقام الإنسان الكوني إلى مقام الإنسان الكوروني. قبل ذلك، كانت الإنسانية قد اختبرت تحولاتٍ شتى في هوية الإنسان، من الحيوانية الانتصابية إلى الحيوانية الكونية، مروراً بالحيوانية الدينية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية والآلية الروبوتية. جميع هذه المقامات الإنسانية أضافت إلى وعي الإنسان تراكماتٍ متدافعة جعلته يخترن الكثير من المعاني. غير أنَّ التحول الأخير الذي ألمَّ بنا يجعلنا نسائل جميع مقامات الهوية الإنسانية هذه.

يُجمع العلماء والأطباء على الخطر المميت الذي ينشره هذا الوباء الكوني المستخرج من سلسلة قديمة أرعبت الإنسانية منذ أقدم العصور. في القرن

¹ Cf. Frank M. Snowden, *Epidemics and Society. From the Black Death to the Present*, Yale, Yale University Press, 2019; Mark Honigsbaum, *The Pandemic Century. One Hundred Years of Panic, Hysteria and Hubris*, London, Hurst Publishers, 2019.

العشرين وحده عانت المجتمعات ويلات السلالات الكورونية المتلاحقة، وكان السابع آخرها، وهو الضيف المقيت الكوفيد التاسع عشر. لا شك في أنّ الأسئلة تتدافع في الأذهان من أجل فهم هذه الظاهرة الوبائية الجامحة الجارفة الجائحة. السؤال الأول يتناول هوية الفيروس المستجد، وإمكانات تفكيكه، وصعقه وتعطيله وقهره قهراً مبيئاً؛ والثاني يستجلي آثاره البيولوجية في تركيبة الجسم الإنساني الكوني؛ والثالث يستطلع عواقبه على المستويات الأنثروبولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية¹. لست من الذين يركنون طوعاً إلى التنجيمات الهلوانية أو المكاشفات الغيبية². حسبي أن أنظر في المسرى التكويني العلمي، مستنيراً بأراء أهل الاختصاص، حتى أستطيع أن أدلو بدلوي الفلسفي في التفكر الرصين الهادئ البناء.

إذا ثبت أنّ الظاهرة الطارئة كونية³، كان لا بدّ للإنسان من أن يستعيد التفكر الفلسفي في المستجدات الحياتية الضاغطة. ومن ثمّ، أراني أسلك سبيل التدبّر والتأمّل والنظر الفلسفي في أزمة كيانية عالمية أغلقت على الناس في

¹ Cf. John Authers, «How Coronavirus Is Shaking Up the Moral Universe», *Bloomberg*, Bloomberg Opinion, 29 mars 2020 (online).

² Cf. Stephen T. Asma, «Does the Pandemic have a Purpose», *The New York Times*, 16 April 2020 (online).

محاجرهم ومعازلهم ومآويهم، وأجبرتهم على التواصل البُعدي. في ذلك كلّه إشارة إلى اقتراب زمن جديد يستلزم الإصغاء إلى نداءاته، والاستجابة لتحدياته، والاضطلاع بمقتضياته.

ذلك بأنّ الفكر الفلسفيّ الحرّ الناقد البناء يستهض الذات إلى مناهضة مثل هذا الاستئثار المقيت. فالإنسان كائنٌ فكريٌّ يعشق الطبيعة عشقاً، قبل أن يكون كائنًا منفعيًا يستنزف الطبيعة استنزافًا. وما الكينونة الكورونية التي اجتاحتها سوى الدليل الدامغ على ضرورة تعزيز الوعي الفكريّ النقديّ الذاتي. من غرائب المنطق الإنسانيّ أن يظنّ بعضهم أنّ الحجر الصحيّ الطوعيّ يُفضي بالإنسان إلى التأمل الفلسفيّ، في حين أنّ التأمل الفلسفيّ هو، في أصل دعوته، الباعث على الحجر الطوعيّ. فالفيلسوف هو المحجور الحرّ الذي يُطلّ من علياء صومعته على وقائع الوجود، يتبصّر في إرباكاته، ويحلّل تعقيداته، ويتدبّر ملابساته، ويستشرف آفاقه، ولاسيّما في أزمنة التآزم الكونيّ الأخطر. وما من تآزم أخطر من ذلك الذي يعطلّ كينونة الطبيعة التي هي الأمّ الحاضنة.

اليقين أنّ الكورونا ظاهرةٌ تترجّح بين مقامين: مقام المألوف المعهود من الظواهر الطبيعيّة، ومقام الغريب الفريد من الطوارئ المباغته. ثنائيّة المقام

التي تصطبغ بها تجعلها عصيةً على الإدراك البسيط. لذلك ينبغي تناولها في وضعيتها البينية المترجحة حتى يستطيع المرء أن يستصفي منها دلالاتها. تذكّرني هذه الوضعية بالتنازع الذي استجلاه الفيلسوف الألمانيّ مارتين هايدغر (1889-1976) ناشبًا في عمق الكائن الإنسانيّ الذي يختبر القلق في مواجهة غربة كائنيّته وغربة الكائنات عينا (Unheimlichkeit). وعليه، لا ينفع الإنسان أن يلوذ بالألفة المصطنعة التي تزيتها له معرفته الذاتية اليسيرة المبنيّة على "تصيد الاختبارات المعيشة"¹، بل ينبغي له أن يتصدّى لغربة الكائنات وغربة الكينونة استنادًا إلى اختبار معنى الكينونة في تجلياتها وانحجاباتها، في إقبالاتها وإدباراتها، في تكشفاتها وتوارياتها.

- التنازع التأويلي في معنى الكورونا:

لذلك يسأل الناس عن السبيل الأضمن الذي يؤهلهم لإدراك المعنى الأنسب الذي يجدر إسناؤه إلى ظاهرة الكورونا. على وجه العموم، يتناول الناس في جميع المجتمعات والثقافات هذه الجائحة تناولًا يستند إلى علومهم ومعارفهم وتصوّراتهم واختباراتهم. فيُسبغون عليها من المعاني ما يغترفونه من

¹ Heidegger, *Beiträge zur Philosophie. Vom Ereignis*, GA 65, Frankfurt, Klostermann, 1989, p. 124.

مُختمر خلاصاتهم العلميّة والفكريّة¹. من الواضح أنّ هناك سببًا أربعة تبيّن الإنسان للمجازفة بتخيّر المعنى الأنسب وإطلاقه واعتماده، عنيتُ بها سبيل العلوم الطبيعيّة أو الوضعيّة، وسبيل العلوم الإنسانيّة، وسبيل الأدب والفنون، وسبيل اللاهوت والفلسفة. العلوم الطبيعيّة تحلّل الظاهرة وتُشرّحها، وتقف على جميع عناصرها وعواملها وتحولاتها وآثارها وعلاجاتها. نتائج هذه الأبحاث العلميّة واجبةٌ ملزمةٌ للعقل السليم. العلوم الإنسانيّة تتحرى تحرّيًا دقيقًا عن تجلّيات الحياة الإنسانيّة في انفعالات النفس (علوم النفس)، وتفاعلات الاجتماع (علوم الاجتماع)، والآثار الذهنيّة البنيويّة الفرديّة والجماعيّة (علوم الأنثروبولوجيا)، والانعكاسات الاقتصاديّة (علوم الاقتصاد)، والسياسيّة (علوم السياسة)، والبيئيّة (علوم البيئة)، وما إلى ذلك. خلاصات هذه التناولات الإنسانيّة تُنير الوعي المستقيم، وتمنح الإنسان القدرة على تصوّر الوجود وتأوّلُه ورعايته، وذلك على الرغم من التباين الشرعيّ بين الخلفيّات والمناهج والأساليب². الآداب والفنون، وهي حقلٌ متمرّدٌ من العلوم

¹ Cf. François Borella, *Critique du savoir politique*, Paris, Puf, 1990.

² حين يميّز ديلتاي العلوم الإنسانيّة من العلوم الوضعيّة، يخالف بعض المخالفة ما كان يذهب إليه كانط من إصرار على تناول شروط المعرفة لدى الكائنات الإنسانيّة العقليّة. ومن ثمّ، فهو يُعنى حصراً بالإمكانات الواقعيّة التي يختبرها الكائن الإنسانيّ في قرائن محدوديّته التاريخيّة. راجع:

الإنسانية، تُنشد الواقع إنشادَ الترنم المطرب، وترسمه رسمًا مزخرفًا تستطلع فيه أبعادًا دفينية لم تألفها الذائقة. فتوحاتُ هذه التلمّسات تُغني الوجدان الإنساني من غير أن تلجئه إلى تصديقها ومبايعتها على الإطلاق.

أعتقد أنّ اللاهوت (الخطاب الديني) والفلسفة (الحكمة العقلية)، وهما علمان يترّعان في أصل العلوم كلّها من غير أن يحظيا بحقل معرفي واضح المعالم كالحقول الأخرى التي تنشط فيها سائر العلوم، يستطيعان أن يبتدعا المعنى الأشمل والأرحب والأعمق في الوجود الإنساني برمته¹. وقد قيل إنّ الدّين طربُ الحبّ، فيما الفلسفة تأملُ الفكر (سلامة موسى). يبني اللاهوتُ معنى الوجود على خلفيّة التسليم بحقائق الإيمان، مراعيًا في فطنته الدهريّة ما أفرجت عنه قرائحُ الناس على تعاقب الأجيال، فيما الفلسفة تسائل الوجود مساءلةً مبنيةً على مجموع النتائج العلميّة، والخلاصات الإنسانية، والتلمّسات الوجدانيّة المعتلنة في السبُل الثلاثة. صعوبة النظر الفلسفيّ مقترنة، والحال هذه، بإمكان التبحّر في جميع اختبارات الناس وجميع مداركهم ومعارفهم.

Wilhelm Dilthey, *Gesammelte Schriften*, Stuttgart, B. G. Teubner, 1958, VII, p. 9.

¹ Cf. Philippe Capelle et Jean Greisch (éd.), *Raison philosophique et christianisme à l'aube du troisième millénaire*, coll. « Philosophie & Théologie », Paris, Cerf, 2004.

إذا كان الأمر على هذا النحو، فإنّ ما يقوله الناسُ في جائحة الكورونا يختلف من سبيل إلى آخر. مشكلة المعنى أنّ الناس يستخرجونه من غير أن يميّزوا في وعيهم التأثيرات التي أتهم عن طريق العلوم الوضعيّة والعلوم الإنسانيّة والآداب والفنون واللاهوت والفلسفة. فالإنسان هو ثمرةُ التفاعل الناشط بين جميع هذه المكتسبات. حين ينظر الناس في الكورونا، يخرجون بتصور هو أشبه بخليط من جميع ما استقرّ في قاع وعيهم، على التباس خطير وتشوّش مربك. الثابت أنّ الإنسان لا يجوز له أن يبحث عن معنى هذه الظاهرة لا في العلوم الوضعيّة، ولا في العلوم الإنسانيّة، لأنّ هذين السبيلين لا يملكان جدارة مثل هذا القول، ولا هما يدعيان القدرة على استخراج المعنى في قضية الوجود الإنساني¹. يبقى سبيل الآداب والفنون، وسبيل اللاهوت، وسبيل الفلسفة. يعني السبيل الأخير في هذا التفكير. حين يتحدث الناس عن الكورونا، يلجؤون إلى سبيل من هذه السبل. من بديهيات السبيل الفلسفي

¹ يبيّن عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس أنّ العلوم الوضعيّة لا يجوز لها أن تفرض خلاصاتها على حقل الحياة الإنسانيّة الذي ترعاه العلوم الإنسانيّة: "يفترض المرء أنّه من البديهي أن تُنقل 'الطريقة العلميّة' من حقلها الأصلي، أي العلوم الفيزيائيّة، إلى جميع الحقول الأخرى، ومن ثمّ أيضًا إلى علوم الإنسان، وذلك على الرغم ممّا تكون عليه من اختلاف طبيعة المشاكل التي نقع عليها في مستوى آخر من الاندماج".

Elias Norbert, *Engagement et distanciation*, trad. de l'allemand par Michèle Hulin, Paris, Fayard, 1993, p. 32.

القول إنّ الواقع المادّي والواقع التاريخي والواقع الإنسانيّ ليس فيه معنى موضوعيّ لصيق به، ينبغي لجميع البشر أن يعتمدوه حقيقةً مطلقة في جميع الأحوال والقرائن¹.

يذكرنا الفيلسوف الألمانيّ فريدريخ نيتشه (1844-1900) أنّ الوقائع لا وجود لها بمعزل عن التأويلات التي يسوقها الإنسان لها². فالأمور مرهونةً بمن ينظر إليها وفيها، أي هي مقترنةٌ بالمنظار (الوسيلة أو السبيل)، وبالمَنْظور (الرؤية أو البُعد)، وبالنظرية (العمارة الفكرية المبنية). لذلك شاع أنّ نيتشه يناصر المنظورية في كلّ شيء حتّى أضحى الواقع وجهة نظر. فالحرب التي ما عاينها أحدٌ قطّ، فما تحدّث عنها مؤرّخٌ، وما استجلاها محلّّلٌ، وما ذكرها راوٍ، وما وثّقها باحثٌ، لن تحدث إلّا في حيّز الافتراض المحض. ذلك بأنّ الحادثة بخبرها، والفعلّة بتناولها، والقصة بسردها، والوجود بتعبيره؛ وإلّا انعدمت جميع هذه الوقائع. كلّما احتشدت التفسيرات وتكثّفت وتعاضمت وتنوّعت، اكتنّزت

¹ Cf. Paul Watzlawick (dir.), *L'invention de la réalité. Contributions au constructivisme*, Paris, Seuil, 1996.

² Johann Nepomuk Hofman, *Wahrheit, Perspektive, Interpretation. Nietzsche und die philosophische Hermeneutik*, Berlin-New York, Walter De Gruyter, 1994 (« Interpretation als Akt der Schwächung. Nietzsche als Inaugurator einer Hermeneutik der Postmoderne » S. 177-182).

الواقعةُ واغتنت وتضخّمت واستوت حقيقةً كونيةً ناجزة. الإهمال التفسيري المطلق يوازي سقوط الأشياء في العدم.

أعود إلى الكورونا لأسأل عن مصدر التفسيرات التي يخرجها الناسُ على وجوه متضاربة. قبل النظر في معنى هذه الظاهرة، يختلف الناس في قضايا علمية محضة لا تتصل بالرؤى والمعاني والقيم. أسوق مثالين على الاختلاف التأويلي هذا. يختلف العلماء أولاً في مسألة الاختيار بين مناعة القطيع أو الحجر الصحيّ الشامل، ويختلفون ثانياً في مسألة نجوع دواء الملاريا (الكلوروكين ومشتقاته) في القضاء على فيروس الكورونا. إذا كان الاختلاف التأويلي مشروعاً في مسائل العلم، فحريّ بنا أن نقبل به مُشتدّاً متفاقماً حادّاً في حقول الاستدلال الحرّ على معاني الظاهرة. منهم من يعاين في الكورونا إخفاقاً للعقل وسقوطاً للعلم، ومنهم من يستطلع بها آثار البلية البيئية الكونية، ومنهم يستدلّ بها على انهيار المنعة البيولوجية في الكائن الإنسانيّ، ومنهم من يتأولها قصاصاً إلهياً ينذر بقيام الساعة وأزوف يوم الدين. والحال أنّ هذه التفسيرات وغيرها تعبّر عن أحوال أصحابها واقتناعاتهم وتصوّراتهم. ومن ثمّ، فإنّ الانتقال من التحليل العلميّ (السبيل الأوّل) إلى الاستنتاج الغيبيّ (السبيل اللاهوتيّ)، مروراً

بالاستجلاء العيني (العلوم الإنسانية) والمكاشفة الوجدانية (الآداب والفنون)، يجب أن تضبطه سلطة العقل الذي ينير التفكير الفلسفي (السبيل الأخير). وحدها الفلسفة ترى معنى الوجود في خفر المساءلة، وحيطة الباحث، وفطنة الناظر، وحكمة المستبصر، وحياد الملتمزم. ذلك بأن الفلسفة راعية العلوم كلها ورقبها الساهر الفطن، ترفض الخضوع لسلطان المعارف اليقينية المتصلبة، وتهوى الأعماق القصية والآفاق الرحبة حيث الإمام بالمشهد الأشمل يضعها في مسؤولية صون حدود الوجود الإنساني القصوى¹. الفلسفة ناسكة التخوم، جليسة المشارف، وسيطة النفائس.

لا شك في أنّ الكورونا اختلالٌ عضويٌّ يصيب الكائنات الحيّة، الحيوانية منها والإنسانية. غير أنّه اختلالٌ ينبثق من منطق التفاعلات الناشطة في صميم الحياة التي منها أتى الجنس البشريّ. ذلك بأنّ الحياة موبوءة في أصل تكوّنها، تستوطنها مئات مليارات الفيروسات الحيّة التي تفعل بها صحّة واعتلالاً. الحياة هي الفيروس الأعظم، وما الفيروسات المشتقة منها سوى دلائل المنعة

¹ Cf. Carl Leonhard Reinhold, *Über das Fundament des philosophischen Wissens. Über die Möglichkeit der Philosophie als strenge Wissenschaft*, Hamburg, Felix Meiner Verlag, 1978.

أو الضعف في مسرى الكائنات الفردية. كان الناس يموتون في العصور القديمة بسبب من الجهل المفروض عليهم. أمّا اليوم، فالناس يموتون من جرّاء الجهل الذي يفرضونه على أنفسهم، وهم في ذروة التملّك العلميّ التقني¹. من علامات هذا الجهل أنّهم، على الرغم من اقتدارهم التقنيّ، يُهمّلون علوم الحياة، وعلوم النضج، وعلوم الاستصلاح الكيانيّ، ويركنون إلى علوم الموت، وعلوم المنفعة، وعلوم الاستئثار الأنانيّ، وعلوم الغلبة، وعلوم الاستفساد الكونيّ.

وعليه، فإنّ التفسيرات التي يختلف الناس في نسبها إلى الكورونا ينبغي أن تدفعهم إلى التروّي لأنّ هذه الظاهرة ستنقضي كغيرها من الظواهر. أمّا الصدمة التي ستخلّفها، فيجب أن توقظ فينا حسّ النقد الذاتيّ حتّى نُنقذ ذواتنا من غربة المادّة، ووحشة الصحراء، ونذير الهلاك. ليس الكورونا نهاية العالم، ولا انهيار النظام الأرضيّ، ولا إعلان مجيء المخلّص، بل عطلّ أخلاقيّ أصاب صميم الفهم الإنسانيّ. فلمّا أن ينهض الناس من غفلتهم، فيستخدمون علومهم من أجل استصلاح الكائن البشريّ في جميع أبعاده الجسديّة والنفسيّة والروحيّة، وإمّا أن تمرّ هذه الجائحة مرورًا مبتذلًا، ويعود الناس إلى المعاناة في

¹ Cf. Nicholas Négroponce, *L'homme numérique*, Paris, Robert Laffont, 1995.

القريب من الأيام.

- العقل الإنساني والتحديات الكونية المصيرية:

في ظني أن العطل الأخلاقي مقترنٌ أوثق الاقتران بتعطل العقل الإنساني عينه. ذلك بأنّ النضج الإنساني هو ثمرة الانسجام الحق بين العقل النظري والعقل العملي. يتعطل العقل الإنساني في وجوه شتى. فإما أن يصيبه الشلل البيولوجي، وإما أن تسيطر عليه أهواء الغرائز الأنانية الخبيثة، وإما أن يهيمن عليه التصلب الإيديولوجي، وإما أن تروضه الغيبات المترججة والصوفيّات الرخوة والوجدانيات الضبابية. يجرّ مثل هذا التعطل على الإنسان ويلات الاغتراب الكياني، والتغرب الذاتي، والغربة الوجودية. فإذا بالكائن البشريّ السليم السويّ يتحوّل إلى كتلة آليّة حيّة تسيّرُها الأحوال الضاغطة، والتصورات السائدة، والأحكام المستبدّة. إنزع العقل عن الإنسان، فإذا به يتحوّل إلى آلة همجيّة، وجسد غريزيّ، وساحر مشعوذ، وراقص مُنتشي يترنّج على أمواج الأوهام.

لا ريب في أنّ مشكلة العقل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطرائق تعيين هويّة الإنسان. وهي طرائقُ تتنوّع بتنوّع البيئات التراثيّة، والتقاليد الاجتماعيّة،

والتصورات الفكرية، والأنظومات الإيديولوجية، والمذاهب الدينية. لكلّ فضاء فكريّ تعريفٌ يجعل العقل إمّا سلطةً عليها ينتظم الكيانُ الإنسانيّ بأسره، وإمّا شريكاً مساوياً للملكات الذاتية الأخرى، وإمّا أداةً خاضعةً تقودها ملكةٌ من الملكات، كالوجدان أو العاطفة أو الإحساس أو الحدس¹. أمّا الأمر الثابت في هذا كلّه، فهو أنّ العقل ينبغي أن يكون وحده ميزان الاستقامة، ومقياس الصحة، وقسطاس الوضوح، ومحكمة الإصابة، ونور الموجودات والأشياء والكائنات.

ومن ثمّ، فإنّ الحضارات الإنسانية حين تتقابل وتتعارض وتتواجه، فيزن بعضها خصوصيةً بعضها الآخر بميزان الأداء الإنسانيّ السليم، والأمانة الكيانية الموضوعية، والانتظام الاجتماعيّ الفاعل، والرقى الأخلاقيّ، إنّما تتفحص مقام العقل ووظيفته وأثره وفعله الناشب في تضاعيف الوجود الإنسانيّ. يأتي العقل أولاً، ومن ثمّ تنبسط الملكات الأخرى، وقد ائتمرت بأحكام العقل السليم. فالمجتمعات بعقول أهلها، والحضارات ببصائر أقوامها، والتاريخ بحكمة أبنائه. أمّا القرارات المصيرية العظمى، فإنّ المجتمعات

¹ Cf. Merlin Donald, *Origins of Modern Mind. Three Stages in the Evolution of Culture and Cognition*, Harvard, Harvard University Press, 1993.

الإنسانية المتكئة على عقول أبنائها السليمة هي التي تتخبر منها ما يلائم خير الناس كلهم في جميع أبعاد حياتهم، ومتطلبات وجودهم، ومقتضيات سويتهم وأمنهم وهنائهم وسعادتهم.

أعتقد أن أزمة الكورونا أتت تفضح الالتواءات التي ابتلي بها العقل البشري قبل انفجار العدوى وإبان عدوانها وفي إثر استفحال عواقبها الفتاكة. ما انفجرت العدوى إلا لأن العقل الإنساني تعطل تعطلا جسيما، وما استفحلت عواقب الكورونا إلا لأن العقل ما برح متعطلا. في النوع الأول من التعطل إصرار على استخدام العقل في تطوير جانب من جوانب الوجود الإنساني، عنيت به النشاط التكنولوجي الاقتصادي في أقصى اندفاعاته الإنتاجية والاستهلاكية. في النوع الثاني من التعطل تشبث انتحاري بالأنانيات الجماعية المؤدلجة المتنافسة المتقاتلة على ساحة الإفناء الكوني.

يساعدنا الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس (1929-....) على إدراك عبر التعطل الأول والتعطل الثاني. ذلك بأن مشروعه الفكري يقوم على انتقاد العقل الأداتي، الآلي، الروبوتي، الوظيفي، الاستغلالي، وتأهيل العقل

التشاوري، السليم، المنفتح، التهذيبي، البناء¹. هو العقل عينه موضع الخطر الأعظم ومنارة الخلاص الأرقى. فالحداثة الغربية ليست، في نظره، مشروعاً فاشلاً، وليست طوراً من أطوار الجنون الإنساني. إنها حادثة العقل المستنير الذي يستطيع أن يصحح ويقوم ويهدب ويعالج ويستدرك ويتخطى ويبتكر. لذلك يرفض هابرماس نغمة النحيب، ويتجنب كل قول اعتباطي يدين الحداثة ويسخفها ويدعو إلى دفنها وتجاوزها.

أعظم ما في الحداثة الغربية أنها تستطيع أن تنتقد ذاتها من غير وجل أو ارتباك؛ لا بل الانتقاد الذاتي هو عين الحداثة الأروبية. فالكورونا أتى على الناس من جرّاء تأزم العقل الغربي الذي أسرف في إخضاع الموجودات والأشياء والكائنات لسلطة الإنتاج المتزايد. لذلك يستطيع عقل الحداثة عينه أن يعالج التعطل الأول بقوة الحكمة الذاتية التي تتجاوز انسدادات الفهم الآلي التكنولوجي المحض، عوضاً من البحث عن حلول ضبابية تُذلّ العقل، وتقضي على الحداثة، وتميت الإنسان شرّ ميته. وكذلك عقل الحداثة أيضاً يستطيع

¹ Cf. Jürgen Habermas, « Vom praktischen, ethischen und moralischen Gebrauch der praktischen Vernunft », *Diskurethik*, Philosophische Texte (Band III), Berlin, Suhrkamp Insel, 2009.

أن يعالج التعطّل الثاني على قدر ما يستنهض في فضيلة الشورى الإنسانية طاقات التضامن المعرفي، والتقاسم القيمي، والتبادل الاختباري، والتسامر الوجداني.

في أصل أزمة الكورونا تعطلّ يصيب مقام العقل، وأيضًا قدرة للعقل عينه على تصويب الأمور وضبط الاندفاعة الإنتاجية الاستثمارية التي يزخر بها المسعى العقليّ الرامي إلى التحقق التاريخيّ الذاتي. في عاقبة أزمة الكورونا تعطلّ آخر يجعل الأنانيّات المستفحلة تتعارك على الاستئثار بمنافع الضرر الكونيّ الذي أصاب الجميع. فإذا بالتوحد العقليّ الانعزاليّ قادرًا على أن يتحوّل إلى معترك نقاشيّ تشترك فيه جميع الحضارات والثقافات والبيئات والمجتمعات والتيارات والمذاهب والمدارس. في التعطّل الثاني أيضًا قدرة على المعالجة الشاملة.

بيد أنّ معالجة الكورونا يجب أن تتجاوز حدود التناول العلميّ المحض. فالمعالجة الكورونية إمّا أن تكون حضارية، وإمّا أن تسقط في انغلاقات التعطّل الأداتيّ الأول. لذلك لا يجوز أن يتناقش الناس في الكورونا تناقضًا متفلنًا من كلّ أحكام التلاقي الإنسانيّ وضوابطه ومعايره ومُنسلكاته. يصرّ

هابرماس في هذا السياق على التقيد بأربعة مبادئ كبرى من أجل النجاح في مسعى المناقشة الواعية، الراقية، المثمرة¹. المبدأ الأول هو القدرة الذاتية والسوية الكيانية. فكلُّ إنسان قادرٍ، سليم الوعي، صحيح المبنى العقلي، يجوز له أن يشترك في المناقشة. المبدأ الثاني هو الحرية والمساواة، إذ إنّ كلَّ إنسان قادرٍ سوى له الحقّ عينه في استثارة المسألة التي يستصوبها ويستعظم أمرها، وله الحرية نفسها في تسوية الخلاصات التي يُفضي إليها والدفاع عنها والانتصار لها. المبدأ الثالث هو الصدق، إذ إنّ كلَّ إنسان قادرٍ سوى حرّ يجب أن تنطوي مقاصده على أنقى الاستعدادات، وأطهر الرغبات، وأجمل المشاريع، وأبهى التطلّعات. فلا يشترك في المناقشة من يضمّر الشرّ، ويعقد غيب ضميره على الغدر، ويتعمّد الكذب والنفاق، ولا يثبت على عهد.

أمّا المبدأ الرابع، فيخرج من دائرة الصفات الثلاث التي ينبغي أن يتحلّى بها الناس المتناقشون، ويتناول طبيعة المسائل والخلاصات والأحكام التي يمكن أن يجمع عليها أهل الحوار. يعتقد هابرماس أنّ كلّ قاعدة مسلكية ينبغي أن

¹ Cf. Jürgen Habermas, « Kommunikatives Handeln und detranszendentalisierte Vernunft », *Rationalitäts- und Sprachtheorie*, Philosophische Texte (Band II), Berlin, Suhrkamp Insel, 2009.

يقبل بها جميع المتشاورين قبولاً يجعلها تتّصف بصفة الكونيّة الشاملة في منطوياتها النظرية، ومُستتلياتها العملية، ونتائجها الفعلية. وكلّ ما لا يقبل به الناس قبول الإجماع يجب أن يسقط. شأنها في ذلك شأن الواجب الأخلاقي الكوني الذي عقده الفيلسوف الألمانيّ كانط (1724-1804) على نصرة الواجب بما هو واجب، بمعزل عن التسويغات والتبريرات والميول والغايات والمقاصد والنتائج. أمّا القلّة الخبيثة التي ترفض تدابير الخير الموضوعة لجميع الناس في المسكونة، فيجب عليها أن تُقنع الناس المجمعين على الصلاح بنزاهة نيّاتها، وبصوابيّة رفضها، وبجدارة طرحها المخالف.

وعليه، فإنّ تشاور الناس في أزمة الكورونا وفي جميع الأزمات الكيانيّة التي تعصف بالحياة الإنسانيّة، يجب أن يُبنى على أساس الاستعدادات الذاتيّة التشاوريّة الثلاثة، وعلى قاعدة المبدأ الكونيّ الشامل. حينئذ لا تملك المجتمعات والسلطات ومراكز النفوذ ومنتديات القرار أن تفرض على البشريّة أحكاماً لا يقبل بها الناس القادرون، الأحرار، المتساوون، السليمون في بنيانهم العقليّ ووعيهم المتبصّر.

بيد أنّ المشكلة الأعوص هي أنّ أحوال التاريخ البشريّ أفضت بالناس

إلى الاختلاف في اكتساب مراتب العقل نفسها، والفوز بدرجات الوعي عينا،
والتنعم بخيرات الأرض ذاتها. فإذا بالمجتمعات مستويات، منها المتقدم ومنها
المتأخر، ومنها القادر ومنها العاجز؛ وإذا بالناس مراتب، منهم الفقير ومنهم
الغني، ومنهم الحكيم ومنهم الجاهل، ومنهم الصالح ومنهم الشرير. فكيف لنا،
والحال هذه، أن نعقد الشروط المثلى في بناء حالة تشاورية راقية تساعدنا
على تجاوز الأزمات الكيانية التي تهدد مصير البشرية جمعاء؟

أعود إلى مسألة تعطل العقل وأعين فيها أصل المصائب والويلات. إذا
كان العقل هو أعدل المزايا قسمةً بين الناس، على حد قول الفيلسوف
الفرنسي زنه ديكارت (1596-1650)، إذ إن جميع الناس يحصلون عليه
حصولهم على الحياة، فإنّ البشر لا يراعونه الرعاية عينا، ولا يستخدمونه
الاستخدام ذاته، ولا يطوّرونه التطوير نفسه¹. وهنا أصل المشكلة.

أرى الحلّ آتياً من التربية الصبور على رعاية العقل حتّى لا يتعطل. ذلك

¹ في مسعى تأصيل التعددية الكونية، يجتهد شيخ الفلاسفة اللبنانيين (1921-....) في تمييز
وحدة العقل من تنوع الاستثمارات الثقافية: "الإنسانية واحدة، على أنّ الناس مختلفون.
العقل واحد، على أنّ الثقافات متباينة. الحقيقة واحدة، على أنّ وجهات النظر عديدة"
(بولس الخوري، العالم العربيّ والتحوّل الاجتماعيّ الثقافيّ، شركة المطبوعات للتوزيع
والنشر، بيروت، 2007، ص 19).

بأنّ الأشخاص هم بنى رمزيّة وهياكلُ معنويّة، على ما يذهب إليه هابرماس نفسه، يخترنون في باطنهم اختمارات الحياة التي اقتبلوها واختبروها على تراخي الأيّام. لا بدّ إذاً من ترميم ثقة الناس بالعقل السليم حتّى ننجو من هذه الأزمة ومن الأزمات الكونيّة الأخرى المقبلة علينا. فالقيمة الإنسانيّة تتبلور وتتجوهر في عمق التآزم، لا في منبسطات الرخاء.

- السند العقلانيّ في الانهماك الوجوديّ الأرقى:

حين يستقيم مقام العقل الإنسانيّ، يصبح في الإمكان الانصراف إلى الأمور الجليلة في الوجود والانهماك بها على كميّات شتّى. لا ريب في أنّ جائحة الكورونا تحثّ الإنسان على استصفاء الأولويّات الجوهريّة في المسرى الوجوديّ الفرديّ والجماعيّ. والاستصفاء هذا شرط الشروط في تدبّر سبلّ المواجهة الحصيفة مع نوائب الدهر. فلا الاستعظام ولا الاستصغار يمكن الإنسان من الاضطلاع بمسؤوليّاته الكونيّة. يتّفق العلماء على خطر الكورونا، ولكنهم لا يتطرّفون في أحكامهم، ولا يتنبّأون بنهاية البشريّة. فالعلوم تستطيع أن تجترح حلولاً طليعيّة في معالجة الاختلال البيولوجيّ. غير أنّ مرحلة الانتظار العلميّ وضعت الناس في مواجهة الموت المحتمل من دون الاستعداد النفسيّ الملائم. عاملان خطيران يضاعفان حدّة المخاوف الموتيّة التي تنتاب الإنسان: الإبطاء

في إدراك الهيئات التحوّليّة التي يتلبّس بها فيروس الكورونا، والتريث الضروريّ في اكتشاف الدواء الشافي وتصنيعه وتسويقه. جهلُ المرض وانتفاءُ الدواء يجعلان الإنسان يتخيّل الفضاء ويستبق الإمكانات المفجعة. في أقصى هذه الإمكانات ينتصب الموتُ قضاءً مبرماً ينتزع الناس من أوهام منعتهم.

يذكّرني هذا الاستباقُ بحكمة الرهبانيّات المسيحيّة القديمة التي كانت تحتّ الرهبان على التأمل المطّرد في جمعة عظميّة تنتصب في صدر كلّ غرفة من غرف الدير. واليقين الروحيّ في الممارسة النسكيّة هذه أنّ استباق منظر الموت، وقد نزع عن وجه الإنسان جمالاته المألوفة، يهذّب الأخلاق، ويرتقي بالنفس إلى مراتب الفضيلة السامية، ويبين لكلّ مترهب متنسّك جوهر الفنائيّة التي جُبلت عليها الكينونة البشريّة. في سياق التفكّر الفلسفيّ، يمكن استحضار الفيلسوف الألمانيّ مارتن هايدغر الذي كان يعتقد أنّ اختبار الموت الاستباقيّ هو السبيل الوحيد الذي يتيح للكائن الإنسانيّ أن يُمسك بمعنى وجوده، وبمعنى الكائنات والأشياء، وبمعنى الكينونة عينها¹. فالانفراديّة لا تصحّ إلّا في الموت. ما خلا هذا الاختبار الفرديّ الذاتيّ الأقصى، يمكن الإنسان أن يشارك

¹ Heidegger, *Sein und Zeit*, GA 2, Frankfurt, Klostermann, 1977 (§ 52 : « Das alltägliche Sein zum Ende und der volle existenziale Begriff des Todes », S. 339-345).

الناس في سائر اختباراتهِ الحياتيّة. ذلك بأنّ الموت ينهي وجود الفرد، ويُبطل المشاركة، ويطوي الزمن الذاتيّ إلى غير رجعة. لذلك لا يختبر الموت حقًا إلّا من يموت.

بعضُ منّا قد يرى في الكورونا جمعة الراهب، وبعضُ آخر استباقَ الموت الفرديّ عند هايدغر. في كلتا الحالين، يشعر الناس اليوم بأنّهم أمام ثقب وجوديّ أسود، مظلّم، خاوٍ، سحيق القاع. من تعودّ الهروب من الذات والانغماس في الجمهور المغفّل والضجيج الصاخب والإلهاء الاستهلاكيّ، يجد نفسه مضطرًّا إلى مواجهة نفسه أمام مرآة الانعطابيّة البيولوجيّة، والارتخائيّة المادّيّة، والعابريّة الوجوديّة، والزائليّة التاريخيّة. ذلك بأنّ الجسم الإنسانيّ شديد الانعطاب في جهازه العصبيّ ونظامه الخلويّ ومبناه الجسدانيّ-النفسانيّ، والمادّة تتراخى وتهاوى وتتفكّك في الطبيعة وفي البيئة، والأفراد والجماعات والأمم يعبرون عبورًا أليماً في الحروب والجرائم والفضائع والانتهاكات والتصفيات، والأزمنة الكونيّة تتعاقب على إيقاع الاستضعاف الذاتيّ والترهل الحضاريّ.

لا بدّ للإنسان، والحالُ هذه، من أن يغتنم هذه الفرصة التاريخيّة لكي يستجمع قواه الذهنيّة، ويتبصّر في مصيره ومصير نظرائه البشر، ويسترجع

المعنى الذي يُسبغه هو على حياته. لستُ من محبّي الجماعم، ولا من الناظرين إلى الموت نظرة الاضطراب المفجوع. فالموت جزءٌ من الحياة، لا يستوي واقعًا سليمًا في أفق الحياة إلّا إذا هنأت الحياةَ عينيها الإنسانَ وأبهجته وأشهدته حكمته البليغة. غير أنّ للإنسان إسهامًا أساسيًا ينبغي أن يضطلع به، ولاسيما في زمن الشدائد. من مستلزمات هذا الإسهام أن يستصفي الإنسان الأولويات والأساسيات والجواهر في حياته. إذا كان الموت أعظم الأمور قسطًا وعدلًا بين الناس، فإنّ الاستعداد له يختلف باختلاف التصوّرات والاقتناعات والاختبارات.

إحساسي أنّ اختبار استباق الموت أمام هول الكورونا يساعد كلّ إنسان على تخيّر الأمر الأهمّ في حياته الشخصية. قد يكون الأمر الأهمّ تنعمًا بمكاشفة وجدانيّة عميقة، سحيقة التطلّب، بليغة الإفصاح. وقد يكون ابتهاجًا بإنجاز من إنجازات الماضي، أو باستشرافٍ إمكانٍ من إمكانات المستقبل. وقد يكون فتحًا للذات على مستحيلات فكريّة أو معنويّة أو علائقيّة كانت تستعصي كلّ الاستعصاء. وقد يكون إخراجًا لطاقة إيجابيّة بناءة غارَ مدفئها في غياهب النفس المتألمة. وقد يكون تأملًا رهيفًا في خزائن الحكم الدهريّة التي تنطوي عليها تراثات الحضارات الإنسانيّة. وقد يكون شدوًّا صافيًا على مقام الانعتاق

من ضرورات المؤلف من الحياة الجارية. وقد يكون ثوراناً هادئاً على كلِّ

العبوديّات الماديّة والاجتماعيّة والإيديولوجيّة التي تكبّل الإنسان تكبيلًا.

في جميع الأحوال، أعتقد أنّ جسامته المخاطر التي تحقّق بنا من جرّاء

الكورونا يمكنها أن تنقلب فسحةً نادرةً من الاسترجاع الذاتيّ البنّاء. فالناس،

في زمن العولمة الجارفة، فقدوا القدرة على الإمساك بذواتهم الباطنة المحجوبة،

وتعوّدوا الانجراف في سيل الأحداث الخارجيّة الخدّاعة والأخبار المسيّرة الزائفة.

فالحديث الخارجيّ لا يبني الذات، والخبر المنشور لا يصقل الكيان. وحده

الاسترجاع الذاتيّ الذي تُكسبنا إيّاه الخلوة الطوعيّة يمكنه أن يمنحنا القدرة

على ابتداع المعنى الإنسانيّ الأرحب الذي ينبغي لنا أن نعتصم به في مسرى

الحياة. فمن يسترهب ذاته المنفردة، لا يستطيع أن يستأنس بصحبة الآخرين

وبخيرات الوجود. فالناس يهربون من الذين يهربون من ذواتهم، ويبحثون عن

الذين وجدوا ذواتهم وجداً رضيّاً. فلا بدّ إذًا من معاشرة الذات في صميم

جوهرها الإنسانيّ معاشرةً عقلانيّةً ترأف بالانعطاب الكيانيّ وتحتضنه حتّى

تستقيم الصلاتُ الإنسانيّة، وتسلك الأحداثُ الحياتيّة مسلك البناء والإغناء.

خاتمة: مناهضة العبث الانتهاكي:

رأس الكلام في هذا كله أنّ العقل هو المنارة الهادية التي ينبغي لها أن تضيء سبيلَ الفهم الإنسانيّ الأقوم. والعقل، في هذا المقام، هو السلطة العليا التي تخوّل الإنسان تمييز الصواب من الخطأ، والرشد من الضلال، والصالح من الفساد. ولكنّه عقلٌ يحتاج إلى مؤازرة جميع ملكات الحكمة الإنسانية. ليس العقل الإنسانيّ سوى مشكاة الأنوار التي منها تنبثق الهداية الوجوديّة الأرحب. حسبُ الإنسان أن يصقل عقله بمكتسبات الحسّ الأخلاقيّ الكونيّ حتّى يأتي الاستبصارُ مقروناً بالاستنفار التضامنيّ الرقيق.

من المعانيات الأولى الممكنة أنّ الطبيعة الكونيّة تزخر بطاقات هائلة من الإخصاب والإغناء والإبداع، قد تنقلب هي بعينها حقولاً جهنميّة من التدمير الذاتيّ الفتاك. المسألة كلّها تتعلّق بقرار الإنسان في مطالع القرن الحادي والعشرين. لا يأتي مثل هذا القرار من تواطؤات هياكل النفوذ الماليّ في البورصات العالميّة، وأصحاب شركات السلاح، ومختبرات التصنيع الدوائيّ، وأهل النفوذ السياسيّ الظاهر والخفيّ، ومجموعات التأثير الإيديولوجيّ المحتجبة في المحافل الكونيّة. لا يجوز للناس أن يستسلموا لارتكابات هذه

المعابد السلطوية الكونية الخمسة التي تقرّر وحدها مصير الجنس البشري على كوكب الأرض. من الواجب أن تنشأ في موازاة هذه القوى الرأسمالية الظالمة منتديات فكرية عقلانية حرة تستلهم أصفى ما بلغته العلوم الإنسانية المعاصرة، وفي طليعتها الفلسفة، من حكمة بليغة في تصوّر مقام الإنسان في سياق الكينونات الثلاث العظمى، عنيتُ بها الكون والحياة والوعي.

القول الأوضح في هذا السياق أنّ الكورونا لا معنى له إلا ذلك الذي يجعله مهماً أخلاقياً يستحثنا على التحرّر من ذهنيّات الخوف والجشع والاستماتة التي تحوّل فينا الرجاء مطيّة للاستزادة الأنانية المستقبحة. مثل هذه الذهنيّات أمست ضاربة في عمق أعماق النظام الاقتصادي الكوني. وما من فكّك منها إلا بصحوة عقلانية أخلاقية إنسانية شاملة تستصفي الضروري من الحاجات الماديّة، وتعزّز المغني من المفاتيح الإنسانية التي تتيح للناس أن يحيا في رعاية راقية رقيقة لإنسانيّتهم التائقة إلى المودّة والتعاطف والتضامن والتقاسم. فالناس سيموتون عاجلاً أم آجلاً، سواءً من جرّاء الكورونا أو من جرّاء اعتلالات جسدية ونفسية وبيولوجية وكونية أخرى. المهمّ أن يحيا قبل موتهم حياةً تليق بكرامتهم الكيانية وبزادهم العقلي. ليس يفيد الإنسان أن

ينتحب على مصير البشريّة في زمن الكورونا، وهو في غفلةٍ عن نوعيّة الحياة التي ينبغي له أن يحيها. الموت انقلابٌ إلى ضفّة أخرى من الحياة، وانغماسٌ في لجة الفيروس الأعظم. وما من سلطة للإنسان عليه. سلطته الوحيدة أن يتدبّر الآن شؤون الحياة ما دام سالكاً في شعابها، منتظماً في تدفّقها، ناشطاً في اعتماداتها. معنى الكورونا أن يحيا الإنسان حياته الإنسانيّة في عمق التبصّر، ورجاحة الرأي، وحكمة القرار، ورقّة المعاشرة، ودفاء الأخوة، وصدق التضامن، وبهجة الإبداع، ونور الكون.

مراجع البحث:

- John AUTHERS, « How Coronavirus Is Shaking Up the Moral Universe », *Bloomberg*, Bloomberg Opinion, 29 mars 2020 (online).
- Stephen T. ASMA, « Does the Pandemic have a Purpose », *The New York Times*, 16 April 2020 (online).
- François BORELLA, *Critique du savoir politique*, Paris, Puf, 1990.
- Philippe CAPELLE et Jean GREISCH (éd.), *Raison philosophique et christianisme à l'aube du troisième millénaire*, coll. « Philosophie & Théologie », Paris, Cerf, 2004.
- DILTHEY, *Gesammelte Schriften*, Stuttgart, B. G. Teubner, 1958, VII.
- Merlin DONALD, *Origins of Modern Mind. Three Stages in the Evolution of Culture and Cognition*, Harvard, Harvard University Press, 1993.
- HABERMAS, « Vom praktischen, ethischen und moralischen Gebrauch der praktischen Vernunft », *Diskurethik*, Philosophische Texte (Band III), Berlin, Suhrkamp Insel, 2009.
- HABERMAS, « Kommunikatives Handeln und detranszendentalisierte

Vernunft », *Rationalitäts- und Sprachtheorie*, Philosophische Texte (Band II), Berlin, Suhrkamp Insel, 2009.

- HEIDEGGER, *Beiträge zur Philosophie. Vom Ereignis*, GA 65, Frankfurt, Klostermann, 1989.

- HEIDEGGER, *Sein und Zeit*, GA 2, Frankfurt, Klostermann, 1977 (§ 52 : « Das alltägliche Sein zum Ende und der volle existenziale Begriff des Todes », S. 339-345).

- Johann Nepomuk HOFMAN, *Wahrheit, Perspektive, Interpretation. Nietzsche und die philosophische Hermeneutik*, Berlin-New York, Walter De Gruyter, 1994 (« Interpretation als Akt der Schwächung. Nietzsche als Inaugurator einer Hermeneutik der Postmoderne » S. 177-182).

- Mark HONIGSBAUM, *The Pandemic Century. One Hundred Years of Panic, Hysteria and Hubris*, London, Hurst Publishers, 2019.

- Nicholas NEGROPONTE, *L'homme numérique*, Paris, Robert Laffont, 1995.

- Elias NORBERT, *Engagement et distanciation*, trad. de l'allemand par Michèle Hulin, Paris, Fayard, 1993.

- Carl Leonhard REINHOLD, *Über das Fundament des philosophischen Wissens. Über die Möglichkeit der Philosophie als strenge Wissenschaft*, Hamburg, Felix Meiner Verlag, 1978.
- Frank M. SNOWDEN, *Epidemics and Society. From the Black Death to the Present*, Yale, Yale University Press, 2019.
- Steven TAYLOR, *The Psychology of Pandemics. Preparing for the Next Global Outbreak of Infectious Disease*, Cambridge, Cambridge Scholars Publishing, 2019.
- Paul WATZLAWICK (dir.), *L'invention de la réalité. Contributions au constructivisme*, Paris, Seuil, 1996.



جائحة كورونا.. بين درس التاريخ والعودة للفردانيات

أسامة الزكاري

باحث في التاريخ المعاصر والراهن



ضربت جائحة كورونا العالم عند نهاية سنة 2019، وامتدت ارتداداتها على نطاق واسع خلال المراحل الموالية في سرعة قياسية جعلت الجميع يقف مندهشا أمام هول ما يقع من تفاعلات يومية مسترسلة. وإذا كانت الجوائح والأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية، من الظواهر التي شكلت أزمات بنيوية للدول وللمجتمعات البشرية منذ أقدم العصور،¹ فالمؤكد أن الجائحة الحالية قد استنفرت العالم وجعلته يعيد مساءلة الكثير من يقينيته ومن طوباوياته، بعد أن وقف الجميع منكسرا أمام حالة العجز المطلق في مواجهة الكارثة. لم ينفع التطور الطبي الكبير، ولم تشفع آليات تحصين دول الشمال من "لثة" دول الجنوب، في حماية العالم من الامتداد السريع لـ "بقعة الزيت"، ولم تنفع التقلبات السياسية التفاؤلية المبشرة بـ "خيرات" العولمة وبـ "بركة" الليبرالية الجديدة، في تجنب العالم رذاذ الفيروس القاتل. لقد أعادت هذه الجائحة التشكيك في المسلمات التي جعلت النظام العالمي يطمئن لعناصر سطوته ولأذرع هيمنته، عبر الامتداد الواسع لمرجعيات اللايقين التي أضى يتداولها الباحثون والمفكرون في سياق جهودهم للإمساك بتبعات الأزمة وبنائجها

¹ Elisabeth Carpentier, Autour de la peste noire : famines et épidémies dans l'histoire du 14^e siècle, in, Annales, Economies, sociétés, civilisations. 17 année, n. 6, 1962.

المتناسلة.

في هذا الإطار، وجد مؤرخ الراهن نفسه مضطرا "للاستنجاد" بالرائد فرنان بروديل من أجل تفكيك أسس "التاريخ الطويل المدى"،¹ ووضع التداعيات الحالية داخل سياقاتها الكبرى المميزة، فوباء كورونا لم يكن الأول من نوعه، ولن يكون الأخير. لذلك، أضحي من الوارد إعادة النظر في عناصر التحقيق التاريخي، عبر الحديث عن زمن ما قبل وباء كورونا وزمن ما بعدها. ومعلوم أن هذا المنحى، قد اتخذ تمظهرات عميقة انعكست على واقع الفرد والجماعة والدولة، أهمها تعزيز الشعور الفردي لدى المؤرخ والمفكر والمتقف، وبداية ارتفاع دعوات إعادة الاعتبار لمركزية الدولة القطرية ووظيفتها الرئيسية في تأمين وجودها وفي تعزيز سيادتها وفي حماية أمنها. لذلك، ارتفعت عدة أصوات مطالبة بمراجعة أنظمة الاندماج الإقليمي على المستوى العالمي، مثلما هو الحال مع تجربة الاتحاد الأوروبي، أو مع تجربة النافتا بأمريكا الشمالية، أو تجربة الأسيان بجنوب شرق آسيا. وتزامن ذلك، مع صعود

¹ تلاحظ عودة متزايدة للمؤرخين المغاربة لاستلهم "دروس بروديل"، أحيل على سبيل المثال على: محمد الغرايب، الفقر والحرب في القرن 16م- فيرنان بروديل، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب- مقاربات متقاطعة"، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2019، ص. 93.

ملحوظ لشعبية اليمين المتطرف الشعبوي بخطاباته الهوياتية المتوقعة على ذاتها وعلى مسلماتها، مثلما يقع -الآن- في دول مثل إيطاليا وإسبانيا والنمسا وألمانيا...

وعلى المستوى الوطني، فلا شك أن واقع الحظر الصحي المعمول به ببلادنا هذه الأيام، أضحى يوفر شروطا ملائمة لإعادة ترتيب الأولويات الثقافية، إلى جانب استحضار الزوايا المغيبة في التعاطي مع مختلف أنساق الإبداع والكتابة، وإنتاج المعرفة، وتداول الفنون ومختلف التعبيرات الرمزية للتراث اللامادي للأفراد والمجتمع. وعلى هذا الأساس، بدأنا ننحون نحو إعادة صياغة أسئلتنا الثقافية الكبرى، من زاوية تنظيم العودة لاستلهم "روحانيات الخطاب" في مجمل انشغالاتنا الثقافية الفردية والجماعية¹. وبما أن السياق يسمح بتوفير حيز زمني لا بأس به، مما يشكل مدخلا للتأمل في الظاهرة على مستوى أجواء القلق العام المرتبط بها، فالمؤكد أن المقاربة العلمية الطبية لا تفيد بشكل كبير في إنتاج الأسئلة المهيكلية للإبداع وللتفكير وللكتابة، بالنظر للتطورات السريعة المرتبطة بوقوفنا عند خط التماس مع شبح الموت، وهو

¹ كريم العرجاوي، المناخ والمجتمع، ملاحظات حول أثر الأزمات المناخية على مغاربة القرن 17م، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب"، م.س، ص. 218.

الخط الذي جعلنا أمام موجة هروب جماعية لإعادة مقارنة قضايا المصير والمآل، الفناء والاندثار، الأمر الذي خلق حالة توتر نفسي جمع بين واقع "مصادرة" الحرية الفردية من جهة، وبين إعادة مساءلة مضامين "خطاب الروحانيات" القادر - لوحده - على خلق الطمأنينة النفسية الضرورية لكل محاولات التعايش مع واقع الوباء الطارئ. في هذا الإطار، يقدم الاشتغال على المتون الصوفية متعة استثنائية لتحقيق مدارج "الحلول"، ومدارك "الوجد"، وسمو "الأنوار"، ومنازع "الفناء". وهي صفات تعطي للكتابة التاريخية قوتها الروحانية الضرورية للارتقاء من مستوى القلق التقييري المباشر تجاه الموت الزاحف بقوة، إلى مستوى الاستيعاب النظري والثقافي التأسيلي لفعل الكتابة والتنظير والإبداع. وفي كل هذه الحالات، تبدو العزلة عنصرا ناظما لكل محاولات التأسيس للنزوعات الفردانية الضرورية لصناعة مختلف مجالات التميز الإبداعي، نثرا وشعرا وتشكيلا وتجسيدا موسيقيا ومسرحيا وسينمائيا...، والتميز المعرفي، سوسيولوجيا وتاريخيا ولسانيا...

يستطيع الوباء أن يتحول إلى نقاط مفصلية في تجارب الكتابة لدى الذات المنتجة للقيم الرمزية والمادية المهيكلية لتمييز الفرد والجماعة داخل

وسطهما الإنساني الواسع، ولنا في التاريخ دروس وعبر. في هذا الإطار، يمكن الاستدلال -على سبيل المثال- بما كتبه ابن خلدون على هامش معانيته لوباء "الطاعون الأكبر" خلال القرن 14م. ألم تكن عزلة ابن خلدون ضرورية لإنتاج تخريجاته النظرية حول "العمران" وحول "العصبية والدولة"؟ ألم يسمح له الحظر الصحي بتوفير الشروط المثلى لإعادة تركيب وقائع تاريخ المغرب وتقديمه في عمله التصنيفي الهام "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"؟ وما يقال عن ابن خلدون، ينطبق على الكثير من تجارب الكتابة المرتبطة بضغط الأوبئة والمجاعات والكوارث الطبيعية التي ساهمت في تعميم حالة من العزلة الجماعية، ومن المكاشفة الجريئة لتسمية الأمور بمسمياتها الحقيقية، بعد أن يتم إسقاط أوهام المثقف، وبعد أن يترك هذا المثقف جانبا نرجسياته المزمنة، وبعد أن يعيد اختبار يقينيته ومسلماته. وبهذه الصفة، يتحول العزل المرتبط بالوباء إلى أرضية للاشتغال الفلسفي المتحرر من قيود رقابة المثقف على ذاته أولاً، وعلى إنتاجه ثانياً، ثم على تحولات محيطه ثالثاً. أضف إلى ذلك، أن ظروف العزلة الوبائية تشكل فرصة هامة لتطويع القراءات ولتوسيع مداركها، بعد أن يتخلى المثقف عن عناصر يقينيته المتوارثة.

يحب التراث العالمي بتراكمات جمّة عن ما يمكن وصفه بـ"أدب الأوبئة"، أو بنفسيات الأوبئة، أو بذهنيات الأوبئة التي تخلق تفسيرات غيبية وخرافية متداخلة ومعبر عنها بأشكال مختلفة سواء من طرف نخب المجتمع أم من طرف عامة الناس¹. وهي كلها تمظهرات وتسميات لواقع الكتابة المتفاعلة مع ضغط شبح الموت الزاحف، حيث الخوف من المجهول، وحيث البحث عن السكينة، وحيث الملاذ إلى الروحانيات المطهرة للنفوس من الأهواء ومن الخطايا. وفي جميع الحالات، هي عودة عميقة لربط جسر الألفة مع الحميميات المخصصة، بلغتها الشفيفة غير المكترثة لتدفق أنهار المعلومات "السريعة" وتفسيراتها المرتبطة بثمار ضغط الثورة الرقمية التواصلية الحديثة الموجهة لمضامين الذاكرة الجماعية.

وبذلك تصبح حالة العزلة أو الحظر، أو لنقل "الفردانية" في بعدها الرمزي المعرفي، حجر الأساس لإعادة تحقيق التصالح الضروري بين المؤرخ ومواضيعه وأسئلته وقضاياها، وفق المدارج التراتبية المؤطرة لفعل العزلة والقائمة على عناصر "التخلي" و"التحلي" ثم "التجلي". ولعل ذلك، من حسنات

¹ إدريس بلعابد، ذهنيات التحليل الغيبي للجوائح والكوارث بالمغرب خلال العصر الحديث، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب"، م.س، ص. 326.

ضغط المرحلة، حيث تتحول العزلة إلى فرصة لتقييم حصيلة منجز الكاتب/المؤرخ، ولإعادة ترتيب أولوياته، ولإعادة إثارة الأسئلة المغيبة داخل عوالمه المخصوصة، وداخل انتظاراته المؤجلة، وداخل "مغارات" اجتهاداته المميزة لهويته الفردية الخاصة.

من المؤكد أن الأمر سيحمل في طياته عودة تأصيلية لمنظومة القيم التي تنتظم في إطارها حياة الفرد والجماعة. ويبدو أن ذلك سيتم بشكل راشد عبر التدرج الهادئ عبر المراحل الثلاث للأزمة، مرحلة الصدمة من خطوة ما وقع ومن سرعة انتشاره ومن آثاره الكارثية، ثم مرحلة الدهشة من عجز عقل الإنسان عن التصدي للجائحة، ثم مرحلة استيعاب الظاهرة بالبحث في تفاصيل الأسئلة المولدة للانتقال التاريخي المرتبط –عموما- بارتدادات الجوائح والكوارث على المسار التاريخي العام وعلى الذاكرة الجماعية المشتركة، بما لذلك من انعكاسات مباشرة على واقع الدولة والمجتمع.

في ثنانيا هذا التحول العام، ينتصب صوت المؤرخ حاسما عبر توليد الأسئلة الضرورية لتعزيز المشترك بين الجماعة،¹ ولترشيد الانتقال التاريخي،

¹ نحيل في هذا الإطار على النبش المؤسس الذي اعتمده المرحوم محمد الأمين البزاز في أطروحته المرجعية: تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر،

ولفهم ميكانزمات التحول الناعمة للعلاقات القائمة/والمفترضة بين عناصر الثبات والتحول في وعي الناس وفي نظمهم المعيشية وفي مجمل أنساقهم الرمزية المشتركة. ويبدو أن العدة المنهجية للمؤرخ تصبح ضرورية لتحقيق هذا الهدف، وذلك في مختلف المستويات المرتبطة باحترام المسافة الضرورية عن الأحداث والوقائع، وتجميع المعطيات، وتصنيف المضامين، واستثمار الأدوات النقدية، وتشريح التمثلات، قبل إعادة تركيب الوقائع والتنظير لمحدداتها ولعناصر تغييرها ووقعها في الزمن وفي المكان. هي العدة المنهجية الضرورية للمؤرخ في سعيه لفهم ضمان الانتقال السلس للتداعيات، في أفق التأصيل لاستيعاب الظاهرة، احتراماً للشرط التاريخي المميز لـ "صناعة" كتابة التاريخ ولأدوارها المعرفية الكبرى.

يستطيع المؤرخ إعادة ترتيب فوضى العالم، لذلك، فإن قلقه يصبح مشروعاً. ويستطيع السوسيولوجي تفسير التعبيرات العامة عن ارتدادات الظاهرة لدى الفرد ولدى الجماعة، لذلك، فإن قلقه يصبح مشروعاً.

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992. ونجل كذلك على: الحسين بولقطيب، جوانح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، 2002. وعلى: Rosenberger (B) et Triki (H), Famines et épidémies au Maroc aux 16^e et 17^e siècles, Hespéris-Tamuda, 1973-1974

ويستطيع الأنثروبولوجي تفكيك الرموز المؤطرة للسلوك وللموقف وللمثلاث، لذلك، فإن قلقه يصبح - مرة أخرى- مشروعاً. هي حالة "القلق المعمم" التي لا يمكن إلا أن تفرز أدوات استيعاب تحولات الراهن. وداخل متاهات هذا "القلق المعمم"، تنتصب ذات المؤرخ، كضمير مؤطر لخصوصية الذاكرة الجماعية، في سعيها نحو الارتقاء بمكوناتها إلى مصاف الذاكرة التاريخية.

وعلى أساس ذلك، فإن حالة الانزواء التي أثرتنا سياقاتها أعلاه، تصبح خياراً وحيداً أمام المؤرخ وهو يتأمل محتويات "فرن الأحداث الآنية"، ليس - فقط - بهدف التجميع الكمي للأرقام وللمعطيات وللوقائع وللأخبار وللتفسيرات، ولكن - أساساً - بهدف استخلاص نظيمة الحدث وبناء المركبة، في عمقها التاريخي المسترسل، وفي تمظهراتها الراهنة المتغيرة، وفي آفاق تفسير تحولاتها المنتظرة. لا شك أن جائحة كورونا ستسمح بمساءلة أدوات اشتغال المؤرخ، قصد تكييفها مع ظروف المرحلة. فالنقد التاريخي - في عمقه المعرفي - يظل سؤالاً مشرعاً لاحتواء قلقنا الجماعي، بنفس القدر الذي ينخرط في مشاريع تحديث ذهنيات تلقي الوقائع وتشرحها واستيعاب محرركاتها وتوظيف شواهدها ورصد امتداداتها.

لائحة بيبليوغرافية مرتبطة بالموضوع:

- محمد الأمين البزاز، الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992.
- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، 2002.
- محمد الغرايب، الفقر والحراية في مغرب القرن 16م -فرنان بروديل، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب- مقاربات متقاطعة"، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2019.
- كريم العرجاوي ، المناخ والمجتمع- ملاحظات حول أثر الأزمات المناخية على مغاربة القرن 17م، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب- مقاربات متقاطعة"، م.س.
- إدريس بلعابد ، ذهنيات التحليل الغيبي للجوائح والكوارث بالمغرب خلال العصر الحديث، ضمن كتاب "الأزمات والهشاشة بالمغرب- مقاربات متقاطعة"، م.س.
- Elisabeth Carpentier, Autour de la peste noire: famines et épidémies dans l'histoire du 14° siècle, in, Annales, Economies, sociétés, civilisations. 17 année, n. 6, 1962.
- Rosenberger (B) et Triki (H), Famines et épidémies au Maroc aux 16° et 17°



السلوك التضامني خلال أزمة كورونا: التاريخ

مدخلا للفهم والتفسير

سعيد الحاجي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس



استطاعت أزمة فيروس كورونا أن تحتكر لنفسها لقب أول أزمة شملت جميع دول العالم بدون استثناء في القرن الواحد والعشرين، هذه الأزمة التي أفرزت وضعاً غير مسبوق أدى إلى إقرار إجراءات وقائية على رأسها الحجر الصحي الذي منع بموجبه التنقل بين الدول وداخلها، تفاديا لانتقال العدوى التي أثبت الأطباء أنها تنتقل بسرعة في حالة فيروس كورونا أكثر من أي فيروس آخر. الشيء الذي أدخل العالم فيما يشبه السبات الكوني وحالة الجمود والترقب أمام كائن مجهري لا يعرف الإنسان كيف يحاربه.

مع مرور الوقت، أفرز الخوف من الفيروس تخوفات أخرى على مستويات عدة، فتوقف الاقتصاد كان من بين نتائجه تأثر ملايين الناس سلباً بوضعية الجمود الجديدة، وهذا ما حول أزمة كورونا إلى محرك لعملية تفكير ضخمة وسريعة، نتج عنها فقدان شرائح واسعة لمداخيلها وتحول المنتمين إليها من أجراء أو ممارسين لمهن حرة تدر مدخولاً محترماً، إلى شرائح تنتظر ما ستجود به مخططات الدولة عليها من دعم ومساعدات تضمن لها البقاء في مستوى الحد الأدنى من العيش. وقد كانت وضعية اقتصاديات الدول عاملاً حاسماً في التخفيف من آثار الأزمة على مواطنيها، إذ أن الدول ذات

الاقتصاديات القوية عبأت ميزانيات هائلة لتقديم المساعدات المالية للأسر المتضررة، قصد مساعدتها على ضمان الحد الأدنى من حاجياتها، والحفاظ على مستوى أدنى من الاستهلاك يجنب الدورة الاقتصادية الشلل التام، مما قد يحول الأزمة من اقتصادية إلى اجتماعية تؤدي في النهاية إلى أزمات سياسية مفتوحة على المجهول.

أما في الدول ذات الاقتصاديات المحدودة، ومن بينها المغرب، فقد حاولت الدولة بسرعة التدخل للتخفيف من حدة التداعيات السلبية للأزمة الاقتصادية، لكن ذلك التدخل كان محدودا ومرتبطا بفترة معينة فرضت الدولة فيها على الناس عدم العمل والالتزام بالحجر الصحي تفاديا لانتشار العدوى. وبقدر ما كان تدخل الدولة في المغرب غير كاف عموما لجميع الفئات المتضررة، على غرار الدول ذات الاقتصاديات المماثلة، والتي ترتفع فيها معدلات الفقر والبطالة والتهميش، فإن ما يساهم في التخفيف بشكل أكبر من تداعيات الأزمة، خصوصيات المجتمعات ومدى تجذر ثقافة التضامن داخلها، وهو تضامن غير مؤسسي يخضع لمنطق مجتمعي صرف مستند إما على أعراف محلية أو معتقدات دينية أو تمثل الناس في المجتمع للأواصر العائلية.

لقد كان دور هذه الآليات بارزا في المجتمع المغربي خلال أزمة كورونا، وبالرغم من تخصيص الدولة لمبالغ بسيطة من الدعم لبعض الفئات، إلا أن هناك آليات تضامنية قوية تحركت داخل المجتمع، وكان دورها يوازي دور الدولة في التخفيف من وقع الأزمة على الشرائح الهشة، ولعل هذا يفتح مجالا واسعا لرصد جزء من بنية سلوكية ممتدة في الزمن لازالت ماثلة إلى اليوم في المجتمع المغربي، على الرغم من تطور نمط الاستهلاك وتقلص حجم الأسرة وتراجع الروابط الاجتماعية مقارنة مع ما كانت عليه في مراحل زمنية سابقة.

إن نمط الاستهلاك الجديد وتزايد النزعة الفردانية التي تجنح نحو صياغة نموذج استهلاكي يقلص الاستفادة منه ويحصره داخل محيط الفرد في الأسرة الصغيرة، يجعل الاستفادة تضعف تدريجيا كلما تجاوزنا هذه الأسرة، هذا النمط قد يعرف نوعا من الانقلاب خلال الأزمات المماثلة لأزمة كورونا في المجتمعات ذات الخصوصية المماثلة للمجتمع المغربي. وإذا كان تاريخ المغرب حافلا بالأزمات والمجاعات والأوبئة التي تسببت في هزات عنيفة للمجتمع المغربي، فإن أهم ما يسجل في مختلف هذه الأزمات، حضور السلوك التضامني وثقافة التآزر بين مختلف فئات المجتمع.

إن بروز السلوك التضامني بهذه القوة في المجتمع المغربي على الرغم من التطور الذي عرفه، يجعل المؤرخ مرة أخرى في موقع التفسير استنادا إلى ما يتوفر عليه من أدوات منهجية، ومن إلمام بالسياقات التي تجعله يرصد عناصر الاستمرارية في بنية اجتماعية متحولة بشكل سريع في عالم اليوم. وقد يكون المؤرخ من أكثر المتدخلين قوة في الأزمة الحالية على هذا المستوى. إذ أن المتخصص في الاقتصاد قد يعتبر أشكال التآزر الاجتماعي بمثابة مؤشرات ساهمت في الحفاظ على استمرار الفئات الهشة في تحريك النسق الاستهلاكي، كما أن المتخصص في علم النفس قد يفسرها بالخوف الذي يدفع الفرد إلى إنقاذ المقربين منه، والفقيه قد يعتبرها امتثالا لتعاليم الدين التي تحث على التضامن وغيرها...، لكن لا أحد من هؤلاء المتخصصين في حقول معرفية مختلفة، قادر على وضع هذه الأشكال في سياقها التاريخي وإبراز مكانتها ضمن عناصر الاستمرارية في بنية المجتمع، ومقارنتها مع الأشكال الأخرى الموجودة داخل المجتمع في الأوقات العادية.

ومن جهة أخرى، فإن المؤرخ هو الأكثر قدرة على قياس تأثير أشكال التآزر على المجتمع، وتحديد مستوياتها انطلاقا من المقارنة مع الأشكال التي

كانت تتم خلال مراحل زمنية سابقة. وعلى هذا الأساس، يمكن الوقوف على ثلاث مستويات أساسية في النسق التضامني بالمغرب.

- المستوى الأول: السلوك التضامني الفردي

أثرت الأزمات والكوارث الطبيعية كثيرا في سلوك الإنسان المغربي عبر التاريخ، مما جعله يطور أساليب مواجهتها حسب ما توفر لديه من إمكانيات، ورغم أن الجيل الذي يعيش أزمة كورونا الحالية، أبعد ما يكون عن آخر الأزمات التي عرفها المغرب في الثلاثينات والأربعينات من القرن 20، إلا أن سلوكه التضامني اتسم بنفس المميزات التي طبعت السلوك التضامني الفردي في المغرب خلال فترات مختلفة. ولم تفلح التطورات المتسارعة في النيل من بعض الآليات التوقعية للأزمات، مثل آلية الادخار.¹ خصوصا في ظل النظام الاقتصادي المغربي الذي يتميز بعدم الاستقرار وقلة الفرص واتساع شريحة الفقراء، مما يولد لدى باقي الفئات خوفا فطريا من أزمة توقع حدوثها في أية لحظة رغم أنها قد لا تعرف ماهيتها. وإذا كان التضامن بين الأفراد ليس

¹ - تحدث عن هذه الآلية الهادي بياض، وأكد على تجذرها في المجتمع المغربي من خلال تقنيات تخزين المحاصيل الزراعية في السنوات الفلاحية الجيدة، انظر الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 - 8 هـ / ق 12 - 14 م)، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2008، ص 195

بالسلوك الغريب عن المجتمع المغربي، فإن أزمة كورونا سجلت العودة القوية والنشاط البارز لمنظومة التأزر الاجتماعي بين أفراد المجتمع بغض النظر عما تقدمه الدولة. وبالعودة إلى محددات السلوك التضامني الفردي فس نجد المحدد الديني بالدرجة الأولى،¹ ثم الروابط العائلية والقبلية، ثم الروابط الإنسانية التي تجعل سلوك التضامن يتجاوز الدين أو الارتباط العائلي.²

إن أية محاولة لفهم السلوك التضامني بين أفراد المجتمع في أزمة كورونا، لا يمكن أن تتم بمعزل عن المعطى التاريخي الذي سيقدم للمتخصص في علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد...، مساحات إضافية ومداخل أكثر أهمية لفهم هذا السلوك.³ لأنه جزء من بنية ممتدة في الزمن امتدادا عميقا، فالدين كان دائما محركات للتضامن بين الأفراد، والأمر هنا لا يقتصر على الإسلام فقط، إذ أن السلوك التضامني في المغرب تاريخيا كان يحركه أيضا الدين اليهودي على مستوى المجموعات اليهودية.⁴ وإذا كان السلوك التضامني

¹ - جاء في سورة البقرة: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الآية، 280)

² - تجسده المساعدات والتبرعات التي يقدمها الأفراد الميسورون لأفراد آخرين لا يعرفونهم، عبر وساطة جمعيات أو أفراد آخرين يتولون توزيع هذه المساعدات على المحتاجين.

³ - استند إميل دوركايم على العودة لدراسة المجتمعات البدائية لتتبع مسار التغيير الذي وصلت إليه المجتمعات الحديثة، انظر: زكرياء الإبراهيمي، إميل دوركايم والتأسيس السوسيولوجي للحدثة، موقع مؤمنون بلا حدود، 29 شتنبر 2016، ص 06

⁴ - كانت الطوائف اليهودية تتوفر على ما يعرف بصناديق الأعمال الخيرية التي تقدم المساعدات للفقراء في أوقات الأزمة، انظر: حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود،

بين الأفراد في أوروبا يرتبط غالبا بأوقات الأزمة، فإن هذا السلوك في المجتمع المغربي لم يكن يرتبط بأزمة معينة، بقدر ما كان سلوكا دائما يكرس ربط التضامن الاجتماعي مباشرة بالثواب الإلهي، ويمتد تأثير الدين على السلوك التضامني للفرد، إلى حد إضفاء مسألة الأبدية على ذلك السلوك وجعله متجاوزا لحياة الفرد إلى ما بعد وفاته، ويمثل تخصيص الأملاك للعمل الخيري بموجب "الوقف" أسى تجليات السلوك التضامني لدى الأفراد.¹ لذلك، تحول التضامن بين الأفراد إلى نسق يشغل بشكل تلقائي ودائم مع تسجيل حيوية كبيرة في أوقات الازمات، بشكل حوله إلى عنصر من عناصر استمرارية بنية قديمة ممتدة في المجتمع المغربي إلى اليوم.

على مستوى آخر، فإن الرابط العائلي من بين العوامل المتحكمة في السلوك التضامني خلال أزمة كورونا الحالية، وإذا كان مفهوم الأسرة والعائلة

تاريخ، ثقافة، دين. ترجمة أحمد شحلان، الطبعة الأولى، طبع المترجم، الدار البيضاء، 1987، ص 133

¹ - كان بعض الناس يوصون بتخصيص مداخيل جزء من ممتلكاتهم لتوزيع الإعانات على الفقراء بشكل أسبوعي، ومن الأمثلة على ذلك عادة "خبز الخميس" التي كانت معروفة في تطوان، حيث كان يتم بموجبها توزيع كمية من الخبز على الفقراء من طرف المحسنين كل خميس. انظر: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992، ص 355

في القرن 16 مثلاً يختلف عن نظيره في القرن 21 بفعل تأثيره بتطور نمط العيش، وتقليص مساحة العائلة الكبيرة المتشابكة القريبة جغرافياً والقائمة على المشترك حتى في أدق مظاهر الحياة مثل الأكل والنوم وغير ذلك. فإن مفهوم العائلة في الأزمة الحالية سرعان ما يتوسع ليتخذ شكله التقليدي بسبب الآليات التضامنية التي تمتد لتشمل أفراداً أبعد داخل العائلة الواحدة، فيما وصفه أحمد التوفيق بـ "التضامن القرابي"¹. وهذا ما يحيلنا على السلوك التضامني الذي يطبع الفرد داخل القبيلة، عبر اعتماده لآليات من قبيل "التوزيع" وغيرها خلال أوقات الأزمة.² ومرة أخرى، فالمدخل التاريخي لا بد منه لتفسير استمرار دينامية النسق التضامني على مستوى الأفراد خلال أزمة كورونا، طالما أن الأمر جزء من بنية مجتمعية ثابتة وليس سلوكاً طارئاً على المجتمع المغربي، يمكن اجتزاؤه وإخضاعه لزاوية تحليل أحادية من طرف علم الاجتماع أو علم النفس على سبيل المثال.

¹ - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتان 1850 - 1912)، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 63، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2011، ص 382

² - المريني العياشي، النضال الجبلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية والنظام الاقتصادي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع الشمال، طنجة، 1988، ص 120

- المستوى الثاني: السلوك التضامني للدولة

أخذت الدولة المغربية على عاتقها مسؤولية دعم الفئات الأكثر تضررا من جائحة كورونا، خصوصا وأن فئات عديدة اضطرت للتوقف عن العمل، وإذا كانت الدولة المغربية العصرية لها من الآليات ما يمكنها من تحديد الفئات المستهدفة بالدعم على وجه أدق، فإن المقاربة التاريخية تحيلنا على الحضور الدائم للدولة على مستوى دعم الفئات الهشة، ولعل المقارنة بين أشكال الدعم التي كانت تقدمها الدولة الموحدية على سبيل المثال في فترات المجاعات والأوبئة،¹ وبين أشكال الدعم الحالية، ستكشف لنا عن سلوك مؤسساتي يمتد لقرون في المغرب، وهو سلوك نابع من حرص السلاطين على التقيد بتعاليم الإسلام التي تحث على الإحسان،² ومن ضرورة تكريس الدولة لصورتها كحامية وضامنة لاستقرار ومعيشة المواطن خلال الأزمات، ولا يرتبط هذا

¹ - بسبب العدد الكبير للفقراء المحتاجين للدعم في الأزمة الغذائية التي عصفت بالدولة الموحدية سنة 1171، عمد الخليفة عبد المومن الموحي إلى "وضع معايير لانتقاء البؤساء، بحيث لم يكن هؤلاء يتوقعون التفاتة رسمية من هذا القبيل". انظر: الهادي البياض، الكوارث الطبيعية، مرجع سابق، ص 254. كما أمر السلطان الحسن الأول بتوزيع الصدقات على الناس في مجاعة 1878. انظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء التاسع، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، ص 165

² - محمد الأمين البراز، الأوبئة والمجاعات في المغرب، مرجع سابق، ص 370

الدور فقط بتطور مس الأدوار المنوطة بالدولة، أو أن تقديم الدعم خلال الأزمات مرتبط بالدولة العصرية، بل إن ما تقوم به الدولة حاليا هو ما كانت تقوم به دولة الموحدين، ثم دولة المخزن منذ ظهورها إلى حدود مرحلة الحماية، وهو ما وصفه محمد الأمين البزاز بـ "الدور الاجتماعي للمخزن".¹

إن التطور الذي عرفته الرأسمالية كنظام اقتصادي، وما ارتبط بها من ضعف حضور البعد الاجتماعي والاهتمام بالفئات الضعيفة في نسقها الإنتاجي والاستهلاكي،² لم يمنع من ممارسة الدولة لدورها الاجتماعي، خصوصا وأن حرص الدولة على استقرار المجتمع هو من حرصها على وجودها كجهاز ونسق للحكم، والتاريخ حافل بالآزمات الاجتماعية والانتفاضات التي رافقت بعض المجاعات التي عرفها المغرب، والتي كانت توجه شحنة السخط في نهاية المطاف نحو الدولة، طالما أن الفئات الهشة تعتبرها المسؤول الرئيسي عن آزماتها.³

¹ - نفس المرجع، ص 361

² - فرناند بروديل، ديناميكية الرأسمالية، ترجمة: شفيق محسن، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا، 2008، ص 51

³ - قام الفقراء بعد طاعون سنة 1603 بمهاجمة حقول السكر التي يشرف عليها المخزن في سوس، انظر:

- Bernard ROSENBERGER et Hamid TRIKI. - Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles, Hespéris-Tamuda, Vol. XV. Fasc. Unique, 1974, p 64

وهذا ما يؤكد على أن المدخل التاريخي مهم جدا لفهم سلوك الدولة، خاصة عندما يتسم التعاقد بينها وبين المواطنين بالهشاشة وانعدام الثقة في بعض المحطات، وهذا ما نجده على الخصوص في الدول العصرية التي لا تزال محتفظة ببعض عناصر البنية التقليدية التي تأبى الاشتغال وفق منطق التعاقد المكرس للحقوق والواجبات. والمؤرخ في هذه الحالة، مؤهل لتقديم تفسيرات لسلوك الدولة التضامني انطلاقا من المدخل التاريخي.

المستوى الثالث: السلوك التضامني للمؤسسات الغير الرسمية

إذا كان الدور التضامني للدولة والأفراد قد أظهر فعاليته الكبير في التخفيف من آثار الأزمة في المجتمع المغربي، فإن أزمة كورونا أظهرت عنصرا آخر لا يقل فعالية عن دور الدولة والأفراد، والمتمثلة في جمعيات المجتمع المدني التي لعبت لجمع وتوزيع المساعدات التضامنية، وهذه الآلية تعد بمثابة جسر للدعم يصل بين الدولة وأفراد المجتمع المستهدفين من جهة، ووسيطا بين أفراد لديهم الإمكانيات لتقديم المساعدة والفئات المحتاجة من جهة أخرى. وانطلاقا من كون جمعيات المجتمع المدني أكثر قربا من السكان طالما أنها تتشكل منهم في الأحياء والتجمعات السكانية في المدن والبادي.

رغم أن مفهوم المجتمع المدني هو مفهوم عصري،¹ لكنه يمثل لنا آلية من آليات تنشيط النسق التضامني خلال الأزمات، ولابد من التأكيد على أن المجتمع والدولة كلاهما كان محتاجا خلال أوقات الأزمات لمثل هذه الآليات التي تساعد على التخفيف من انعكاساتها السلبية على الناس، إلى درجة أن الدور المحوري للمجتمع المدني جعلت مايكل إدواردز يصفه بـ "الفكرة العظيمة".² وإذا كانت أوروبا لم تعرف في الفترات التاريخية السابقة وجود آليات للوساطة بين الدولة والمجتمع فيما يتعلق بالجانب التضامني، فإن المغرب كان دائما يتوفر على هذه الآليات، وعلى رأسها مؤسسة الزوايا باعتبارها مؤسسات غير رسمية، لكنها كانت تضطلع بشكل مستمر بمهام أساسية داخل النسق التضامني، سواء عبر إيواء عابري السبيل وتزويدهم بالمؤونة، أو توزيع الإعانات خلال أوقات الأزمات كالمجاعات والأوبئة وغيرها.³ إذ أن الزوايا كانت تتوفر بحكم مكانتها في المجتمع، على رصيد مهم من الأراضي الفلاحية ومخازن

¹ - حول تطور مفهوم المجتمع المدني، انظر: محمد يحيى حسني، مفهوم المجتمع المدني لدى أنطونيو جرامشي من خلال كراسات السجن من التثوير إلى الحيد، الطبعة الأولى، منشورات المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2017، ص 04

² - مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، ترجمة: عبد القادر شاهين، الطبعة الأولى، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2015، ص 11

³ - محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، 2011، ص 266

الأقوات وغير ذلك، مما كان يتيح لها أدوارا مهما في النسق التضامني، كما أن استفادات بشكل كبير عبر رمزيتهما في المجتمع، من آليات تفويت الأملاك بصيغة الوقف من طرف الأشخاص الذين كانوا يرون في هذه العملية زيادة في الثواب الدنيوي والأخروي، وهو ما جعلها تتوفر على الإمكانيات اللازمة للقيام بدورها التضامني خلال الأزمات.¹

ورغم أن الزوايا هي مؤسسات دينية إسلامية المرجعية، وتختلف عن بعضها على المستوى الطقوسي، إلا أن ذلك لم يمنعها من تبني سلوك تضامني لا يميز بين المنتمين إليها والمنتمين إلى زوايا أخرى أو بين المسلم وغير المسلم، بدليل استفادة اليهود المغاربة على سبيل المثال مما كانت تتيحه الزوايا من مساعدات خلال أوقات الأزمات التي عرفها المغرب.²

إن الآليات الثلاث المذكورة التي تشكل أسس النسق التضامني الذي ظهر خلال أزمة كورونا الحالية بالمغرب، ساهمت بشكل كبير في التخفيف من انعكاساتها على شرائح واسعة في المجتمع، والتحليل السليم لهذه الآليات ينبغي أن يتم عبر وضعها في سياقها التاريخي لإبراز انتمائها لبنية قائمة ممتدة في

¹ - نفس المرجع، ص 270

² - محمد الأمين البراز، الأوبئة والمجاعات، مرجع سابق، ص 356

الزمن، حافظت على جوهرها رغم التغيرات الشكلية الكبيرة التي أصبحت تعرفها الآليات التضامنية، ورغم مؤسسة أشكال التضامن الرسمي على طول السنة (مؤسسة محمد الخامس للتضامن مثلاً)، إلا أن السلوك التضامني يبقى في جميع الأحوال جزءاً من بنية المجتمع المغربي، والذي يظهر بشكل أكثر نشاطاً خلال الأزمات.

ظاهرياً، قد يبدو بأن المؤرخ بعيد عن تحليل الحدث الآني وتفاعلاته، وأن ذلك القلق المنهجي المتمثل في ضرورة أخذ المسافة الزمنية الكافية مع الحدث، قد يضعه في موقع الانتظار والترقب لما ستؤول إليه الأحداث وما سيظهر من معطيات تساعد على تكوين صورة واضحة يبني عليها تحليلاته وتفسيراته، وإذا كان التقيد بالمنهج والاحتكام إليه هو ما يميز وجهة النظر الأكاديمية للمؤرخ عن غيرها. فإن هذا الموقع الذي يضع فيه المؤرخ نفسه، في الوقت الذي يتفاعل فيه متخصصون في مجالات أخرى مع التطورات الآنية للحدث ويقومون بتفسيرها والتعليق عليها، قد يقوض أحد أدواره الأساسية المتمثلة في تفسير الحاضر بالماضي. خصوصاً وأن مسألة ثبات البنيات واستمرارها في الزمن، محدد أساسي لرصد مدى تطور المجتمعات، ومن شأن

الحديث مثلاً عن السلوك التضامني خلال الأزمة الحالية دون ربطه ببنية سائدة، أن ينزع عن المجتمع أحد أهم خصوصياته التي ارتبطت به وتشكل جزءاً من ثقافته، ويحولها إلى ردود فعل مستحدثة مع أزمة عالمية جديدة، في الوقت الذي يمكن للمؤرخ - بشكل حصري - أن يثبت بأن السلوك التضامني في المغرب، يدخل في حكم ثبات الخاصية في البنية مع تجدد آليات تفعيلها في الزمن، وهو ما يجعل رؤية المؤرخ مكلمة لرؤى باقي المتخصصين في المجالات الأخرى، فيما وصفه لوسيان فيفر بـ "كسر عقلية الاختصاص وإطلاق مبدأ تعددية الأنظمة المعرفية (Pluridisciplinarité) والدعوة إلى اتحاد العلوم الإنسانية والاجتماعية"¹.

كما أن التعليق على الحدث الآني يبرز الزوايا التي يمكن للمؤرخ أن يتفاعل انطلاقاً منها مع الحدث، ويساهم في فهم بعض تطورات بناء على التجارب السابقة التي عرفها التاريخ، فهو الأقدر على ضبط السياقات التاريخية أكثر من غيره. وهذا ما لا يمنع من جعل خلاصاته الآنية مفتوحة على ما يلحق بالحدث من تطورات لاحقاً، وإذا كان المتخصصون في بعض الحقول

¹ - وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اتجاهات، مدارس، مناهج، الطبعة الثالثة، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2015، ص 208

المعرفية الأخرى، قادرون على صياغة خلاصاتهم النهائية في مرحلة التفاعل الآتي، فالمؤرخ ربما من بين الفاعلين القلائل الذين لا يستطيعون الوصول إلى خلاصات نهائية سواء خلال الحدث أو بعده، طالما أن حقل التاريخ هو حقل المفاجآت بامتياز، وطالما أن نقيشة صغيرة في سفح جبل قد تغير قناعة ظلت ثابتة لدى المؤرخين لمئات السنين.

تأسيساً على ما سبق، فإن فهم السلوك التضامني الذي برز خلال أزمة كورونا الحالية بمستوياته الثلاث المتمثلة في الدولة، الأفراد والمؤسسات الوسيطة، قد يجعل المؤرخ متصدراً لقائمة المتدخلين الذين يجب عليهم تقديم التفسير التاريخي لسيروية نسق تضامني تجذر في المجتمع لقرون طويلة، إلى درجة لم تفلح معها كل التطورات التي عرفتها الأنماط الاستهلاكية والنظم الاقتصادية المتطورة والتحولات المجتمعية الأخرى، في نزع خصوصياته المحلية المستمدة من الدين والروابط الاجتماعية والخوف على قوة ومركزية الدولة خلال الأزمات.

بيبليوغرافيا:

- الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6 - 8 هـ / ق 12 - 14 م)، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2008.
- زكرياء الإبراهيمي، إميل دوركايم والتأسيس السوسيولوجي للحدثة، موقع مؤمنون بلا حدود، 29 شتنبر 2016.
- حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود، تاريخ، ثقافة، دين. ترجمة أحمد شحلان، الطبعة الأولى، طبع المترجم، الدار البيضاء، 1987.
- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1992.
- أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن 19 (إينولتان 1850 - 1912)، الطبعة الأولى، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 63، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2011.
- المريني العياشي، النضال الجبلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية والنظام الاقتصادي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع الشمال، طنجة، 1988.



المؤرخ وجائحة "كوفيد 19": ملاحظات أولية

محمد مزيان

جامعة ابن طفيل، القنيطرة



مقدمة:

أثارت سرعة انتشار جائحة كورونا "كوفيد 19" في أرجاء المعمور خلال ظرف وجيز اندهاش ومخاوف الجميع، وأظهرت عيوب المنظومة الصحية العالمية وضعف استعداد العالم لمثل هذه الجوائح. إذ ظهر أن العالم في مهب الريح خاصة أمام هذا الخطر القادم من الشرق، مع العلم أن تأثيرات هذه الجائحة بدأت تظهر للعيان وبدأ أنها امتدت إلى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وكذا على مستوى العلاقات بين الدول.

أبرزت الجائحة كذلك أهمية المعرفة وقدرتها على إعادة تركيب وصياغة واقع مغاير. فالظرفية التي يعيشها العالم اليوم تعتبر ظرفية استثنائية بعدة مقاييس وتقع خارج الزمن الاعتيادي لهذا أصبح التاريخ مدخلا ضروريا لفهم الجائحة في تاريخيتها واستيعاب التدابير المتخذة لمواجهةها. فأمام حجم التغيرات التي أحدثها فيروس "كوفيد19" انطلقت موجة من التفكير الجماعي والفردى ومن تخصصات معرفية مختلفة، فتناسلت الندوات والملتقيات الافتراضية وظهرت كتابات عديدة لاستجلاء أصل الجائحة وتداعياتها السوسيو اقتصادية، وأشكال التعامل المجتمعي والعلائقي وتفكيك إشكالية الحياة التي

ظهر أنها ازدادت تعقيدا، وبدأ الإنسان يتجه نحو الانعزال أكثر من الاجتماع والانفتاح على الآخر¹. ووضعت قضايا التنمية والبيئية والمواطنة العالمية موضع تساؤلات، كما طرحت مسألة ترتيب العلاقات بين العلوم الاجتماعية والإنسانية والمعارف الحقة في زمن الكورونا الذي أصبح موضوعا للتفكير، ووضعت التاريخ والمؤرخ موضع مساءلة حول ما يمكن أن يقدمه ويسهم به في موضوع متشعب ومتعدد المشارب.

وفق هذا السياق تهدف هذه الورقة إلى إبراز أهمية التاريخ ودور المؤرخ وكيف يمكن للتاريخ كسيرورة أن يساهم في فهم الجائحة ككارثة عالمية كشفت عن هشاشة الوضع الصحي، ذلك أن إلقاء نظرة على تاريخ الأوبئة التي عصفت بالعالم وبالمجال المتوسطي وبالمغرب بشكل خاص وخلفت مآسي كارثية، وأبرزت تفاعل معها الإنسان وفق ما توفر لديه من إمكانيات علمية وعملية، اختلفت من مجال إلى آخر وفق البنية الفكرية التي يتحرك داخلها.

¹ - ينظر في هذا الصدد الكتاب الجماعي الذي أصدرته جامعة ابن طفيل تحت عنوان، الحياة في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟ تحت إشراف جمال الكركوري وأحمد الفرحان، (الرباط نت، يونيو 2020). ضم هذا العمل أبحاث من تخصصات مختلفة وباللغتين العربية والفرنسية بلغت 29 مقال بالإضافة إلى عدد من الملاحق ذات الصلة بالموضوع، أجمعت على مقارنة الجائحة برؤية علمية رصينة وأبرزت الهواجس العلمية للباحثين، بغية فهم الحاضر وتوثيقه وتقديم مادة علمية لتصبح مرجعا وتساهم في التوثيق لهذه الجائحة.

أولاً: الإنتاج التاريخي حول الأوبئة بالمغرب: رصد أولي.

إن الحديث عن تاريخ الجوائح هو حديث عن تاريخ متجدد يحدد علاقة المجتمع بذاكرته الجماعية وبخريطته الباتولوجية، وظروف انتاج وتداول المعرفة، والنظر إلى التاريخ بوصفه سيرورة اجتماعية تاريخية، ومعرفة كذلك بتلك السيرورة. لهذا لاحظنا إبان انطلاق جائحة "كوفيد 19"، واتخاذ السلطات الوصية لمجموعة من التدابير المندرجة ضمن سياسة الطوارئ الصحية والحجر الصحي، الإقبال المتزايد على الأبحاث التاريخية حول موضوع الوباء وتمت استضافة عدد من المؤرخين لتنشيط ندوات افتراضية، كما أنجزت العديد من الصحف الوطنية ملفات هاجسها النهل من دروس الماضي الوبائي واستجلاء طريقة تعامل المخزن والساكنة مع الوضع الصحي المتردي، ومحاولة المقارنة بين ما وقع في الماضي وما يجري اليوم.

لهذا يسمح تتبع ما أنتج حول تاريخ الوباء بالمغرب بالوقوف على التداخل بين تخصصات مختلفة ومتنوعة، تتقاطع فيها السردية التاريخية بالأبحاث المخبرية والبيولوجية والإحصاء والاقتصاد والسيكولوجيا، زيادة على رسم الخريطة الوبائية للمغرب وفهم التمثلات وبروز القيم التضامنية وقت الأزمات.

والواقع أن كثرة الأوبئة والمجاعات التي عرّكت المغرب قد وفرت أمام الباحثين مجالات للدراسة والبحث، فظهرت إخباريات وسرديات عديدة، تناولت الوباء في مأساويته، أو في كونه شكل حدثا مفصليا في مرحلة تاريخية معينة. وبالاطلاع على ما أنتج في موضوع الأوبئة من دراسات تاريخية،¹ غالبا ما قدمت هذه المصادر، السردية في الغالب، تقييمات سريعة؛ باعتمادها على معطيات وأرقام غير مضبوطة، كما لجأت إلى ما توفر لديها من وثائق نوازلية أو عدلية أو فقهية. نقول إن المؤرخين المغاربة قد حققوا بعض التراكم المعرفي في هذا الباب، إذ تمخضت مجهوداتهم عن بروز أبحاث تناولت موضوع الجوائح والمجاعات بالمغرب وغطت مراحل مختلفة من تاريخ المغرب من ذلك مثلا

¹ - لايسمح الوقت بالإحاطة بجميع ما أنتج في ميدان الأوبئة والمجاعات التي ضربت المغرب في مختلف فتراته، فهناك العديد منها مازال مخطوطا، كما أن هناك إشارات مهمة متفرقة في المصادر مثل حسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، وكتابات الناصري في الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى؛ والمختار السوسي في المعسول، وابن زيدان في الاتحاف، كما أن هناك معلومات قيمة تتضمنها النوازل الفقهية والإجازات الطبية والمواقف من المرض، مثل ما ألفه الحضيكي والفقيه محمد الرهوني وعلي بن عبد الله بن محمد بن هيدور (المتوفي سنة 816هـ/1413م)، "المقالة الحكيمة في الأمراض الوبائية". والعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي، (ت سنة 1313 هـ/1895م)، له تأليف سماه، "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين". وسنكتفي بالإشارة إلى ما ألفه بعض الباحثين المعاصرين حول الوباء وطرق التطبيب وتوظيف سلطات الحماية للتطبيب كآلية من آليات الاختراق السلمي.

كتابات كل من محمد الأمين البزاز¹، والحسين بولقطيب²، وعبد الهادي بياض³، وأحمد المكاوي⁴، وبوجمعة رويان⁵.

بالإضافة إلى بعض الدراسات باللغة الفرنسية المهمة بتاريخ الأوبئة والمجاعات مثل: العمل الذي قدمه برنارد روزنبرجي وحميد تريكي بعنوان المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرن 16 و17⁶.

علاوة على العديد من المؤلفات التي أنجزت خلال سنوات الحماية الفرنسية على المغرب والتي أنجزها أطباء وباحثون مثل الدراسات والأبحاث

¹- محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية (الرباط 1992).

²- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن (2002).

³- عبد الهادي بياض، الكوارث الطبيعية وأثرها سلوكيات وذهنيات الإنسان المغرب والأندلس، دار الطليعة، (بيروت 2011)

⁴- أحمد المكاوي، الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب، (منشورات الزمن، 2009)

⁵- بوجمعة رويان، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، (الرباط نت، 2013).

⁶ - Bernard Rosenberger et Hamid Triki. "Famines et épidémies au X Maroc aux XVI" et XVII" siècles, *Hesperis Tamuda*, Vol. XIV. 1973 - Fasc. Unique pp 109-175 ; et Vol. XV. - Fasc. unique 1974 pp 5-104

تمت ترجمة هذا العمل من طرف عبد الرحيم حزل، تحت عنوان: المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال القرنين 16 و17، منشورات (جذور للنشر، 2007)؛ وهناك طبعة أخرى عن منشورات دار الأمان، (الرباط 2010).

التي قام بها الدكتور هنري بول جوزيف رونو، (Renaud, Dr H.P.J)¹.

كان الهدف من الأبحاث التي قام بها "رونو" هو الوقوف على الوضعية الوبائية بالمغرب وإبراز ما عاشه هذا البلد من مآسي وأوبئة، لتبرير احتلاله ومن تم توظيف الطبابة كآلية للتسرب السلمي، وهو ما يبرز توظيف المعرفة في تسهيل الاحتلال ويبرز أيضا العلاقة الملتبسة والمتفاعلة بين الطب والتوغل الاستعماري وهي علاقة لم تكن وليدة التجربة الاستعمارية الفرنسية بالمغرب، بل غالبا ما كانت العلاقة بينهما تعبر في كثير من الأحيان على المنحى التصاعدي للحركة الاستعمارية في مختلف مناطق العالم وكذا عن تطور الطب، فقد وُظف الطب الاستعماري للمساعدة في إرساء سلطان القوى الاستعمارية في إفريقيا وآسيا والأمريكيتين، إذ ردد المارشال ليوطي بأن الطبيب يضفي النبل

¹ - نذكر منها على سبيل الذكر

Renaud, Dr H.P.J, "Recherches historiques sur les épidémies au Maroc la peste de 1799", **Hesperis**, 1921, T.I, 2ème trimestre, pp. 160-182.

-Renaud, Dr H.P.J, "La peste de 1818 au Maroc ", **Hesperis**, 1923, T. III, 1er trimestre, pp. 13-36

-Renaud, Dr H.P.J, "Un nouveau document marocain sur la peste de 1799 ", **Hesperis**, 1925, T. V, 1er trimestre, pp. 83-90.

- Renaud, Dr H.P.J, "Recherches historiques sur les épidémies du Maroc IV., les pestes du milieu du XVIIIème siècle", **Hesperis**, 1939, T. XXVI, 4ème trimestre, pp. 293-320

على الاستعمارويبرره،¹ ويشير الباحث بوجمعة رويان في قراءته لكتاب "هنري بول جوزيف رونو"،² والصادر عن مصالح الصحة العمومية بالمغرب سنة 1922، على أنه وفي الوقت الذي كان فيه الأطباء يجوسون عبر مناطق المغرب لتمشيط الساحة أمام الجيوش الفرنسية وهي تتوغل في دكالة والشاوية وزعير، تغافل "رونو" عن دور تلك الجيوش في المساهمة في نشر الوباء بهذه الدرجة أو تلك. وفي الوقت ذاته كذلك، كانت الدبلوماسية الفرنسية نشيطة في كسب جولاتها في المفاوضات مع السلطان والاستعداد لبدء المفاوضات مع ألمانيا في سنة 1911، وهي سنة طاعون مخيف.³

والبين أن اهتمام المؤرخين المغاربة بتاريخ الوباء تنازعه منهجان مختلفان، هما المنهج الوضعي الذي اعتمد على الحدث بشكل منفصل في مدة زمنية قصيرة كما تحدد دور المؤرخ في كشف الماضي، اكتشاف الحقيقة، أو التقرب منها على الأقل. وفي وجهة النظر هذه، ليست القوة إشكالية، ولا صلة

¹ - دافيد أرنولد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت 1998، ص 15

² - H.P. Renaud, *La peste au Maroc. Etude d'épidémiologie et de géographie médicale*, Rabat, 1922

³ - بوجمعة رويان، "علم الأوبئة والجغرافية الطبية في المغرب" على الرابط <https://ribatalkoutoub.com/?p=3205> تاريخ الاطلاع 2020-6-24

لها ببناء السرد بما هو كذلك. والتاريخ في أفضل الأحوال، هو حكاية عن القوة، حكاية عن أولئك الذين انتصروا. الأطروحة التي مفادها أن التاريخ شكل من أشكال القص أو التخيل قديمة قدم التاريخ نفسه، وإن اختلفت الحجج المستخدمة في الدفاع عنها أشد الاختلاف.¹ وتندرج في هذا الصدد كتابات الإخباريين المغاربة أو كتابات الفقهاء والإجازات الطبية، في حين عرف البحث التاريخي الحديث ظهور أعمال تناولت مسألة الأوبئة تساوقا مع تطور مناهج الكتابة التاريخية التي بشرت بها مدرسة الحوليات، وهو الممثل في الاتجاه الثاني المؤمن بضرورة الانفتاح على تاريخ الإنسان العادي والاقتصاد والمجتمع والعقليات والديموغرافيا والجغرافيا التاريخية وعلى حقول معرفية أخرى. ومن ثم التأريخ للجوائح في عموميتها وفي سيرورتها وتداعياتها، عوض الاكتفاء برصد الظاهرة. لكن هذا الاتجاه يصطدم بعدة عوائق منها عائق الرصيد الوثائقي، أي عدم وجود محفوظات، ووثائق، باستثناء المصادر الأجنبية، وخاصة الأوروبية، لهذا لجأ أصحاب هذا الاتجاه إلى تنويع الوثائق وتوسيع دائرتها لتشمل كل مخلفات الإنسان، فتنوعت بالضرورة مواضيع البحث

¹ - ميشيل رولف ترويو، "القوة في الحكاية"، ترجمة ثائر ديب، مجلة أسطور، العدد 9، يناير 2019، صص 161-182

والغوص في التواريخ الاجتماعية والبنيات الاقتصادية والذهنيات وتاريخ الأوبئة والكوارث الطبيعية والمناخ، إلى غير ذلك من المواضيع المرتبطة بتطور المناهج التاريخية في الغرب وخاصة مع مدرسة الحوليات¹.

ويشير الباحث عبد الأحد السبتي إلى أن البحث التاريخي الجامعي حول الأوبئة حديث نسبياً، حداثة الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي وتاريخ الذهنيات وتاريخ الطب وغيرها من الفروع المعرفية الأخرى، وهو ما يترجمه عدد الأبحاث والدراسات المنشورة، وهي إما مقالات أو فصول في كتب زيادة على الأبحاث الأكاديمية غير منشورة التي تظل حبيسة الرفوف².

وهو ما نستشف منه أن المؤرخ المغربي لم يكن بمعزل عن التحولات المنهجية التي مست الكتابة التاريخية على الصعيد العالمي، فأقبل على إنتاج معرفة تاريخية تتماهي مع المناهج الجديدة وفق رؤية تنضبط للواقع وللظروف المحيطة بإنتاج المعرفة التاريخية والفاعلين فيها وآليات إنتاجها. وفي هذا

¹- للتعقق أكثر في هذه الفكرة ينظر كتاب، محمد حبيدة، المدارس التاريخية برلين باريس استراسبورغ من المنهج إلى التناهج، (دار الأمان الرباط 2019)
²- Sebtti Abdelahad, «Epidémies et culture des calamités à propos de la longue expérience marocaine», **Actes de la session plénière solennelle**, de l'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, 2010. pp. 127 -132

الصدد يشير الباحث محمد حبيدة إلى تعدد الدراسات والأبحاث عن الأوبئة، خاصة عقب الإنفلونزا الإسبانية التي اجتاحت العالم 1918-1919. وكانت في البداية بقلم المختصين في العلوم البيولوجية والطبية، مثل البحث الذي أنجزه الطبيب الفرنسي "جون نويل بيرابن" الذي كتب عام 1979 مؤلفا مرجعيا عن تاريخ الأوبئة في البلدان الأوروبية والمتوسطة. زيادة على الكتاب الجماعي الصادر تحت عنوان "تاريخ الفكر الطبي في أوروبا في ثلاث مجلدات¹.

ثانيا: تزايد الطلب الاجتماعي على الدراسات التاريخية والمحاذير المنهجية.

1- الطلب الاجتماعي على التاريخ.

سبقت الإشارة إلى أنه مع تفشي جائحة "كوفيد 19" تزايد الإقبال على كتابات تاريخ الأوبئة وأدب الوباء، ونذكر على سبيل المثال "الطاعون" لألبير كامي (Albert Camus) و"الحب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارسيا ماركيز (Gabriel García Márquez)، وتمت قراءة رواية "عيون الظلام" من جديد "دين كونتز" (Dean Koontz)، و"العمى" لجوزيه ساراماغو (José de Sousa)

¹ - محمد حبيدة، "تاريخ الوباء من الطاعون الأسود إلى الكورونا" ضمن كتاب، الحياة في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟ (أشرف جمال الكركوري وأحمد الفرحان)، الرباط نت يونيو 2020) صص 14-23 ص 15

(Saramago). كما تم الرجوع بقوة إلى الكتابات التاريخية التي تناولت تاريخ الأوبئة للبحث عن العلاقة بين ما حدث وما يحدث ومحاولة سد الفراغات أو تجاوز الأخطاء السابقة أو المواقف الخاطئة. فما دلالات ذلك؟

يسمح لنا رصد أولي وتتبع لما أنتج خلال فترة الحجر الصحي، بالقول إن انخراط المؤرخ في النقاش المجتمعي حول الجوائح وتداعياتها والبحث عن نماذج لها في تاريخ العالم وتاريخ البحر المتوسط وتاريخ المغرب، تم باستحضار التفاعلات المجالية والأطر المكانية وتطوراتها البطيئة في الزمن، في مجالات جغرافية متباينة كالمجال المتوسطي والمجال الصحراوي ثم المغرب خلال القرن التاسع عشر واللحظة الاستعمارية¹، وتم الوقوف على أن تاريخ الوباء والجوائح والمسغبة التي عصفت بالمغرب لم تكن وليدة البيئة المحلية ولكن أغلبها كان قادما من الخارج، والأمثلة على ذلك كثيرة، فخلال الفترة القديمة، تأثر شمال أفريقيا بالكامل بأوبئة مختلفة مرتبطة بنزوح الجيوش في الحروب الإمبراطورية، ولا سيما وباء 430 قبل الميلاد، ووباء 125 عام قبل الميلاد، و"طاعون جستنيان" (552 قبل الميلاد)، وكان الطاعون العظيم في منتصف

¹ Sebtti Abdelahad, op.cit , p. 128

القرن الرابع عشر أكثر أمواج الطاعون فتكاً¹.

أما في الزمن الراهن فقد تفاعل عدد من الباحثين المغاربة مع انتشار وباء كورونا فأنجزوا مجموعة من المقالات، جعلت من التاريخ ميدانا خصبا لتذكير القراء بما عاشه المغرب وخارجه من أوبئة ومجاعات، لدرجة يمكن القول معها بوجود طفرة في المقالات وفي الملفات الصحفية حول الأمراض التي أنهكت المجتمع المغربي عبر التاريخ، على اعتبار أن الأوبئة غالبا ما شكلت حدثا مأساويا ولكن في الوقت نفسه يمكن أن تكون حدثا مفصليا في مرحلة تاريخية معينة، مثلما تمخض عن وباء الطاعون الأسود (1350-1348)، على المدى المتوسط والبعيد، من بروز حركة انعتاق وتحرر فكري أدت في النهاية الى انهيار النظام الاقطاعي، وتراجع سلطة الكنيسة، وبدأ التطلع إلى نظام اقتصادي واجتماعي جديد قائم على العقلانية، ولذلك يعتبر المؤرخون الطاعون الأسود بداية عصر النهضة الأوروبية.

وعليه، فقد تساءل عدد من الباحثين عن دور التاريخ، والحاجة إلى المؤرخ في مثل هذا الظرف الوبائي، وهل يمكن الحديث عن تحقيق تاريخي

¹ Ibidem

جديد اعتبارا لدور الأوبئة في سقوط وقيام الحضارات¹. ومنهم من رجع إلى كتابات عبد الرحمن بن زيدان والمختار السوسي ومحمد الأمين البزاز والأرشيف الفرنسي قبيل توقيع معاهدة الحماية وبعدها. وخصص الباحث عبد الواحد أكميز حلقات مصورة للحديث عن الجوائح وجدلية الدولة والحضارة وبؤس تاريخانية الوباء، إذ تحدث عن وجود علاقة سببية بين الجوائح والدول والحضارات، حيث أشار إلى أن الجوائح قد تضعف الدول أو تعجل بانهارها أو تكون سببا في تأسيس وقيام دول جديدة. أما الحضارة فهي تحاول المقاومة والصمود أو التكيف مع ظرفية الوباء من ذلك مثلا انتقالها إلى فضاءات جديدة خصبة لتنمو من جديد وفق شروط محددة. لهذا استعرض هذه العلاقة راجعا إلى أقدم الأوبئة مثل وباء التيفوس كأقدم وباء ضرب أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وأفنى ربع ساكنة أثينا وكان ذلك سببا في زوالها. وكان سببا في انبعاث دولة أخرى هي الإمبراطورية التي أسسها الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد. ليعرج بعد ذلك على أهم الأوبئة التي عصفت بالعالم القديم وما خلفته من هدر ديموغرافي أثر على مسار الأسر

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش، "هل يقرب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيب جديد للتاريخ؟" على الرابط <https://www.hespress.com/histoire/465665.html> تاريخ الاطلاع 2020-4-6

الحاكمة. كما يشير إلى ما ضرب الغرب الإسلامي وأروبا من الأوبئة خلال العصور الوسطى والحديثة، وظهور البورجوازية وضعف البوادي بسبب الوباء خاصة الطاعون، وتطور على مستوى الفكر والبنىات وتراجع المدارس الإسكولائية والتعليم الكنسي، وظهور الجامعات العصرية¹.

وذهب باحث آخر إلى القول بأن الأوبئة كانت سبباً في إعادة التفكير في العديد من الممارسات والمفاهيم والمواقف، فنشأت سلطة جديدة مثلها الأطباء بدل سلطة الكنسية، واستطاع الأطباء مكافحة وباء الكوليرا بطريقة مرتبطة بالبحث العلمي، فتغيرت الممارسات الصحية رأساً على عقب، وشكلت ثورة علمية مع لويس باستور² فيما أشار الباحث اجميلي إلى أهمية التاريخ الديموغرافي لدراسة وباء الطاعون الأسود رغم غياب الإحصائيات وعدم معرفة العدد الإجمالي للسكان، ويقرب بأن الدراسات التي أنجزت حول تاريخ المغرب لم تشر إلى تقدير عدد السكان، فقبل كتاب وصف إفريقيا للحسن

¹ ينظر، عبد الواحد أكيم، "الجوائح وجدلية الدولة والحضارة" على الرابط https://www.youtube.com/watch?v=33H4GzSwvNg&feature=youtu.be&fbclid=IwAR09KRWvElzYobPDRoq5taI9VLr7X1fjV_qOmW_nwPL5eYOWzbEhsiTrm82020-6-23 تاريخ الاطلاع

² - محمد حبيدة، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم الغد" على الرابط <https://www.hespress.com/histoire/465330.html> تاريخ الاطلاع، 4-2-

الوزان لا يوجد مصدر حاول الوقوف على تقدير عددهم¹.

وتفاعل عدد من الباحثين مع الحدث عن طريق إجراء حوارات صحفية² بهدف تقريب عموم القراء والمشاهدين من هذا الوضع وإبراز خطورته، والوقوف على الإجراءات الاحترازية المتبعة والبحث في متون التاريخ عن تجارب مماثلة، مثل الوقوف على الإنفلونزا الإسبانية 1918-1919 كوباء مأساوي خلف ملايين الضحايا وأبان عن الحاجة إلى اللقاحات، وظهرت باستمرار بعض الأسئلة في الأدبيات حول أصوله وتفشييه وعدد ضحاياه في بؤرها وعند تنقلها، والرد الاجتماعي على الجائحة³.

وانخرطت كذلك مجلة رباط الكتب في التعريف بتاريخ الأوبئة والمنجز حولها بإعدادها ملف حول كتابات الوباء وانجاز قراءات في كتب من مختلف الآفاق، تاريخية وفقهية وأدبية وطبية، وباللغات العربية والفرنسية والإنجليزية. وبغية إغناء النقاش الدائر حول الوباء وتوسيع دائرة الفهم. ولا

¹ - اجميلي حميد، "الطاعون الأسود" على الرابط

<https://www.hespress.com/writers/466474.html> تاريخ الاطلاع، 6-4-2020

² - ينظر على سبيل المثال لا الحصر الملف الذي أعدته جريدة أخبار اليوم عدد 3147، بتاريخ 23 مارس 2020؛ زيادة على الملف الذي أنجزته مجلة زمان عدد 79 ماي 2020.

³ - فريدريك فانيورون، الإنفلونزا الإسبانية عودة إلى وباء 1918-1919 "ترجمة حبيدة محمد، على الرابط <https://www.mominoun.com/articles> تاريخ الاطلاع، 16-4-2020

شك أن النقاش سوف يتسع في المستقبل ليشمل تاريخ واجتماعيات الأوبئة في الزمن الراهن، اعتبارا من أن الجائحة الحالية هي امتداد لجوائح الماضي، وهي تعبر في آن واحد عن تحولات نوعية تتصل بسياق العولمة¹.

وشكّل الجانب المنهجي ومساءلة درس التاريخ الاجتماعي بالجامعات المغربية مدخلا للورقة التي قدمها الباحث مصطفى نشاط، من خلال حديثه عن الحاجة إلى إعادة النظر في درس التاريخ الاجتماعي بالجامعة المغربية. واستثمار بعض الدروس من تاريخ الأوبئة والكوارث في أفق بناء طالب مواطن إيجابي. بينما تناول المحور الثالث تعليم الدرس التاريخي عن بعد بالجامعة المغربية زمن كورونا² ويقول إن: "الحاجة أصبحت ماسة إلى إعادة النظر في الدرس التاريخي بالجامعة المغربية، وذلك بإيلاء مزيد من الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي، ومن ضمنه تاريخ الأوبئة والكوارث الطبيعية التي بدونها قد لا نستوعب بعض الأسباب الحائلة دون حصول الإقلاع. وبمراعاة كيفية استقبال بعض المغاربة للوباء الحالي، تبدو الحاجة ماسة أيضا لتدريس

¹ أصدرت مجلة رباط الكتب ملفا بعنوان "الجائحة وما أدراك ما الجائحة"، من تنسيق الأستاذين عبد الأحد السبتي ومحمد حبيدة.

على الرابط <https://ribatalkoutoub.com/?p=3184>

² هل يعيد "كورونا" النظر في درس التاريخ الاجتماعي بالجامعات؟ على الرابط <https://www.hespress.com/orbites/474629.html> تاريخ الاطلاع 2020-6-25

تلاميذنا وطلابنا مجموعة من الصفحات المشرقة من تاريخنا، من أجل

التحسيس والمعرفة التاريخية وتغيير بعض المسلمات¹.

وهو ما يبرز ضرورة خروج التاريخ من دائرة التخصص الضيق والكتابة

للمشتغلين بهذا الحقل المعرفي وحدهم، والانفتاح على شبكة واسعة من

القراء.

2- الفهم كمدخل للكتابة التاريخية حول جائحة "كوفيد19"

يسمح استعراض هذه الحصيلة الأولية حول ما أنجز من دراسات ذات

الصلة بالمعرفة التاريخية زمن الحجر الصحي المطبق بالمغرب منذ 16 مارس

2020، بالوقوف على أهمية استحضار التاريخ، ذلك الحاضر/ الغائب في

ثقافتنا، وفق الباحث أبطوي، خاصة في ارتباطه بالمعارف العلمية والطبية.

رغم تعدد الدعوات في ثقافتنا الحديثة للاهتمام بالتاريخ والانتباه لتأثير الزمن،

فإن الوعي بفعل التاريخ لا يهيكل رؤيتنا للعالم وفهمنا لوجودنا في الزمن

المتحرك فقط بل يكفل لنا علاقة سوية مع الماضي². ويحتم علينا ذلك التنبيه

¹ - نفسه

² - محمد أبطوي، "دراسة الوباء وسبل التحرز منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي"، سلسلة دراسات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 22 يونيو

2020 ص 1

إلى الأهمية الكبيرة للبحث المتعدد الاختصاصات في التاريخ الوبائي؛ ليس لإرساء "تفسير طبي للتاريخ"، بل للحفر في أحد عوامل التراجع التاريخي الذي أَلَم بنا منذ القرن الخامس عشر، ولجمع المعطيات المفيدة في فهم الطاعون كمعضلة من معضلات الصحة العامة في الحاضر. أوبئة الماضي ليست موضوعا مهما للبحث الأكاديمي فحسب، بل تندرج في ترسانة الإجراءات المعتمدة لمواجهة سيناريو الكارثة المحتملة في المستقبل¹.

فالتاريخ وفق هذا المستوى هو أحد المعارف الاستراتيجية لاكتشاف الثوابت والحفاظ على الهوية وعلى ترسيخ القيم، كما يمكنه أن يكون فن القطاعات، فهو يعرف كيف يتلاعب بالنظام القسري للتسلسلات الزمنية وبالتالي كيف يكون مثيرا للحيرة وللدهشة. فهو يزعج الجينياتالوجيات ويثير قلق الهويات ويفتح فضاء زمنيا يستطيع من خلاله المستقبل أن يستعيد حقوقه الكاملة في الشك، وأن يرحب، بالتالي، بكل ما يسمح بتعقل الحاضر وبفهمه².

يسمح لنا درس التاريخ لزمن الأوبئة بالوقوف على أهمية الفهم في هذا

¹ - نفسه، ص 2

² - باتريك بوشرون، "ماذا يستطيع التاريخ؟ من أجل تأمين علمي جديد لنظام الحقيقة لمهنة التاريخ". ترجمة محمد مستعد، على الرابط

<https://ribatalkoutoub.com/?p=2402> تاريخ الاطلاع، 2018-7-2

الفرع المعرفي كمدخل لفهم هذا الواقع الوبائي، وكخطوة منهجية مقترنة بالتفسير ومرتبطة بالوثيقة أو الشاهدة وبعمل الذاكرة وبالتأويل، مع الإشارة إلى أن خطوة الفهم يمكن مقاربتها من زوايا متعددة، لكنها تُجمع على أهميتها وضرورتها لاستجلاء معالم الواقعة التاريخية. فالتاريخ يستمد وظيفته المجتمعية كما حددها الوثائق التربوية من مساهمته مع العلوم الاجتماعية الأخرى في تكوين إنسان يفهم مجتمعه، ويتموضع فيه حتى يصبح مشاركا وفاعلا فيه. كما يمدّه بالمعالم الأساسية لفهم العالم والتنظيم المعقلن للحاضر وتنمية الحس النقدي للمتعلم. وعليه يتضح الحضور المضمر والعلي لعملية الفهم في التاريخ وأهميتها في بناء التعلّمات، واتخاذ المواقف والأكثر من ذلك تكوين إنسان قادر على التحليل واكتساب الأدوات المنهجية لمساءلة التاريخ بفكر نقدي¹.

يقع الرهان إذن، على إشكالية فهم جائحة "كوفيد 19" وتداعياتها باعتبارها أحد المفاتيح الأساسية في تكوين شخصية القارئ والانتقال به من المتلقي السلبي للمعلومة إلى العامل لمناهج الشك والنقد البناء، لهذا يمكن

¹ - وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادتي التاريخ والجغرافيا بسلك التعليم الثانوي التأهيلي، الرباط 2007 ص 3

اعتبار الفهم التاريخي أحد الميكانيزمات المهمة لاستجلاء خصائص الماضي والحاضر، والعلاقات المتفاعلة بينهما، وعلاقة العلة والمعلول، ففهم الظواهر يقتضي إخضاعها لمناهج وأدوات ووسائل عمل من أجل تفكيك عناصرها وتقريب المعرفة التاريخية من المتعلم بشكل خاص وإلى العموم بشكل عام. لهذا لا يمكن للمؤرخ أن يظل بعيداً عن تنوير الرأي العام والمساهمة في النقاش الدائر حول الجائحة ومصدرها ومثيلاتها من الجوائح التي ضربت العالم في فترات مختلفة كما وضعنا أعلاه.

الشيء الذي يبرز وظيفة الفهم في التاريخ، بمعنى أننا نلجأ للتاريخ من أجل فهم الحاضر ثم بالحاضر لفهم الماضي، ومنه تتجلى إذا قدرة المعرفة التاريخية على تمثيل الماضي كشيء لم يوجد أبداً، فلا وجود للحاضر دون وجود للماضي، فمن الجلي القول إن التاريخ يكتب من الحاضر بفعل أسئلة يلقيها على الماضي مع ضرورة التزود بعدة نظرية ومنهجية ومعرفية تساعد على الحفر المنهجي والكتابة التاريخية، لهذا يدعو "ميشيل دوسيرتو" (De Certeau) إلى البحث عن الآثار التي خلفها الحدث معتبراً أنها تشكل معنى مفتوح دائماً، كما حدد الفعل التاريخي أو صنعة التاريخ في ثلاث عناصر هي إنتاج فضاء اجتماعي، واعتبار التاريخ ممارسة، أي أن المؤرخ هو سيد التقنيات عبرتوظيف الأرشيف

والمصادر وإعادة توزيعها وفق مساحة جديدة غالبا ما تحددها كتلة الوثائق والخيارات التي ينبغي عليه اتخاذها، وثالثا، جعل التاريخ كتابة بمعنى الوظيفة الرمزية لكتابة المؤرخين عن مجتمع ما¹.

لهذا تبرز تلك العلاقة الجدلية بين ضرورة الفهم الذي يغلف عمل المؤرخ في شموليته، مادام التاريخ مغامرة روحية تمنح فيها شخصية المؤرخ حرية التصرف. هكذا يكتسب التاريخ عند المؤرخ قيمة وجودية، ويكتسب من هذه القيمة الوجودية معناه وأهميته وقيمه. ويضيف، يشكل هذا التصور جوهر الفلسفة النقدية، والبؤرة التي يكتسي بها كل ما عداها النظام والوضوح، ولذلك يندمج الفهم بحقيقة التاريخ، فليس الفهم هو الجانب الذاتي والتفسير هو الجانب الموضوعي، تتألف الحقيقة المزدوجة للتاريخ من الحقيقة المنقولة عن الماضي، ومن الشهادة التي يقدمها المؤرخ². فليس لدى المؤرخ الطموح أن يقوم بـ "إعادة إحياء الماضي" وإنما ينشد بالتحديد إعادة بناء سلسلة تنطبق على الماضي، وهو ما يساعد على تحقيق الموضوعية

¹ François Dosse « Michel de Certeau et l'écriture de l'histoire » Dans *Vingtième Siècle*. Revue d'histoire 2003/2 (no 78), pages 145 - 156

² - بول ريكور، الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي، ج 1، ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة (بيروت 2006)، ص 158

التاريخية في نظريكور، إذ تتحقق هذه المهمة من خلال قيام المؤرخ ببناء السلاسل السببية للوقائع، ثم يقوم بتحليلها بهدف فهم مجموع الوقائع والروابط العضوية التي تتجاوزها كل سببية تحليلية.¹ وتتجلى أهمية فهم التاريخ في فهم الماضي والحاضر، فأحدهما مرتبط بالآخر ومرتبطة به ومتفاعل معه، وهو ما سماه جاك لوغوف بـ"الوظيفة الاجتماعية للتاريخ".²

من زاوية أخرى وعلى الصعيد المنهجي أثبتت الجائحة انخراط المؤرخ في التأريخ للزمن الآني المرتبط بحدث معيش، تتداوله وكالات الأنباء والجرائد ومنصات التواصل الاجتماعي وعُقدت حوله ندوات افتراضية عن بُعد، وأبرزت أن على المؤرخ اقتحام الزمن الآني أو التاريخ الفوري وألا يظل حبيس الماضي، وألا يكون كجامع التحف المغلقة على عبادة الماضي وفق تعبير مارك بلوخ.³

التاريخ الآني يمكن أن ينهل وينفتح على الدراسات السوسولوجية وباقي

¹- حسام الدين درويش، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، نحو تأسيس هيرمينوطيقا الحوار، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، (بيروت 2016)، ص 379

²- جاك لوغوف، التاريخ والذاكرة، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 (بيروت 2017) ص 181

³- جاك لوغوف، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة (بيروت 2007) ص 122

الحقول المعرفية الأخرى، وهو ما يوضح التغير الذي طرأ على مستوى الوثيقة، إذ يجب التنبيه إلى الفرق العميق بين التحقيق الصحفي الذي تملّيه أحداث الساعة وسرعة الإجابة من جهة، والبحث في الحدث من جهة ثانية. لكن يجب التنبيه إلى أن ذلك يستدعي ضبطاً منهجياً لأدوات التحليل العلمي وطرق جمع المعطيات الجديدة، والاستناد إلى مجموعة من المفاهيم، يجمّلها "برنارد بيلار" في تحديد مفهوم الظاهرة وما ينبعث في الواقع الاجتماعي كمعطى بارز نسبياً، وهو ما يتطلب مقارنة متعددة التخصصات أو عابرة للتخصصات. ثانياً، الكشف عن زمنية اجتماعية تمكن من الكشف عن الخبايا والمكبوتات الاجتماعية، وبمقدور الحدث أن يكون منطلقاً لديناميات اجتماعية جديدة¹.

¹ - برنارد بيلار، "التاريخ الفوري"، ترجمة محمد حبيدة ضمن الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية التاريخ والذاكرة-تاريخ العقلية، (أفريقيا الشرق 2015) صص 121-126.

على سبيل الختم:

خلاصة القول، يمكن القول إن المؤرخ انخرط في النقاش الدائر، فقد اكتسب التاريخ الآن مشروعيته المنهجية والمعرفية واقتحم الحاضر في تميز عن التحقيق الصحفي، وأبانت جائحة "كوفيد 19" عن هذا التوجه وعلى قدرة التاريخ تكسير الجدران العازلة وتحطيم الأصنام، مع ضرورة الانفتاح على فروع المعرفة الإنسانية، والتعامل مع الوثائق والارشيفات الوطنية والدولية وهي المغيرة لما اعتاد المؤرخ التعامل معها وتوظيفها في أبحاثه، فالثورة الناعمة في مفهوم الوثيقة المُرَقمنة مغيرة لتلك التي اعتاد المؤرخ فك شيفراتها، فتسارع الأخبار والصور والتحليلات وإحصائيات عدد المصابين وعدد الوفيات والناجين، وكلفة ذلك على الصعيد الاقتصادي وانعكاساته السياسية على الدول الوطنية والنظام العالمي والتكتلات الإقليمية، عبر المواقع الإلكترونية والإعلامية ومنصات التواصل الاجتماعي، أصبحت كلها ناقلة للخبر، الشيء الذي يطرح إشكالات منهجية أمام المؤرخ بخصوص التعامل مع هذا الزخم من المعلومات والأحداث المتجددة على مدار الساعة، والتميز بين صحيحها وخطئها وتجريدها من أيديولوجيتها، والابتعاد عن الاستعجال في إصدار

الأحكام. لهذا، وخدمة للمعرفة التاريخية، يتدخل المؤرخ من أجل ترتيب المعطيات وتحليلها وتقديم تفسيرات لها، خاصة وأنها لم تبح بكل أسرارها. فالمعطيات الرقمية اليوم متوفرة ويمكن تحليل منحنياتها، كما يمكن الاستفادة من الوسائل التقنية للاحتفاظ بالمعطيات وتخزينها بُغية الحصول على إحصائيات نهائية ووضع صورة عن هذه الأزمة عندما تنجلي.

ومن المهم الإشارة إلى أن المؤرخ لجائحة كوفيد-19 يجمع اليوم بين كونه مختصا في الدراسات التاريخية يمتلك أدوات منهجية تمكنه من تحليل وتفسير الظاهرة، وأيضا فهو شاهد على مرحلة معيشة بتجلياتها وانعطافات، وبكل ما يحمله الشاهد من انفعالات نفسية ووجدانية. كما أن الموضوع يضم فئات مجتمعية مختلفة من الحاكم إلى المهمش، زيادة على أن الوباء مس كذلك مختلف الأجناس والأعمار، لهذا على المؤرخ الانتباه إلى التغيرات التي مست هذه الفئات إبان الحجر، وكذا مدى وقع الوباء على ذهنية وتمثلات الفئات المختلفة وممارساتها الاجتماعية والسلوكية، وعدم الاقتصار فقط على فئة دون أخرى، وهو الأمر الذي لن يتأتى إلا عن طريق انجاز بحوث علمية تركيبية تتقاطع فيها التخصصات المعرفية، وفروع الدراسات التاريخية من تاريخ

اجتماعي إلى تاريخ طبي، وتاريخ الذهنيات وغيرها من الفروع. من أجل إثراء وإغناء البحث التاريخي والخروج من شرنقته والغوص في عوالم وتخصصات جديدة.

لائحة الببليوغرافيا المعتمدة

- أبطوي محمد، "دراسة الوباء وسبل التحرز منه: الأوبئة في الطب العربي وفي التاريخ الثقافي والاجتماعي"، سلسلة دراسات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (22 يونيو 2020)

- اجميلي حميد، "الطاعون الأسود" على الرابط

<https://www.hespress.com/writers/466474.html> (تاريخ الاطلاع، 4-6-2020)

- أرنولد دافيد، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – (الكويت 1998).

- أكدير عبد الواحد، "الجوائح وجدلية الدولة والحضارة" على الرابط

https://www.youtube.com/watch?v=33H4GzSwvNg&feature=youtu.be&fbclid=IwAR09KRWvElzYobPDRoq5taI9VLr7X1fjV_qOmW_nwP
L5eYOWzbEhsiTrm8 - (تاريخ الاطلاع 2020-6-23)

- البزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية (الرباط 1992).

- القادري بوتشيش إبراهيم، "هل يقرب وباء كورونا نهاية العولمة وبداية تحقيق جديد للتاريخ؟" على الرابط

https://www.hespress.com/histoire/465665.html (تاريخ الاطلاع 4-6-

2020)

- الكركوري جمال والفرحان أحمد، (إشراف) الحياة في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"؟ (الرباط نت يونيو 2020).

- بوشرون باتريك، "ماذا يستطيع التاريخ؟ من أجل تأمين علمي جديد لنظام الحقيقة لمهنة التاريخ". ترجمة محمد مستعد، على الرابط:

https://ribataalkoutoub.com/?p=2402 (تاريخ الاطلاع، 2-7-2018)

- بولقطيب الحسين، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، (منشورات الزمن 2002).

- بيلاربرنارد، "التاريخ الفوري"، ترجمة محمد حبيدة، ضمن الكتابة التاريخية: التاريخ والعلوم الاجتماعية التاريخ والذاكرة-تاريخ العقلية، (افريقيا الشرق 2015)

- ترويو ميشيل رولف، "القوة في الحكاية"، ترجمة ثائر ديب، مجلة أسطور، العدد 9، يناير 2019، صص 161-182

- حبيدة محمد، المدارس التاريخية برلين باريس استراسبورغ من المنهج إلى التناهج، (دار الأمان الرباط 2019)

- حبيدة محمد، من وباء "الكوليرا" إلى جائحة "الكورونا" ... الموت يرسم معالم

الغد" على الرابط <https://www.hespress.com/histoire/465330.html> (تاريخ الاطلاع، 2-4-2020)

- درويش حسام الدين، إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، نحو تأسيس هيرمينوطيقا الحوار، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، (بيروت 2016).

- رويان بوجمعة، "علم الأوبئة والجغرافية الطبية في المغرب" على الرابط <https://ribatalkoutoub.com/?p=3205> (تاريخ الاطلاع 24-6-2020)

- ريكور بول، الزمان والسرد الحبكة والسرد التاريخي، ج1، ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة (بيروت 2006)

- فانيورون فريدريك، الإنفلونزا الإسبانية عودة إلى وباء 1918-1919" ترجمة حبيدة محمد، على الرابط <https://www.mominoun.com/articles> (تاريخ الاطلاع، 16-4-2020)

- لوغوف جاك، التاريخ والذاكرة، ترجمة جمال شحيد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1 (بيروت 2017)

- لوغوف جاك، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة (بيروت 2007)

- نشاط مصطفى، هل يعيد "كورونا" النظر في درس التاريخ الاجتماعي

بالجامعات؟ على الرابط:

<https://www.hespress.com/orbites/474629.html> (تاريخ الاطلاع 25-6-

2020)

- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي،
التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس مادتي التاريخ والجغرافيا بسلك
التعليم الثانوي التأهيلي، الرباط 2007

- François Dosse «Michel de Certeau et l'écriture de l'histoire» Dans
Vingtième Siècle. Revue d'histoire 2003/2 (no 78), pp145 – 156

- Sebtti Abdelahad, «Epidémies et culture des calamités à propos de la
longue expérience marocaine», Actes de la session plénière solennelle,
de l'Académie Hassan II des Sciences et Techniques, 2010. pp. 127 -
132



مرض كوفيد-19 عام 2020: قراءة في الإحصائيات الطبية والتجارب العلاجية

ابراهيم أوباها

باحث في الميكروبيولوجيا وتفاعلات النبات - الكائنات الحية الدقيقة

الحسين المكحول

باحث في سلك دكتوراه بكلية الحقوق – سطات

مبارك أركوكو

باحث في سلك دكتوراه بكلية الحقوق - سطات



مقدمة:

لا شك أن أزمة كورونا، التي أضحت تشغل بال كافة دول العالم من أقصاه إلى أقصاه تعد تحدياً غير مسبوق، ابتدأت في منتصف شهر دجنبر 2019، عندما أصيب مجموعة من الناس يرتبط الكثير منهم بوجودهم في سوق شعبي في مدينة وهان الصينية، بالتهاب رئوي حاد دون أي أسباب واضحة، بعد ذلك ربط العلماء الصينيون الالتهاب الرئوي بسلسلة جديدة عرفت بإسم كوفيد-19¹، وفي 10 يناير 2020 تم الإبلاغ عن أول حالة وفاة و41 إصابة

¹ - تعد فيروسات كورونا فصيلة كبيرة من الفيروسات التي تسبب اعتلالات متنوعة بين الزكام وأمراض أكثر وخامة، مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS-CoV)، ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (سارس). (SARS-CoV) (ويمثل فيروس كورونا المستجد (nCoV) سلالة جديدة لم يسبق تحديدها لدى البشر من قبل. وتعد فيروسات كورونا حيوانية المصدر، ويعني ذلك أنها تنتقل بين الحيوانات والبشر. وتوصلت الاستقصاءات المستفيضة إلى أن فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم (سارس) قد انتقل من سناير الزباد إلى البشر، بينما انتقل فيروس كورونا المسبب لمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية من الجمال الوحيدة السنام إلى البشر. وينتشر العديد من فيروسات كورونا المعروفة بين الحيوانات، ولم تصيب البشر بعد. وتشمل الأعراض الشائعة للعدوى أعراضاً تنفسية والحمى والسعال وضيق النفس وصعوبات في التنفس. وفي الحالات الأكثر وخامة، قد تسبب العدوى الالتهاب الرئوي، ومتلازمة الالتهاب الرئوي الحاد الوخيم، والفشل الكلوي، وحتى الوفاة. انظر: <http://www.emro.who.int/>.

مؤكدة سريريًا ناجمة عن هذا الفيروس الجديد¹ ، وبحلول 22 يناير 2020، انتشر الفيروس في المدن والمقاطعات الرئيسية الصينية، وقد تم الإبلاغ عن 571 حالة مؤكدة و17 وفاة، وإلى حدود تلك الفترة كان هذا الفيروس يعتبر مشكلة صينية بحثة، يشاهد العالم فصولها دون مبالاة والحياة مستمرة بكل تفاصيلها، إلى أن أصبح هذا الفيروس في أغلب بقاع العالم، وبات عابرا للحدود، لا يفرق بين قوة عظمى وعالم ثالث. ومن هنا كان قد انتشر الفيروس ليجتاح ما يزيد عن 140 دولة في العالم، لتصنفه منظمة الصحة العالمية وباءا عالميا².

وترتبا على اعتباره من طرف منظمة الصحة العالمية كجائحة، سارعت مختلف الدول الموبوءة إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات والتدابير الهادفة إلى الحد من انتشار هذا الفيروس، حيث تباينت الإجراءات من دولة إلى أخرى

¹ -Qin, Amy; Hernández: "China Reports First Death From New Virus". Newspaper The New York Times, Number -Javier C. (2020-01-10) -. <https://www.nytimes.com>.

² - أعلنت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة يوم 11-03-2020 وذلك على لسان مديرها العام "تيدروس أدهانوم غيبريسوس" أنه بات يعتبر الفيروس المسبب لمرض "كوفيد-19" الذي أصاب أكثر من 110 آلاف شخص حول العالم منذ دجنبر 2019، والذي تفشى حول العالم "جائحة"، أي أنه وباء متفشي عالميا.

انظر الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية: <https://www.who.int/ar>

ارتباطا بدرجة تفشي الفيروس فيها ومدى قدرة منظومتها الصحية على استيعاب هذا المتغير الجديد.

وتبعاً لتداعيات الفيروس على مختلف مناحي الحياة الطبيعية، وإيماناً منها بقدسية الحق في الحياة، هدفت الدول إلى إطلاق برامج الأبحاث وتطوير اللقاحات، قصد إيجاد علاج فعال لهذا الفيروس المستجد، وإلى حدود كتابة هذه الأسطر تتباين وثيرة تقدم هذه الابحاث، فيما يبقى الكثير منها قيد الكتمان لاعتبارات عديدة.

بناء على ما قيل سنحاول رصد تطور الحالة الوبائية في المغرب وفي أغلب دول العالم، وكيف تحارب الدول هذا العدو الغير مرئي المشترك؟ ما الذي يحدد استراتيجية كل دولة؟ ولماذا تأخرت دول كبرى في وضع استراتيجيات لمواجهة؟ وأين وصلت مختلف التجارب السريرية لإيجاد لقاح فعال لهذا الفيروس؟

ولمقاربة هذه الاشكاليات سوف نعتمد على التقسيم التالي:

المحور الأول: تطور الحالة الوبائية بالعالم وبالمغرب

المحور الثاني: التدابير الوقائية للحد من انتشار الفيروس

المحور الثالث: التجارب السريرية ورهان إيجاد لقاح لفيروس كورونا

المحور الأول:

تطور الحالة الوبائية بالعالم وفي المغرب

أولاً: تطور الحالة الوبائية بالعالم

إن تتبع تطور الحصيلة الوبائية لفيروس كورونا عبر العالم، فرض علينا اعتماد الإحصائيات التي تقدمها منظمة الصحة العالمية في تقاريرها اليومية بخصوص تطور الحالة الوبائية بالعالم، وكذلك موقع "وورلد ميترز" المتخصص في رصد ومتابعة حالات فيروس كورونا في العالم¹.

وحسب الاحصائيات المعلن عنها بلغ مجموع الحالات المصابة في العالم بهذا الفيروس إلى حدود يوم فاتح يوليوز-2020 ما يقارب 12.000.000 مصاب، منها 4.054.153 حالاتهم نشطة، ومجمل هذه الاصابات هي في حالة

¹ - <https://www.worldometers.info/coronavirus/#countries>. (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليوز)

وورلد ميترز هو موقع ويب مرجعي يوفر إحصاءات لمواضيع متنوعة، تمتلكه وتديره شركة داداكس المحدودة للبيانات بواسطة فريق دولي من المطورين والباحثين والمتطوعين.

معتدلة عددهم 3.996.485 بنسبة 99% من مجموع الاصابات النشطة، في حين 60.867 مصاب حالتهم خطيرة وحرارة بنسبة تقدر ب 1% من مجمل الإصابات النشطة¹. أما ما يتعلق بحالات الشفاء فقد بلغت 5.376461 حالة شفاء من هذا الفيروس بنسبة 92% من مجموع الحالات المؤكد إصابتها بفيروس كوفيد-19، في حين بلغ عدد الوفيات 497.363 حالة وفاة بنسبة تقدر ب 8.8%.

من خلال الإحصائيات المقدمة أعلاه، يتبين أن مستوى الانتشار الكبير الذي عرفه فيروس كورونا كوفيد-19 في العالم، وقوة قدرته على العدوى والانتشار فكل مصاب يمكن أن ينقل العدوى إلى أشخاص آخرين بمعدل 2 إلى 4.5%، وهو ما يعكس مدى خطورة تفشي هذا الفيروس الذي أربك مجمل النظم الصحية للدول حتى تلك التي لها قدرة أكثر على التحمل².

وفي ذات السياق، سوف نحاول الوقوف على توزيع الحالة الوبائية حول القارات لعلنا نقرب من معرفة سبب تفشي هذا الفيروس بهذا الشكل السريع

1- (تاريخ آخر اطلاع، <https://www.worldometers.info/coronavirus/#countries>)

فاتح يوليو

2- تقرير لمنظمة الصحة العالمية حول استراتيجية كوفيد 19 المحدثة ، صدر بتاريخ 14 أبريل 2020. ص.2

عالميا، رغم أن أغلب الدول فرضت مجموعة من الإجراءات والتدابير الاحترازية الصحية كتعليق كل الرحلات الجوية وفرض حجر صحي على عدة مدن ومنها من قام بإغلاق تام للحدود.

جدول 1: توزيع الحالات المؤكدة حسب القارات

القارة	الاصابات	الشفاء	الوفيات
أمريكا الشمالية	2,976,803	1,301,988	164,873
أمريكا الجنوبية	2,050,155	1,172,972	79,564
أوروبا	2,397,490	1,337,971	190,324
استراليا	9,273	8,570	126
افريقيا	362,938	175,746	9,317
آسيا	2,135,089	1,383,129	53,289

من خلال الجدول أعلاه، يتبين أن هناك تفاوتاً بخصوص حالات الإصابة بهذا الفيروس بين القارات، حيث تصدر القارة الأمريكية معدل الإصابة بنسبة 29.9% بأمريكا الشمالية و20.6% بأمريكا الجنوبية، وتليها القارة الأوروبية التي عرفت هي الأخرى تفشي واسع لهذا الفيروس وقد بلغت نسبة الإصابات حوالي 24.1% من إجمالي الإصابات في العالم، ثم بعد ذلك

تأتي القارة الآسيوية بنسبة بلغت 21.5%، وتليها قارة أفريقيا بنسبة 3.6% وأخير القارة الأسترالية.

جدول 2: توزيع الحالة الوبائية لدى بعض الدول¹

الدولة	مجموع الاصابات	مجموع الوفيات	حالات الشفاء	الحالات النشطة	مجموع الاختبارات
ايطاليا	239,961	34,708	187,615	17,638	5,215,922
فرنسا	162,936	29,778	75,351	57,807	1,384,633
المانيا	194,399	9,026	177,500	7,873	5,412,655
الولايات المتحدة الأمريكية	2,553,068	127,640	1,068,768	1,356,660	31,354,678
البرازيل	1,280,054	56,109	697,526	526,419	2,925,935
الصين	83,483	4,634	78,444	405	90,410,000
ايران	220,180	10,364	180,661	29,155	1,583,542
السعودية	174,577	1,474	120,471	52,632	1,479,759
مصر	62,755	2,620	16,737	43,398	135,000

¹ - احصائيات يقدمها موقع :

<https://www.worldometers.info/coronavirus/#countries>

627,379	2.934	8.723	220	11.877	المغرب
---------	-------	-------	-----	--------	--------

هذه الإحصائيات تتعلق بانتشار الفيروس لدى بعض الدول في العالم، وما يلاحظ هو تباين تفشي الإصابة بفيروس كوفيد-19 فيما بينهم. وتسجل الولايات المتحدة الأمريكية أعلى معدل إصابات بنسبة تبلغ 25.7% من مجموع الإصابات في العالم. وتليها البرازيل بنسبة 12.8% ثم بعد ذلك تأتي الدول الأوروبية باعتبارها أول مناطق تفشي فيروس كورونا بعد الصين، حيث كانت إيطاليا أول دولة أوروبية تأثرت بهذا الوباء¹، ثم توالى ظهور حالات الإصابة المؤكدة بدول أوروبية أخرى (الحالة الصفر) كفرنسا وألمانيا وإسبانيا، وحسب الإحصائيات التي أوردناها أعلاه يظهر لنا جليا مدى قوة انتشار الفيروس لدى أغلب البلدان.

ويرجع سبب تفشي الوباء في هذه الدول إلى التباين في تبني الإجراءات الاحترازية المتدرجة والجزئية فمثلا إيطاليا انتظرت حتى يوم 22 فبراير 2020 لتقرر أول حجر صحي لـ 50 ألف شخص في المناطق الشمالية من إيطاليا؛ حيث أغلقت المدارس ومنعت الأنشطة الرياضية، لكن يبدو أن قرار الحجر الصحي

¹ - Amante, Angelo; Pollina, Elvira -Reuters Magazine .«Two first coronavirus cases confirmed in Italy» WORDLD NEWS-30 JANUARY 2020 / 11:05 PM.

الذي أقر يوم 8 مارس 2020 كان متأخرا، بعد أن وصلت الحالات المصابة قرابة 20 ألف مصاب. وبقيت نسب الاصابات في ارتفاع طيلة شهر مارس إلى بداية شهر ماي، وهو ما وضع القطاع الصحي الإيطالي وبعض الدول الأوروبية كإسبانيا تحت الضغط الشديد، إلى درجة أنه فرض على الأطباء الاختيار الصعب حول من يتلقى العلاج أولا لإنقاذ حياته؟ ومن يحرم منه وفقا لتقييم الحالة المرضية لقدرتها على الاستجابة للعلاج¹.

وبالتالي هذا التباين على مستوى نسب الإصابة بين أغلب دول العالم. لدرجة أنه لم يشكل الفارق الزمني بين تسجيل أول إصابة عاملا أساسيا في ارتفاع عدد الاصابات، هو أمر يجعلنا نتساءل عن مختلف العوامل المساهمة في تباين معدلات انتشار الفيروس بين دول العالم؟

يعد الاختلاف في التدابير التي اعتمدها أغلب دول العالم عاملا رئيسيا في تباين نسب الإصابة، والتي تتجلى أساسا في تتبع الحالات التي أصيبت ورصد

¹ - انهيار منظومات الحماية الصحية والاجتماعية، ونموذج دولة الرفاه الاجتماعي في دول كان يضرب بها المثل في ذلك؛ حتى إننا لم نعد نميز بين هشاشة تلك المنظومة في هذه الدول ونظائرها بعض دول الفقيرة، وانهزمت قيم التضامن وانكشفت خلفيات بعض الدول التي كانت تقدم نفسها على أنها مهد للقيم والتضامن والديمقراطية، خاصة بعد أحداث مصادرة الكمادات والمعدات الطبية بين عدة دول فيما بينها.

المخالطين والرفع من عدد الاختبارات، بالإضافة إلى توقيت وكيفية إعلان حالة الطوارئ وما تبعها من فرض لإجراءات الحجر الصحي¹، فأغلب البلدان التي تقيدت بهذه الإجراءات في تديرها لهذه الجائحة وذلك حسب ما أقرته منظمة الصحة العالمية في تقاريرها، أن هذه الأخيرة استطاعت التحكم في حالتها الوبائية، وهو انعكس بشكل إيجابي على قدرتها في تقديم الرعاية السريرية ذات الجودة، وتقليل الوفيات الناجمة عن أسباب أخرى من خلال استمرار توفير الخدمات الصحية الضرورية بشكل آمن، كدولة نيوزيلندا التي حققت هدفها الطموح المتمثل في محاصرة انتشار فيروس كورونا²، بعد خطوات تعتبر من أول وأقصى إجراءات العزل الذاتي في العالم، وهو ما جعلها تصل إلى معدل

¹ - الفرق بين العزل الذاتي والحجر الصحي الذاتي والتباعد الجسدي:
- الحجر الصحي يعني تقييد الأنشطة وعزل الأشخاص غير المرضى هم أنفسهم ولكنهم ربما تعرضوا للإصابة بعدوى كوفيد-19. والهدف هو منع انتشار المرض في الوقت الذي لا تكاد تظهر أي أعراض على الشخص.
- أما العزل فيعني عزل الأشخاص المرضى الذين تظهر عليهم أعراض كوفيد-19 ويمكنهم نقل عدواه، لمنع انتشار المرض.
- ويعني التباعد الجسدي الابتعاد عن الآخرين جسدياً. وتوصي المنظمة بالابتعاد عن الآخرين مسافة متر واحد (3 أقدام) على الأقل. وهي توصية عامة يتعين على الجميع تطبيقها حتى لو كانوا بصحة جيدة ولم يتعرضوا لعدوى كوفيد-19.
انظر الموقع الإلكتروني الخاص بمنظمة الصحة العالمية. <https://www.who.int>
(الموقع الرسمي لوزارة الصحة بنيوزيلندا) (تاريخ آخر <https://www.health.govt.nz> -² <https://www.health.govt.nz>)
اطلاع، فاتح يوليوز

قليل في عدد الاصابات بلغ 1,522 اصابة ، تعافت منها 1,484 حالة ، وماتت

22 حالة¹.

ومن بين الدول التي اعتمدت هذه المقاربة في التصدي لهذه الجائحة أيضا، وتمكنت من السيطرة على الوضع الوبائي بها، الصين البلد مصدر هذه الجائحة والتي قامت بإجراءات فعالة، كالإغلاق الشامل للمدن التي تعرف تفشيا للفيروس وتمكينها من الإمدادات اللازمة على وجه السرعة في محاولة لحصر امتداد الفيروس وتقليل حالات الإصابة. وقد تمكنت في 10 مارس 2020 الصين من السيطرة على الفيروس، وهو الأمر الذي وصفته منظمة الصحة العالمية بالاحتواء الفعال والناجع، وقد سعت الصين إلى نقل نموذجها إلى الدول المصابة².

وكذلك نشير وحسب الإحصائيات المعلن عنها والتي تبين أن نسبة الفتك في دول العالم العربي والدول الإفريقية هي نسب قليلة مقارنة مع باقي دول

(تاريخ <https://www.worldometers.info/coronavirus/country/new-zealand> - ¹

آخر اطلاع، فاتح يوليوز)

² - اعلان الرئيس الصيني، شي جين بينغ، يوم 10 مارس 2020 على أنه "تمت السيطرة عمليا" على تفشي فيروس كورونا المستجد في مقاطعة هوبي بؤرة انتشاره وعاصمتها ووهان.

العالم، وهذا يرجع إلى عدة أسباب أهمها، أن هذه الدول لم تصل بعد لمرحلة الذروة، لهذا الاصابات فيها لا تزال قليلة ولم ينتشر الفيروس في كل المدن عكس الدول الأخرى كالدول الأوروبية لأن المواصلات بينهم سريعة، وهو ما يجعل التواصل بينهم بشكل مستمر وبالتالي كان الفيروس يتنقل بينهم بشكل سريع.

وتجدر الإشارة إلى أنه بداية من شهر يونيو 2020 بدأت دول عديدة في أوروبا وآسيا والمنطقة العربية تخفيف إجراءات العزل المتخذة لمواجهة انتشار جائحة فيروس كورونا بعدما أصبحت تشهدا انخفاضاً في تسجيل عدد الإصابات، في ظل تحذيرات من منظمة الصحة العالمية من ذروة ثانية للمرض في الدول التي شهدت تراجع الإصابات بالفيروس، في حال خُففت الإجراءات بشكل أسرع من اللازم.

أما فيما يتعلق بالفئات العمرية الأكثر إصابة بفيروس كورونا حسب مختلف بلدان العالم، أشارت مجموعة من الأبحاث حسب ما أعلنت عنه منظمة الصحة العالمية أن المرض لا يستهدف فئة عمرية محددة، غير أن

مضاعفاته الوخيمة تسجل بنسبة أكبر عند المسنين¹.

فحسب نتائج دراسة أجرتها منظمة الصحة العالمية على 56 ألف مريض "صيني" بفيروس كورونا كوفيد-19، لمعرفة نسب تأثير الفيروس على مختلف الفئات العمرية² والتي حددت نسب التأثير فيما يلي:

جدول 3: معدل الوفيات حسب الفئات العمرية

معدل الوفيات	الفئات العمرية
14.8%	فوق 80 سنة
8%	ما بين 70 و 79 سنة
3.8%	ما بين 60 و 69 سنة
1.3%	ما بين 50 و 59 سنة
0.4%	ما بين 40 و 49 سنة

¹ - منظمة الصحة العالمية، مرض فيروس كورونا (كوفيد-19): سؤال وجواب.
انظر الموقع الإلكتروني: <https://www.who.int> (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليو)
² - نُشر هذا التقرير في 27 فبراير 2020 على الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية

0.2%	ما بين 10 و 39 سنة
0.0%	ما بين 0 و 9 سنة

يشير الجدول أعلاه إلى أن خطر الوفاة يكون أقل بالنسبة للفئة العمرية تحت 50 عامًا، ولكنه مرتفع بالنسبة للفئة العمرية فوق 50 عامًا، ويختلف هذا المعدل بين الجنسين، 4.7% رجال و2.8% نساء¹.

ثانيا: تطور الحالة الوبائية بالمغرب

منذ أن أعلن عن تفشي فيروس كورونا كوفيد-19 بجمهورية الصين الشعبية في 31 دجنبر 2019، عملت الدولة المغربية على ترصد الوباء من خلال المنظومة الوطنية للمراقبة الوبائية، كما هيأت كل ما يتعلق بوسائل التشخيص الفيروسي والوقاية منه، لتفادي انتشار هذا الفيروس بشكل خطير².

وبلغ عدد المصابين بفيروس كورونا بالمغرب منذ تسجيل الحالة الأولى

¹ - <https://www.breizh-info.com/> (Coronavirus – Quel taux de mortalité par âge et sexe ? Situation statistique au 17 mars 2020) (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليوز 2020)

² - بلاغ صحفي صادر عن وزارة الصحة، حول فيروس كورونا المستجد في الصين ، 24 يناير، 2020.

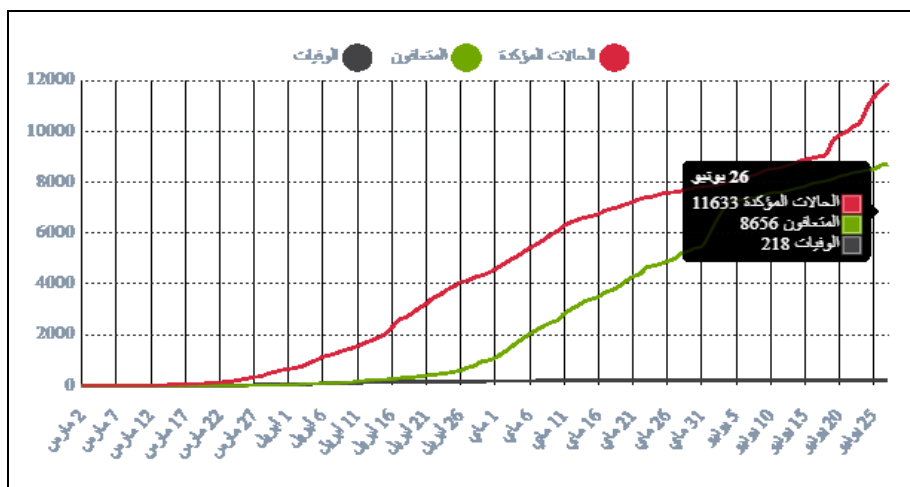
يوم 2 مارس¹ 2020 إلى حدود يوم 27 يونيو 2020، ما مجموعه 11.877 حالة مؤكدة وهو ما يشكل 0.1% من مجموع الاصابات بهذا الفيروس في العالم، وعدد الوفيات المسجلة بلغ 220 وفاة بنسبة 1.84% من مجموع الاصابات بهذا الفيروس في المغرب ، أما ما يتعلق بحالات الشفاء، فقد بلغت 8723 حالة شفاء أي نسبة 73.39% من مجموع الإصابات، وتبقى 2934 من الحالات النشطة التي تتلقى العلاج ونسبتها 24.83% منهم 2927 مصاب حالتهم مستقرة و7 مصابين يوجدون تحت العناية المركزة².

نتساءل إلى أي حد تعكس هذه الأرقام فعليا واقع انتشار الفيروس؟

مبيان¹: تطور لحالة الوبائية في المغرب حسب احصائيات وزارة الصحة

¹ - البلاغ رقم 10 الصادر عن وزارة الصحة أعلنت فيه إلى علم الرأي العام أنه تم تسجيل أول حالة إصابة مؤكدة بفيروس كورونا المستجد.

² - البوابة الرسمية لفيروس كورونا بالمغرب: <http://www.covidmaroc.ma/> (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليوز 2020)



من خلال المبيان أعلاه يتضح لنا مستوى تطور الحالة الوبائية بالمغرب، بدءا من تسجيل أول حالة إلى حدود يوم 27 يونيو 2020، والذي تميز بعدة خصائص أولها أن الأرقام والمؤشرات الصادرة من منتصف شهر ماي 2020 عن الجهات الوصية، توحى أن الوضعية الوبائية بالمغرب اتسمت بنوع من عدم الاستقرار، والخاصية الأساسية التي تميز الوضعية الوبائية بالمغرب، أنه لم يصل إلى مستوى مرتفع في تفشي الفيروس عكس ما عرفتة عدة دول أخرى، كالدول الأوروبية القريبة منه جغرافيا كإسبانيا التي بلغت فيها نسب الحالات المؤكد إصابتها بفيروس كورونا كوفيد-19 إلى حدود 27 يونيو 2020 ما يقارب 294,985 حالة مؤكدة، توفيت منها 28,338 حالة وفاة ناجمة عن الإصابة

بهذا الفيروس وبعد الدول العربية المجاورة¹.

وعلى المستوى المحلي يتضح أيضا من خلال مقارنة الأرقام المسجلة بشكل يومي أن منحنى تطور الحالة الوبائية بالمغرب يتصف بالتذبذب، ويرجع هذا إلى ظهور مجموعة البؤر الوبائية في أوساط عائلية أو مهنية وصناعية حسب ما تعلن عنه الجهات الوصية في تقاريرها اليومية²، وقد سجل في الأيام الأخيرة من شهر يونيو 2020 ارتفاعا غير مسبوق وهو ما يعتبر غير عادي خصوصا في هذه الفترة المتميزة بتخفيف إجراءات الحجر الصحي واستئناف الأنشطة الاقتصادية.

وما يفسر هذا الارتفاع هو ارتباط أو تموقع هذه الإصابات بهذا الفيروس ببؤر مهنية، إضافة إلى تطور جاهزية الرصد والاستقصاء الوبائي والكشف المبكر وهذا المعطى يتجلى في اكتشاف حالات بدون أعراض وإن كانت تكون خفيفة وحميدة³.

وبالتالي ضبط منحنى تطور الحالة الوبائية بالمغرب والحديث عن

¹ - <https://www.worldometers.info/coronavirus/#countries>.

² - يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى التقارير الصحافية اليومية التي تقدمها وزارة الصحة.

³ - بلاغ صحفي صادر عن وزارة الصحة يوم السبت 27 يونيو 2020.

التحكم في انتشار الوباء، يركز على معايير دولية موضوعة من قبل منظمة الصحة العالمية وهي كالتالي:

الحالات النشطة: من خلال الإحصائيات، يتضح أن الحالات النشطة بالمغرب، في انخفاض مستمر بداية من 26 أبريل، لتعود إلى الارتفاع مؤخرا خاصة مع نهاية شهر يونيو 2020. وحاليا تشكل نسبة الحالات النشطة 24.83% من إجمالي عدد الإصابات.

معامل انتقال العدوى: ان انخفاض مؤشر انتقال العدوى كما هو محدد في الضابط العملي¹ (R_0) الذي يرصد نسبة توالد الفيروس، ويبلغ معامل انتقال العدوى بالمغرب 0.76%.

نسبة الإماتة: حيث وصلت 1.84 %²

أما فيما يتعلق بتوزيع الحالات جهويا، تحتل مدينة الدار البيضاء الرتبة الأولى على مستوى هذا التصنيف بمعدل 19 حالة نشطة لكل 100.000 ألف

¹ - رقم التكاثر أو إعادة إنتاج الفيروس ويرمز له ببساطة بالحرف الانجليزي "R" اختصارا لكلمة Reproduction. ما هو الرقم "R" ؟

هو مختصر لرقم التكاثر، وهو مصطلح يستخدم في علم الأوبئة، (في إشارة إلى تكاثر الفيروس وانتقاله إلى أشخاص جدد)، ويمثل طريقة لتقييم قدرة المرض على الانتشار.

² - البوابة الرسمية لفيروس كورونا بالمغرب: <http://www.covidmaroc.ma/>

نسمة، ثم بعد ذلك كل من (الرباط -مراكش -طنجة- فاس) بمعدل 5 حالات نشطة لكل 100.000 ألف نسمة، أما بالنسبة لباقي المدن يسجل معدل 2 حالات إلى حالة وحيدة نشطة لكل 100.000 ألف نسمة¹.

جدول 4: توزيع حالات الوبائية حسب الجهات:

نسبة الاصابة ²	عدد الاصابات	الجهات
28,01 %	3340	الدار البيضاء-سطات
15,89 %	1884	مراكش - أسفي
17,54 %	2078	طنجة - تطوان - الحسيمة
10,09 %	1196	فاس - مكناس
16,21 %	1922	الرباط - سلا - القنيطرة

¹ - المرجع السابق.

² - المرجع السابق.

4,94 %	586	درعة تافيلالت
1,70 %	201	الجهة الشرقية
1,25 %	150	بني ملال - خنيفرة
0,76 %	90	سوس - ماسة
0,60 %	71	كلميم - واد نون
2,93 %	347	العيون - الساقية الحمراء
0,09 %	11	الداخلية - وادي الذهب

من خلال هذه المعطيات التي أشرنا لها سلفاً، يبدو أن الاستراتيجية الوطنية للتحكم في الوباء جنببت بلادنا الأسوأ والذي قدرته بعض الدراسات والتقارير في تفادي أزيد من 9.000 وفاة، واحتلال مراتب متقدمة في التصنيفات العالمية "ل مؤشر الصرامة" في تعامل الدول مع الوباء، حيث يحتل الرتبة الثانية على مستوى شمال إفريقيا، والرتبة 51 عالمياً في تصنيف شمل 122 دولة¹.

¹ - عرض وزير الصحة أمام لجنة القطاعات الاجتماعية بمجلس النواب يومه 28 ماي 2020. "جائحة كورونا ببلادنا: تدابير التصدي وتصورات الخلاص".

المحور الثاني:

التدابير الوقائية للحد من انتشار الفيروس

عموما، تبنت دول العالم عدة استراتيجيات للتعامل مع انتشار وباء فيروس كورونا، فبعض الدول أغلقت مدنها بشكل كامل كالصين مثلا، وبعضها تركت الأمور اختيارية حسب حالة كل مدينة، والبعض الآخر حاول تبني سياسة مختلفة تقوم على ترك الوباء ينتشر بحثا عن مناعة طبيعية مكتسبة، وبعد مرور عدة أشهر على انتشار وباء كوفيد19، أصبح لدينا تصورا عن نتيجة كل إجراء، وقد قامت جامعة جونز هوبكنز Johns Hopkins University

بتقديم محاكاة لكل استراتيجية، وبالتالي معرفة كيف تؤثر كل استراتيجية على

حالة البلد¹.

المحاكاة الأولى: في هذه الحالة سيتم ترك الأمور بدون ضوابط (يعني في حالة ما الدولة لم تقم بأي اغلاق أو حجر صحي بل تعمل على ترك الفيروس ينتشر ويأخذ المنحى الطبيعي الخاص به وهذه الاستراتيجية تسمى سياسة القطيع²، ماذا سيحدث؟

عندما يتحرك المريض المصاب بدون ضوابط يصيب الآخرين وفي فترة زمنية قصيرة، سيصاب أكبر عدد ممكن من الأشخاص، وسيتعافى البعض ويتوقف الأمر في النهاية أمام معادلة قدرة الدولة على علاج كل المرضى مقابل عددهم المتزايد بكثافة في نفس الوقت.

وهذه الاستراتيجية تصلح عندما يكون انتشار الفيروس بطيء، وليس له نسب وفيات مرتفعة ولا يترتب عنه ضغط على الأنظمة الصحية، وهو ما دفع

¹ - <https://www.jhu.edu/>.

² - <https://www.jhu.edu/>: "The long road to herd immunity (تاريخ آخر اطلاق، فاتح يوليوز 2020) "Achieving herd protection can stop the spread of an infectious disease within a population, but as Bloomberg School experts explain, the U.S. is nowhere near that point with SARS-CoV-2, and getting there could prove difficult."

عدة دول تبنت هذه الاستراتيجية إلى التراجع عنها.

المحاكاة الثانية: في هذه الحالة فرضت اجراءات مكنتها من فرض حجر جزئي، مما سمح للمواطنين التحرك بدون قيود (عدم وجود تباعد اجتماعي)، وفي هذه الحالة محاصرة الفيروس تبقى رهينة بدرجة وعي المواطنين وهذه التجربة حققت نتائج مهمة في عدة بلدان كألمانيا.

المحاكاة الثالثة: فرضت الدولة حجرا صحيا كاملا يهدف إلى خلق تباعد اجتماعي حيث بقي ثلاثة أرباع السكان في البيوت، كيف سيتغير الحال؟ في هذه الحالة تتاح للدولة فرصة جيدة للتعامل مع المرض والسيطرة عليه، الامر الذي يمكنها من أن تقدم الرعاية اللازمة للمرضى، لأن اعدادهم مناسبة للنظام الصحي. وهذه الاستراتيجية عملت 50% من بلدان العالم على تطبيقها، والتي فرضت حجر صحي كاملا وتباعدة اجتماعيا وحظرا للتجوال، بالإضافة إلى وعي المجتمع وهو ما يمكن الحكومات من ألا تشل اقتصادها بشكل كامل، حتى لا يتضرر بشكل كبير، وتضمن المحافظة على القدرات الأساسية والموارد الأساسية.

وبالتالي يبقى هذا السيناريو هو المناسب لمحاصرة الوباء لطالما هناك وعي

مجتمعي، رغم أن هذا السيناريو إلى حد ما سيصطدم بعقليات الناس المختلفة، ويبقى الرهان على الحكومات حول كيفية إيصال الرسالة إلى شعوبها واتجاهاتها الفكرية.

المحاكاة الرابعة: في هذه الحالة لم يخرج إلا واحد من كل 8 أفراد، وذلك لضمان استمرارية المنظومة الاقتصادية. وهو مما سيؤدي إلى إصابة أقل عدد من السكان، ويبقى القطاع الصحي والمنظومة كلها قادرة على التعامل بسهولة مع أعداد المرضى وسيتعافى الناس بسهولة ولن تتضرر الحاجيات الأساسية. رغم أنه سيناريو قاصي وحاد لكنه سريع جدا في الحد من انتشار الفيروس.

فإلي أي مدى نجحت الدول في تطبيق هذه الآليات في تدبيرها لهذه الأزمة الوبائية؟

تعتبر الصين مهد فيروس كورونا، وخصوصا مدينة ووهان التي تعد بؤرة ظهور هذا الأخير في أواخر شهر دجنبر 2019، ومنذ ذلك الوقت اتخذت الحكومة الصينية إجراءات في محاولة للحد من انتقال المرض والتقليل من مخاطره على الصحة العامة، وإذا كان العالم اليوم يجمع على تصدي الصين لجائحة كورونا، رغم العدد المرتفع في حالات الإصابة، فإن تعاطيها مع الجائحة اتسم

بنوع من الخصوصية مقارنة مع باقي دول العالم، حيث لم تشمل إجراءات التصدي فقط فرض الحجر الصحي، بل تعدته إلى اعتماد إجراءات غير مشروعة من أجل التحكم في الفيروس من قبيل مضاعفة عمليات مراقبة السكان والتجسس عليهم وصلت حتى الاعتقال؛ إذ أن أول طبيب أشار إلى خطورة الفيروس تم اعتقاله بتهمة نشر أخبار كاذبة قبل أن يتوفى بفعل إصابته بالفيروس. كما عملت الصين على الاستخدام الأمثل للتكنولوجيا وذلك عبر خلق تطبيقات الكترونية لمراقبة تنقلات السكان الكترونياً، بالإضافة إلى أن شركات الاتصال تتعقب حركة السكان هي الأخرى، ويتم التعرف عن طريق الوجه على بعض الاعراض الأولية للمرض، كما لجأت بعض المدن إلى تشجيع الناس بجوائز للإبلاغ عن جيرانهم المرضى، كما اجرت الدولة عزلاً صحياً واسعاً وأغلقت عدة مدن¹. وهو الأمر الذي دفع منظمة الصحة العالمية إلى القول بأن دول العالم لن تملك القدرة على نهج خطى الصين في مجابهة فيروس كورونا، وذلك لعدة اعتبارات من بينها اختلاف الأنظمة السياسية ودرجات الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

¹ - إسماعيل عزام، الصين أم تايوان... أي تجربة يمكن الاقتداء بها لمكافحة كورونا؟، مقال منشور على الصفحة الرسمية لقناة DW الألمانية، <https://www.dw.com/ar>، اطلع عليه بتاريخ 2 يونيو 2020 على الساعة 16H30.

وفي تجربة أخرى، تعتبر التايوان من الدول التي نجحت إلى حد كبير في التصدي لجائحة كورونا، فرغم قربها الجغرافي من الصين بؤرة ظهور وتفشي الفيروس، وبالرغم من كون تايوان ليست عضوة في منظمة الصحة العالمية، إلا أنها تمكنت من التعاطي بشكل جيد مع كوفيد-19، وذلك عبر إدراك الابعاد المحتملة للأزمة في الوقت المناسب، عبر استباق تطورات الموقف بخطوة أبعد، بالإضافة إلى استفادتها من تجربة وباء سارس 2003/2002 وإنشائها لمركز للقيادة الصحية الوطنية (CECC)، والذي وفر البيانات للحكومة من أجل التعامل مع الجائحة، كما قامت بدمج قاعدة بيانات التأمين الصحي الوطني مع بيانات الهجرة والجمارك للتعرف على المرضى المحتملين وفقاً لسجلات سفرهم، وبحلول منتصف فبراير 2020 كانت جميع المشافي والعيادات قادرة على الاطلاع على سجلات سفر المرضى، وفي وقت لاحق طورت الحكومة برنامجاً يتيح للمسافرين العائدين إلى تايوان الإبلاغ عن خطوط سيرهم وتسجيل أي تغييرات تطراً على حالتهم الصحية¹.

¹ - ويليام يانغ، هكذا خاضت تايوان معركتها الناجحة ضد كورونا، مقال منشور على الصفحة الرسمية لقناة DW الألمانية، <https://www.dw.com/ar>، اطلع عليه بتاريخ 2 يونيو 2020 على الساعة 16H50.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تم تسجيل أول إصابة بتاريخ 21 يناير 2020، وفي حدود 23 فبراير تم تسجيل 14 حالة إصابة مؤكدة جلها لمواطنين أمريكيين قادمين من الصين، ومع نهاية شهر ماي أصبحت أمريكا تسجل مستويات قياسية في معدلات الإصابة، بحيث أصبحت الأولى عالميا من حيث الإصابة؛ إذ تقترب من حاجز مليوني حالة إصابة.

وقد قامت الحكومة الفيدرالية بمجموعة من الإجراءات الوقائية ابتدأت بمنح منظمة الغذاء والدواء الإذن لمركز مكافحة الأمراض والوقاية منها من أجل انتاج أجهزة للكشف السريع عن الإصابات المحتملة بكوفيد-19، بالإضافة إلى الرفع من ميزانية تطوير اللقاحات بحوالي 8,3 مليار دولار، وإحداث لجنة قيادة لمحاربة فيروس كورونا برئاسة Mike Pence نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أعلن الرئيس الأمريكي عن حالة الطوارئ الصحية بتاريخ 13 مارس 2020، وتفعيل قانون 1960 المتعلق بحالة الطوارئ العسكرية وذلك من أجل مضاعفة الإنتاج فيما يخص وسائل الوقاية وأجهزة التنفس، بالإضافة إلى منح الإذن لعملاق السيارات GENERAL MOTORS من أجل انتاج أجهزة التنفس

الصناعية ووسائل الوقاية. كما أقرت الحكومة الفيدرالية إمكانية اللجوء إلى القطاع الخاص من أجل الكشف عن الإصابات المحتملة بفيروس كورونا، وإقرار تأمين استثنائي للأطر الصحية ضد مخاطر الإصابة بالفيروس، كما عمدت أمريكا إلى غلق حدودها البرية والجوية باستثناء بعض مواطني كندا العاملين بالولايات الأمريكية¹.

أما على المستوى الاستشرافي، فقد أقرت الحكومة الفيدرالية برنامجا لما بعد كورونا يمر عبر ثلاث مراحل تهم الإجراءات الشخصية وكذلك تلك المتعلقة بمقرات العمل والأماكن الخاصة، وكيفية العودة التدريجية للحياة الطبيعية، وقد سمي هذا البرنامج بـ "حماية"، ورصدت له ميزانية ضخمة لمواجهة تبعات هذه الجائحة في مختلف الميادين².

أما على المستوى الوطني، فمنذ ظهور فيروس كورونا عمدت الدولة على اتخاذ تدابير صارمة وشجاعة جنببت بلادنا الأسوأ، كما مكنت هذه التدابير

¹ - الموقع الرسمي لمعهد BROOKINGS للأبحاث والدراسات.
<https://www.brookings.edu/research/the-federal-governments-coronavirus-actions-and-failures-timeline-and-themes/>

² - الدليل الرسمي للإعلانات والخدمات الحكومية الأمريكية.
<https://www.usa.gov/after-disaster>

المغرب من احتلال مراكز متقدمة في التصنيفات العالمية " لمؤشر الصرامة" في تعامل الدول مع الوباء (الرتبة 2 على مستوى شمال افريقيا، و51 عالميا في تصنيف شمل 122 دولة)، كما حظي المغرب بإشادة وتنويه عالميين بالتدابير المتخذة وغير المسبوقة.

الشق المتعلق بإجراءات وتدابير السلطات العمومية¹ :

منذ الإعلان عن ظهور الوباء في الصين

تعيين مركز رئيس للتنسيق بين مختلف القطاعات والمتدخلين للتتبع والدعم اللوجستيكي الميداني؛

إعادة تحيين خطة المراقبة والإعداد لمجابهة الأوبئة والجوائح؛

تشكيل اللجنة العلمية والتقنية الوطنية؛

الاعداد المسبق لبعض البنيات الاستشفائية وتأهيل الآليات والمعدات والوسائل الصحية بشكل احترازي؛

الإسراع في إجلاء 167 مغربي من مدينة ووهان الصينية ووضعهم في

¹ - عرض وزير الصحة أمام لجنة القطاعات الاجتماعية بمجلس النواب، بتاريخ 28 ماي 2020

تدابير الحجر الصحي لمدة 20 يوما؛

رفع درجة اليقظة وتعزيز الرقابة الصحية في المطارات الدولية والموانئ

الوطنية؛

مراقبة جميع المسافرين القادمين من الدول الموبوءة عن طريق

الكاميرات الحرارية؛

فور ظهور أول حالة مؤكدة بالمغرب (2 مارس 2020)

إغلاق المجال الجوي والبحري أمام المسافرين (15 مارس 2020) وإلغاء

التجمعات والتظاهرات وتوقيف الدراسة وإغلاق المساجد والمحلات العمومية

غير الضرورية؛

إعلان حالة الطوارئ الصحية وتقييد الحركة في البلاد إلى أجل غير

مسمى (20 مارس 2020)¹؛

¹ - مرسوم بقانون 2.20.292 صادر في 28 رجب 1441 (23 مارس 2020) يتعلق بسن أحكام خاصة بحالة الطوارئ الصحية وإجراءات الإعلان عنها، جريدة رسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 29 رجب 1441 (24 مارس 2020)، ص. 1782.

- مرسوم رقم 2.20.293 صادر في 29 رجب 1441 (24 مارس 2020) بإعلان حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا-كوفيد 19، جريدة رسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 29 رجب 1441 (24 مارس 2020)، ص. 1783.

إحداث حساب خصوصي "الصندوق الخاص بتدبير جائحة فيروس

كورونا" لضمان محاربة وباء فيروس كورونا¹؛

الالتزام العزلة الصحية في المنازل كإجراء وقائي ضروري للحد من انتشار

الفيروس من 20 مارس الى غاية 20 أبريل 2020؛

رفع مستوى اليقظة من اللون الأخضر إلى اللون البرتقالي بالمركز الوطني

لعمليات طوارئ الصحة العامة بمديرية علم الأوبئة ومكافحة الأمراض؛

التنسيق بين مختلف المتدخلين والدعم اللوجستيكي الميداني من خلال

المركز الرئيس للتنسيق بين القطاعات؛

الإعلان عن تمديد حالة الطوارئ الصحية وتقييد حركة البلاد إلى غاية

20 ماي 2020؛

إلزامية وضع الكمادات الواقية بالنسبة لجميع الأشخاص المسموح لهم

بالتنقل خارج مقرات سكنهم في الحالات الاستثنائية المقررة سلفا ابتداء من 7

¹- مرسوم رقم 2.20.269 صادر في 21 من رجب 1441 (16 مارس 2020) بإحداث حساب مرصد لأمور خصوصية يحمل اسم " الصندوق الخاص بتدبير جائحة فيروس كورونا كوفيد 19، جريدة رسمية عدد 6865 مكرر بتاريخ 22 رجب 1441 (17 مارس 2020) ص. 1540.

أبريل 2020 وتقنين أسعارها واتخاذ إجراءات توفيرها في كل نقط البيع

بالمملكة¹؛

حظر التنقل الليلي طيلة شهر رمضان من السابعة مساءً إلى الخامسة

صباحاً؛

تطوير تطبيق الكتروني يسمى WIQAYATI قابل للتنزيل على الهاتف

المحمول لتتبع تفاعلات الحالات الإيجابية بمخالطيها المحتملين؛

تمديد حالة الطوارئ الصحية² بسائر التراب الوطني إلى غاية 10 يوليوز

،2020

البدء في التخفيف التدريجي لإجراءات الحجر الصحي، عبر السماح بعودة

الأنشطة الاقتصادية والمهنية تدريجياً وفي احترام تام لإجراءات السلامة،

تقسيم التراب الوطني لمنطقتين مع تفاوت في إجراءات تخفيف الحجر

¹ - بيان مشترك لوزارات الداخلية، والصحة، والاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة، والصناعة والاستثمار والتجارة والاقتصاد الأخضر الرقمي، بتاريخ 7 أبريل 2020.

² - مرسوم رقم 2.40.406 صادر في 17 من شوال 1441 (9 يونيو 2020) بتمديد مدة سريان مفعول حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا- كوفيد19 وبسن مقتضيات خاصة بالتخفيف من القيود المتعلقة بها، جريدة رسمية عدد 6889 مكرر، بتاريخ 17 شوال 1441 (9 يونيو 2020)، ص.3394.

الصحي، وذلك تبعا للحالة الوبائية للجهات والأقاليم، والعمل على تقييم هذه

الأخيرة والإجراءات المواكبة لها أسبوعيا؛

العمل على إجلاء المغاربة العالقين بالخارج، وتسهيل عودتهم لبلادهم

وإخضاعهم لإجراءات الحجر الصحي؛

السماح بعودة قطاع المواصلات بين الجهات والأقاليم التي صنف

ضمن المنطقة 1 والتي شملها تخفيف إجراءات الحجر الصحي؛

الشق المتعلق بالتدابير الاستثنائية للسلطات الصحية؛

على مستوى الترصد واليقظة الوبائية؛

إصدار دوريات بطريقة مستمرة حول تعريف الحالة وطرق التبليغ عنها؛

وضع برنامج لتكوين الأطر الصحية على مستوى الجهات والأقاليم؛

مراقبة وتتبع الحالة الوبائية الدولية لهذا الفيروس بشكل متواصل من

طرف منظومة الرصد والمراقبة الوبائية لوزارة الصحة؛

تقييم يومي للخطر المشكل على البلاد مع التحديث المنتظم لإجراءات

التصدي لهذا الفيروس؛

تعزيز النظام الوطني للمراقبة الوبائية للأمراض التنفسية الحادة
تفعيل خط هاتفى اقتصادى للتبليغ عن الحالات المحتملة والتواصل
مع الأطر الصحية والمواطنين عامة؛
تفعيل مراكز الاتصال الخاص بالتواصل مع الأطر الصحية والمواطنين
عامة للتبليغ عن الحالات المحتملة؛
على مستوى تعبئة البنيات والتجهيزات والطواقم البشرية
تخصيص وتجهيز 72 مؤسسة استشفائية بطاقة استيعابية اجمالية
وصلت إلى 13456 سريراً؛
تعبئة 1214 سرير خاص بالإنعاش بالمستشفيات العمومية؛
التزام ارباب المصحات الخاصة بتعبئة 504 سرير اضافى للإنعاش
تعبئة طاقم طبي من اختصاصى فى التخدير والانعاش يبلغ 985
اقتناء مجموعة من المعدات والتجهيزات الطبية
إحداث وتجهيز مستشفيات عسكريين ميدانيين بينسليمان والنواصر؛
تشيد مستشفى ميداني مؤقت بمكتب أسواق ومعارض الدار البيضاء

بطاقة استيعابية 700 سريرًا؛

تجهيز مختبر متنقل خاص بكوفيد 19 لمراقبة المخالطين والحالات المشتبه بها لتوسيع الاختبارات الفيروسية إلى أقصى درجة ممكنة وتقليص مدة ظهور نتائج التحليل خصوصًا مع بلوغ 10 آلاف تحليله يوميًا؛

تجميع الحالات النشيطة والحالات الإيجابية المستقبلية المصابة بكورونا بمستشفيات ميدانيين بكل من بنجرير وبنسيمان، بهدف فتح المجال في مستشفيات المملكة لعلاج الأنواع الأخرى من الأمراض، وحماية الحالات الإيجابية وكذا محيطها العائلي والمهني، وذلك مع توفير الرعاية اللازمة لها.

على مستوى التكفل والرعاية

تنظيم عدة لقاءات للجنة العلمية والتقنية الوطنية لمناقشة سبل التكفل بحالات كوفيد-19 وتطورات الحالة الوبائية بالمغرب؛

إصدار دورية للخطة التنظيمية للتكفل بحالات كوفيد-19 المحتملة والمؤكدّة بالمؤسسات الصحية بالمغرب وتحيينها حسب معطيات التكفل والبروتوكولات العلاجية في شأنها؛

إصدار دورية حول التكفل بحالات كوفيد-19 باستعمال دواء

الكلوروكين بعد المصادقة على ذلك من طرف اللجنة العلمية والتقنية الوطنية؛

تزويد الأقاليم والجهات بوسائل الوقاية الفردية؛

توفير مستلزمات ووسائل التشخيص الفيروسي؛

تأهيل المختبرات الوطنية المدنية والعسكرية لتشخيص المرض؛

توفير وتعزيز الرعاية الصحية في معزل بالنسبة للحالات المحتملة؛

إعداد وتنفيذ استراتيجية وطنية للكشف المبكر عن حالات كوفيد-19

ووضع تدابير ومخططات للتعامل مع الجائحة.

على مستوى التواصل:

التواصل مع الرأي العام الوطني بطريقة مستمرة حول مستجدات

الوضع الوبائي العالمي والوطني عبر بلاغات صحفية واستجابات عبر القنوات

المرئية والمسموعة وكذلك الجرائد

موعد رسمي يومي لإعطاء تصريح صحفي بالحصيلة اليومية للحالة

الوبائية بالبلاد؛

انتاج العديد من الوصلات التوعوية سواء المرئية أو المسموعة
للتحسيس بتدابير السلامة والحماية من خطر انتقال العدوى بين المواطنين
إجراءات لقاءات يومية تفاعلية من قبل أطباء مختصين بالوزارة على
مواقع التواصل الاجتماعي التابعة للوزارة للرد على تساؤلات المواطنين؛
تفاعل الوزارة مع جميع الأخبار الواردة من كل ربوع المملكة؛
توزيع العديد من المناشير والملصقات التوعوية والتحسيسية المتعلقة
بفيروس كوفيد-19؛

الشق المتعلق بالتدابير الاقتصادية والاجتماعية¹:

إحداث لجنة اليقظة الاقتصادية لمواجهة انعكاسات وباء فيروس
كورونا على الاقتصاد وتحديد الاجراءات الموابكة؛
تأجيل وضع التصاريح الضريبية للشركات إلى غاية نهاية يونيو 2020.
تعليق المراقبة الضريبية للشركات الصغرى والمتوسطة؛
تخفيض سعر الفائدة الرئيسي إلى 2%؛

¹ - عرض وزير الاقتصاد والمالية والإصلاح الإدارة أمام مجلس النواب حول التدابير المالية والاقتصادية لمواجهة لأزمة الناتجة عن جائحة كورونا كوفيد 19، بتاريخ 27 أبريل 2020.

منح تعويض شهري إلى المنخرطين في صندوق الضمان الاجتماعي
والمتوقفين مؤقتاً عن العمل؛

تأجيل سداد القروض البنكية إلى غاية 30 يونيو 2020؛

دعم أرباب الأسر المتوفرين على بطاقة نظام المساعدة الطبية

دعم الأسر التي تعمل في القطاع غير المهيكل؛

تجنيب المقاولات الحاصلة على صفقات عمومية غرامات التأخر في
الإنجاز الذي لا تتحمل مسؤوليته؛

إقرار معالجة محاسبية استثنائية للتبرعات والتكاليف المرتبطة بفترة

حالة الطوارئ الصحية بتوزيعها على مدى 5 سنوات.

المحور الثالث:

التجارب السريرية ورهان إيجاد لقاح لفيروس كورونا

إلى حدود كتابة هذه الأسطر لم تتم الموافقة على أي علاج أو ثبت أنه آمن وفعال لعلاج COVID-19، باستثناء Remdesivir، الذي تم منحه إذن استخدامه للطوارئ في الولايات المتحدة¹، أو chloroquine الذي تم التصريح باستخدامه في معظم الدول على أساس استخدامه ضمن بروتوكول علاجي

¹ - Sanders JM, Monogue ML, Jodlowski TZ, et al. Pharmacologic treatments for coronavirus disease 2019 (COVID-19): a review. JAMA. 2020 April 13.

للمصابين بداء كوفيد-19، أو كجزء من التجارب السريرية¹. غير أن استخدام هذه العلاجات قد تكون له آثار ضارة خطيرة مرتبطة بهذه الأدوية، وأن هذه الآثار السلبية قد تتداخل مع المظاهر السريرية لـ COVID-19، وقد تزيد هذه الأدوية أيضًا من خطر الوفاة عند مريض كبير السن أو مريض يعاني من حالة صحية كامنة. على سبيل المثال: كلوروكين/هيدروكسي كلوروكين، أزيثروميسين، أوسيلتاميفير، ولوبينافير/ريتونافير يمكن أن يرتبطوا على الأرجح بزيادة خطر الموت المفاجئ²، كما يجب أيضًا مراعاة تفاعلات الأدوية مع الأدوية الحالية للمريض، وفي هذا الصدد ومن أجل التوصل لعلاج فعال أطلقت منظمة الصحة العالمية وشركاؤها تجربة Solidarity، وهي دراسة دولية كبيرة لمقارنة أربعة علاجات مختلفة (lopinavir/ritonavir، remdesivir، hydroxychloroquine أو interferon beta، lopinavir/ritonavir، chloroquine/³، ومن جهتها أطلقت سبعة دول أوروبية (بلجيكا، هولندا،

¹ - McCreary EK, Pogue JM. Coronavirus disease 2019 treatment: a review of early and emerging options. Open Forum Infect Dis. 2020 Apr;7(4):ofaa105.

² - Kalil AC. Treating COVID-19: off-label drug use, compassionate use, and randomized clinical trials during pandemics. JAMA Mar 24.

³ - World Health Organization. WHO Director-General's opening remarks at the media briefing on COVID-19 - 11 March 2020. 2020

بريطانيا، ليكسنبورغ، ألمانيا، إسبانيا وفرنسا) مبادرة Discovery و هي أيضا تجارب سريرية لمقارنة أربع علاجات مختلفة و تضم هذه التجربة 3200 مصاب¹. غير أن هذه المبادرات كلها لازالت بعيدة عن الوصول لأي علاج فعال ونهائي، واتسمت إلى حدود الساعة ببطء مخرجاتها و كذا تعثر جهودها التي اصطدمت بالإجراءات الإدارية و صعوبة الوصول للمتطوعين، كما تبقى أعداد الأشخاص الذين شملتهم هذه المبادرات ضعيفة جدا².

تميل الأدوية التي يتم اختبارها من أجل إعادة استخدامها في علاج COVID-19 إلى فئتين: تلك التي تستهدف دورة التكاثر الفيروسي، وتلك التي تهدف إلى السيطرة على أعراض المرض. في ما يلي سنجد أهم العلاجات التي تم تداولها على المستويين الوطني والعالمي:

Chloroquine و hydroxychloroquine:

إن chloroquine و hydroxychloroquine هي كوابح البوليميراز

¹ - « Lancement d'un essai clinique européen contre le Covid-19 », INSERM, 22 mars 2020 (consulté le 29 mai 2020).

² - H. Morin Covid-19 : « Sur les essais cliniques, l'Europe est un échec ». Le Monde du 4 mai. 2020

-Jean-Yves Nau. COVID-19: la faillite annoncée de l'essai clinique européen discovery. Rev Med Suisse 2020; volume 16. 1062-1063. 20 mai 2020

تستخدم بشكل أساسي كأدوية مضادة للملاريا. في الملاريا، تثبط الهيم بوليميراز، مما يتسبب في تراكم الهيم السام في الطفيلي، مما يؤدي إلى موته¹. في حالة كوفيد-19 يعتقد أن الأدوية تبقى الفيروس بعيداً عن الخلايا المضيفة أو خلايا جسم الإنسان عن طريق منع الارتباط بالجليكوزيل لمستقبلات المضيف وكسر إنتاج البروتينات الفيروسية عن طريق تثبيط تحمض الإندوسومال²، واعتمدت مجموعة من الدول chloroquine وhydroxychloroquine³ كجزء من بروتوكولها العلاجي وفي مقدمتها المغرب، حيث أصدرت وزارة الصحة بتاريخ 23 مارس 2020. مذكرة باستخدام بروتوكول علاجي يركز على chloroquine-hydroxy و Azithromycine⁴ لتكون بذلك أول دولة إفريقية تنضم للدول التي أعلنت استخدامها لهذا العلاج (فرنسا،

¹ -Wang M, Cao R, Zhang L, et al. Remdesivir and chloroquine effectively inhibit the recently emerged novel coronavirus (2019-nCoV) in vitro. Cell Res. 2020 Mar;30(3):269-71

² - Cortegiani A, Ingoglia G, Ippolito M, et al. A systematic review on the efficacy and safety of chloroquine for the treatment of COVID-19. J Crit Care. 2020 Jun;57:279-83.

³ - Gautret P, Lagier JC, Parola P, et al. Hydroxychloroquine and azithromycin as a treatment of COVID-19: results of an open-label non-randomized clinical trial. Int J Antimicrob Agents. 2020 Mar 20:105949

⁴ -الدورية الوزارية رقم 22 الموجهة إلى مهني الصحة بتاريخ 23 مارس.

إيطاليا، أمريكا...)، لتحده مجموعة من الدول الإفريقية حدو المغرب وأبرزها
السينيغال والجزائر وغينيا وتونس وتوغو ونيجيريا.

غير أنه وفي إعلان مفاجئ، أعلنت منظمة الصحة العالمية، يوم
الاثنين 25 ماي، إيقاف تجارب استخدام عقار هيدروكسي كلوروكوين
المضاد للملاريا، في مواجهة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، بسبب
مخاوف تتعلق بالسلامة، واتخذت منظمة الصحة العالمية القرار، بعد نشر
دراسة في مجلة The Lancet الطبية، الجمعة 22 ماي، والتي سلطت الضوء
على خطورة العقار على مرضى فيروس كورونا، حيث أثبتت الدراسة تزايد
معدلات الوفيات بين مرضى فيروس كورونا الذين تم منحهم العقار، بسبب
أزمات قلبية.

بعد إعلان منظمة الصحة العالمية تعليق التجارب استخدام
كلوروكوين، أعلنت المنظمة الأوروبية أيضا إيقاف تجاربها والتي تندرج ضمن
مشروع¹ Discovrey. في فرنسا، أصدر المجلس الأعلى للصحة العامة بيانا

¹ -Mandeep RM, Sapan SD, Frank R, Amit NP. Hydroxychloroquine or chloroquine with or without a macrolide for treatment of COVID-19: a multinational registry analysis. Lancet. 2020 May 22, DOI:https://doi.org/10.1016/S0140-6736(20)31180-6

حول استخدام الكلوروكين لعلاج Covid-19 بعد هذه الدراسة، وبالتالي تم إلغاء المرسوم الذي يأذن باستخدامه في المؤسسات الاستشفائية الفرنسية¹. على الرغم من قرار منظمة الصحة العالمية بتعليق استخدامه مؤقتاً قرر المغرب يوم الأربعاء 27 مايو 2020 الحفاظ على بروتوكول الكلوروكين ضد Covid-19، الوزارة الوصية وبعد استشارتها للخبراء والمختصين المغاربة وكذا أطرها باتت مقتنعة بالآثار الإيجابية لهيدروكسي كلوروكين المرتبط بالأرتيميسينين. وبحسب إحصائيات رسمية، تم شفاء 4,841 حالة من أصل 7,554 من حالات الكوفيد-19 المسجلة في البلاد إلى حدود 26 ماي 2020، أي بنسبة شفاء تبلغ 64٪، بعد البروتوكول المذكور. والباقي قيد المعالجة². وتبقى المملكة المغربية بعيدة كل البعد عن كونها حالة معزولة في شمال إفريقيا، فجارتها المباشرة الجزائر حدت نفس الحدود بالإضافة لتشاد والسينيغال³. هذا الموقف الثابت والموفق من طرف الدولة المغربية سرعان ما قابله تراجع منظمة

¹ -Avis relatif à l'utilisation de l'hydroxychloroquine dans le Covid-19, Haut conseil de la santé publique, France. Site web :

<https://www.hcsp.fr/explore.cgi/avisrapportsdomaine?clefr=837>

² <https://www.sante.gov.ma/sites/Ar/Pages/communiqu%C3%A9s.aspx?communiquelD=629>.

³ -Présentation du ministre de la santé

الصحة العالمية عن قرارها وقد جاء هذا القرار على لسان مديرها العام الذي صرح يومه 03 يونيو 2020 على استئناف التجارب السريرية الخاصة بهذا العقار وذلك إثر سحب مجلة The lancet البريطانية الدراسة السالفة الذكر¹. كما عززت المنظمة قرارها بنتائج برنامج " اكتشاف " الأوروبي و " علاج " البريطاني التي أكد أن علاج لا يسبب الموت المفاجئ كما زعمت دراسة The lancet السابقة قبل سحبها².

Remdesivir

يعمل هذا العلاج كمضاد للفيروسات بشكل واسع النطاق، وعلى المستوى المخبري أظهر نشاطاً ضد متلازمة الجهاز التنفسي الحادة الوخيمة (سارس 2) في الولايات المتحدة، حيث أصدرت إدارة الغذاء والدواء ترخيصاً للاستخدام في حالات الطوارئ من أجل علاج حالات COVID-19 المشتبه فيها

¹ ندوة الصحفية للمدير العام لمنظمة الصحة العالمية يوم 03 يونيو 2020 بمقرها الرسمي بجنيف السويسرية

² - Organisation mondiale de la santé, Informations actualisées sur l'hydroxychloroquine. Initialement postées le 27 mai 2020, mises à jour le 17 juin 2020. <https://www.who.int/fr/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/global-research-on-novel-coronavirus-2019-ncov/solidarity-clinical-trial-for-covid-19-treatments> (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليو 2020)

أو المؤكدة في البالغين والأطفال¹. ومؤخراً قامت الوكالة الأوروبية للأدوية (EMA) بإطلاق برنامج إعادة التصميم وتطوير هذا العلاج الذي كان في البداية يستخدم ضد الإيبولا. بعد خضوعه للتقييم وخاصة تقييم المخاطر، وفي هذا الإطار أصدرت الوكالة الأوروبية للأدوية يوم الخميس 25 يونيو 2020 ترخيصاً مشروطاً لتسويقه في جميع دول الاتحاد الأوروبي ضد كوفيد-19، فيما ينتظر الخبراء الأوروبيون ترخيص المفوضية الأوروبي².

Lopinavir/ritonavir

تمت الموافقة حالياً على كابح الأنزيم البروتيني وهو مضاد للفيروسات يستخدم لعلاج عدوى فيروس نقص المناعة المكتسبة. تم استخدام Lopinavir/ritonavir في التجارب السريرية لعلاج كوفيد-19. وقد أظهرت دراسة أجريت على عينة صغيرة نتائج سريرية ملتبسة وغير جازمة بشأن

¹ - US Food and Drug Administration. Coronavirus (COVID-19) update: FDA issues emergency use authorization for potential COVID-19 treatment. <https://www.fda.gov/news-events/press-announcements/coronavirus-covid-19-update-fda-issues-emergency-use-authorization-potential-covid-19-treatment> (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليو 2020)

² - European Medicines Agency First COVID-19 treatment recommended for EU authorization <https://www.ema.europa.eu/en/news/first-covid-19-treatment-recommended-eu-authorisation> (تاريخ آخر اطلاع، فاتح يوليو 2020)

استخدام هذا النوع من العلاج¹. كما أوضح تتبع الحالة المرضية لـ 200 مريض يعانون من مرض مزمنة ومصابون بفيروس كوفيد-19 أن العلاج باستخدام lopinavir/ritonavir أو عدمه لم يغير نسبة الوفيات أو التعافي، وكان معدل الوفيات لمدة 28 يومًا مماثلًا في كلا الحالتين. إذن لا يوجد حاليًا أي دليل قوي على فعالية lopinavir/ritonavir في علاج COVID-19². كما خلصت الدراسات إلى أنه يجب استخدامه فقط في سياق التجارب السريرية³.

بلازما النقاهاة

تم استخدام بلازما النقاهاة أو خلايا البلازما المستخرجة من أجسام المرضى الذين تعافوا من الالتهابات الفيروسية كعلاج في حالات تفشي الفيروسات السابقة بما في ذلك السارس وأنفلونزا الطيور وعدوى فيروس

¹ -Young BE, Ong SWX, Kalimuddin S, et al. Epidemiologic features and clinical course of patients infected with SARS-CoV-2 in Singapore. JAMA. 2020 Mar 3;323(15):1488-94.

² -Dashraath P, Jing Lin Jeslyn W, Mei Xian Karen L, et al. Coronavirus disease 2019 (COVID-19) pandemic and pregnancy. Am J Obstet Gynecol. 2020 Mar 23

³ - National Institutes of Health. Coronavirus disease 2019 (COVID-19) treatment guidelines. 2020

الإيبولا¹. بدأت التجارب السريرية لتحديد سلامة وفعالية البلازما النقاهاة والتي تحتوي على أجسام مضادة لـ SARS-CoV-2 في المرضى الذين يعانون من كوفيد-19². وقد خلصت دراسة مقارنة لخمس دراسات أن بلازما النقاهاة قد تقلل من الوفيات لدى المرضى المصابين بأمراض خطيرة، ولها تأثير مفيد على الأعراض السريرية، وتقلل من الحمل الفيروسي.

في الولايات المتحدة الامريكية، تقوم إدارة الغذاء والدواء الأمريكية بتسهيل الوصول إلى بلازما النقاهاة كوفيد-19، وتشجع إدارة الغذاء والدواء (FDA) المرضى الذين تعافوا للتبرع بالبلازما³. لكن لا توجد حاليًا أدلة كافية للتوصية باستخدام أو ضد استخدام بلازما النقاهاة⁴ لعلاج كوفيد-19 لكن الدراسات لا تزال جارية من أجل تطوير لقاحات باستخدام هذه الخلايا

¹ - Chen L, Xiong J, Bao L, et al. Convalescent plasma as a potential therapy for COVID-19. Lancet Infect Dis. 2020 Apr;20(4):398-400.

² - ClinicalTrials.gov. Anti-SARS-CoV-2 inactivated convalescent plasma in the treatment of COVID-19. 2020

³ - US Food and Drug Administration. Coronavirus (COVID-19) update: FDA encourages recovered patients to donate plasma for development of blood-related therapies. 2020 [internet publication].

⁴ - US Food and Drug Administration. Investigational COVID-19 convalescent plasma. 2020

ومضادات الأجسام التي تحتوي عليها¹.

العلاج بالخلايا الجذعية

تقوم مجموعة من المختبرات في العالم بالتحقق من نجاعة الخلايا الجذعية في علاج مرضى كوفيد-19 في التجارب السريرية. ويُعتقد أن الخلايا الجذعية الوسيطة يمكن أن تقلل من التغيرات المرضية التي تحدث في الرئتين، وتمنع الاستجابة الالتهابية المناعية الخلوية².

الغلوبولين المناعي، ويُسمى أيضًا الغلوبولين المناعي البشري العادي

يتم تجربة الغلوبولين المناعي (IVIG) في بعض المرضى المصابين بكوفيد المستجد³، كما يتم تطوير علاج يعتمد على استخدام مزيج من الأجسام المضادة⁴. ووجدت دراسة بأثر رجعي لـ 58 مريضًا يعانون من كوفيد-19

¹ - US Food and Drug Administration. Investigational COVID-19 convalescent plasma: emergency INDs. 2020

² - ClinicalTrials.gov. Mesenchymal stem cell treatment for pneumonia patients infected with 2019 novel coronavirus. 2020

³ - Jawhara S. Could intravenous immunoglobulin collected from recovered coronavirus patients protect against COVID-19 and strengthen the immune system of new patients? Int J Mol Sci. 2020 Mar 25;21(7).

⁴ - Regeneron. Regeneron announces important advances in novel COVID-19 antibody program. 2020

الشديدة أن IVIG ، عند استخدامه كعلاج مساعد في غضون 48 ساعة من الإصابة، قد يقلل من استخدام التهوية الميكانيكية أو التنفس الاصطناعي، ويقلل من البقاء في المستشفى / وحدة العناية المركزة، كما يقلل من الوفيات قبل 28 يوما من الإصابة؛ ومع ذلك، كان لهذه الدراسة العديد من القيود التي أجبرت الباحثين على الإقرار أنه لا توجد حاليًا أدلة كافية للتوصية إما باستخدام أو ضد استخدام IVIG لعلاج كوفيد المستجد¹ من جانب آخر توصي لجنة المبادئ التوجيهية للمعاهد الوطنية للصحة الأمريكية بعدم استخدام IVIG غير الخاص بالسارس CoV-2 -لعلاج كوفيد-19 إلا في سياق التجارب السريرية².

لقاح *Bacille Calmette-Guerin (BCG)*

يتم اختبار لقاح BCG في بعض البلدان، كهلندا، استراليا وجنوب إفريقيا، للوقاية من كوفيد-19، بما في ذلك العاملين في مجال الرعاية الصحية.

¹ - Xie Y, Cao S, Li Q, et al. Effect of regular intravenous immunoglobulin therapy on prognosis of severe pneumonia in patients with COVID-19. J Infect. 2020 Apr 10

² - National Institutes of Health. Coronavirus disease 2019 (COVID-19) treatment guidelines. 2020

وهناك بعض الأدلة على أن لقاح BCG يمنع التهابات الجهاز التنفسي الأخرى لدى الأطفال وكبار السن بواسطة تحريض الذاكرة المناعية. ومع ذلك، لا يوجد دليل يدعم استخدامه في كوفيد-19، ولا توصي منظمة الصحة العالمية بذلك للوقاية من كوفيد-19¹.

Bemcentinib

أظهر Bemcentinib سابقًا دورًا في علاج السرطان، ولكن تم الإعلان أيضًا عن وجود نشاط مضاد للفيروسات في النماذج قبل السريرية، بما في ذلك النشاط ضد السارس-CoV-2. إنه المرشح الأول الذي يتم اختياره كجزء من دراسة لمعهد تسريع البحث والتطوير في المملكة المتحدة ضد كوفيد-19 (ACCORD). كما يؤكد المركز البريطاني أن هذا العلاج قد وصل للمرحلة الثانية من البحث².

مضادات الفيروسات الأخرى

¹ - World Health Organization. Bacille Calmette-Guérin (BCG) vaccination and COVID-19. 2020

² - Department of Health and Social Care. COVID-19 treatments could be fast-tracked through new national clinical trial initiative. 2020

تتم تجربة العديد من الأدوية المضادة للفيروسات الأخرى (العلاج الأحادي والعلاج المركب) في المرضى الذين يعانون من كوفيد-19 (على سبيل المثال، oseltamivir، darunavir، ganciclovir، favipiravir، baloxavir، marboxil، umifenovir، ribavirin¹، interferon)، قد يكون العلاج أحادي متفوقاً على لوبينافير/ريتونافير في علاج كوفيد-19 من حيث انخفاض تواجد

¹ - Zeng YM, Xu XL, He XQ, et al. Comparative effectiveness and safety of ribavirin plus interferon-alpha, lopinavir/ritonavir plus interferon-alpha and ribavirin plus lopinavir/ritonavir plus interferon-alpha in patients with mild to moderate novel coronavirus pneumonia. Chin Med J (Engl). 2020 May 5;133(9):1132-4.

- Chinese Clinical Trial Registry. Randomized, open-label, controlled trial for evaluating of the efficacy and safety of baloxavir marboxil, favipiravir, and lopinavir-ritonavir in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19) patients. 2020

- Chinese Clinical Trial Registry. Clinical study of arbidol hydrochloride tablets in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19). 2020

- Chinese Clinical Trial Registry. Clinical study for safety and efficacy of favipiravir in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19). 2020

- Li H, Wang YM, Xu JY, et al. Potential antiviral therapeutics for 2019 novel coronavirus [in Chinese]. Zhonghua Jie He He Hu Xi Za Zhi. 2020 Mar 12;43(3):170-2.

- Synairgen. COVID-19. 2020

- ClinicalTrials.gov. Efficacy and safety of darunavir and cobicistat for treatment of pneumonia caused by 2019-nCoV (DACO-nCoV). 2020

- Deng L, Li C, Zeng Q, et al. Arbidol combined with LPV/r versus LPV/r alone against corona virus disease 2019: a retrospective cohort study. J Infect. 2020 Mar 11

الأجسام الفيروسية¹، غير أنه شرع مجموعة من الخبراء في اختبار علاجات مركبة (الإنترفيرون بيتا 1 بلوبينافير/ريتونافير)، وهم الآن في المرحلة الثانية من البحث².

من جانب آخر نشرت مجلة Nature العلمية يوم 24 يونيو 2020 نتائج لأبحاث خلصت لرسم الخريطة البروتينية للفيروس³، هذا الإكتشاف سيساهم بشكل كبير في فك شفرة هذا المرض وتسريع وتيرة البحث عن دواء فعال. لكن بالنسبة لأي دواء، يحتاج الباحثون إلى تجارب إكلينيكية أو سريرية صلبة، قبل استخدامها غير أن سرعة انتشار كوفيد-19 واجتياحه للعالم فرض سياسة استعجالية تقضي بإصدار تراخيص مؤقتة واستعجالية لاستعمال بعض العلاجات المقترحة. غير أن العالم اليوم حريص على عدم تكرار الأخطاء التي ارتكبت مع الكلوروكين وهيدروكسيكلوروكين، والتي أصبحت مفرطة بطريقة تعيق التجارب السريرية وإمدادات الدواء. فالأصل في تجارب البحث

¹ - Zhu Z, Lu Z, Xu T, et al. Arbidol monotherapy is superior to lopinavir/ritonavir in treating COVID-19. J Infect. 2020 Apr 10

² - Hung IF, Lung KC, Tso EY, et al. Triple combination of interferon beta-1 b, lopinavir-ritonavir, and ribavirin in the treatment of patients admitted to hospital with COVID-19: an open-label, randomized phase 2 trial. Lancet. 2020 May 8

³ -Nature, A finely detailed map reveals a viral protein's Achilles heel. <https://www.nature.com/articles/d41586-020-00502-w>

عن الدواء أن كل دواء قبل استعماله في المستشفيات أو طرحه في الأسواق يجب أن يمر من ستة مراحل ضرورية وملزمة حسب ما تقره منظمة الصحة العالمية¹ ومنظمة الدواء والغذاء الأمريكية وهي²:

تصميم اللقاحات: يدرس العلماء أحد مسببات الأمراض ويقررون كيف سيحصلون على لقاح يسهل للجهاز المناعي للتعرف عليه أو سيقوم بالتصدي المباشر للمرض.

دراسات على الحيوانات: يتم اختبار لقاح جديد في النماذج الحيوانية بحثًا عن المرض لإثبات أنه يعمل وليس له آثار ضارة شديدة.

التجارب السريرية (المرحلة الأولى): تمثل الاختبارات الأولى في البشر واختبار سلامة اللقاح وجرعته وآثاره الجانبية. تسجل هذه التجارب فقط مجموعة صغيرة من المرضى.

التجارب السريرية (المرحلة الثانية): هذا تحليل أعمق لكيفية عمل

¹ - ClinicalTrials.gov. Efficacy and safety of darunavir and cobicistat for treatment of pneumonia caused by 2019-nCoV (DACO-nCoV). 2020

² - "Step 3. Clinical research". US Food and Drug Administration. 14 October 2016. Retrieved 1 February 2017.

الدواء أو اللقاح بيولوجيًا. تتضمن مجموعة أكبر من المرضى ويتم تقييم الاستجابات والتفاعلات الفسيولوجية مع العلاج

التجارب السريرية (المرحلة الثالثة): تشهد المرحلة النهائية من التجارب كمية أكبر من الأشخاص الذين تم اختبارهم على مدى فترة طويلة من الزمن. الموافقة التنظيمية: وتمثل العقبة النهائية وهي الحصول على الموافقة لاستعمال الدواء من الوكالات التنظيمية أو الوزارة المسؤول، وتمثل إدارة الغذاء والدواء الأمريكية، ووكالة الأدوية الأوروبية وإدارة السلع العلاجية الأسترالية أكبر المؤسسات وأشدّها تدقيقاً؛ حيث تلقي نظرة على الأدلة المتاحة من التجارب ونتائجها وتخلص إلى ما إذا كان يجب إعطاء اللقاح للجميع واعتماده كخيار علاجي.

خاتمة:

إلى حدود الساعة لزال فيروس كورونا المستجد يسجل أرقاماً قياسية في عدد الإصابات المؤكدة، حيث يتزايد تفشي الفيروس يوماً بعد يوم ويجتاح مختلف بقاع العالم، وتتأرجح درجة التفشي حسب مستوى جهود الدول وإجراءاتها في التصدي لهذه الجائحة؛ إذ يتضح أن بعض الدول قد نجحت في

التغلب على تفشي الفيروس، وذلك بناء على جدية إجراءات الحجر الصحي ومدى احترامه، في حين أن التراخي في فرض إجراءات الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي، جعل دولاً أخرى تعتبر بؤراً لتفشي الفيروس. وعلى المستوى الوطني، فقد تمكن المغرب من فرض إجراءات احترازية فعالة قلصت بشكل كبير من تفشي الفيروس، وجنبت البلاد سيناريو الانهيار أمام الفيروس، كما هو الحال بالنسبة لبعض الدول الأوروبية المجاورة.

أما على المستوى العلاجي، فإلى حدود كتابة هذه الأسطر لم تعلن أية جهة على أن علاجاً قد تجاوز هذه المراحل كلها فأغلب العلاجات لم تتجاوز المرحلة الثالثة وبالتالي لا يزال الحديث عن علاج فعال ونهائي لهذا الفيروس بعيداً عن المتناول، رغم تضافر جهود المؤسسات الدولية ومؤسسات الصناعية وحتى العسكرية منها لتسريع وتيرة البحث، لكن وحتى في حالة اختراع علاج جديد يبدو أن إيصاله لملايين المصابين سيكون تحدياً جديداً.

لائحة المراجع:

لائحة المراجع بالعربية:

القوانين:

- مرسوم بقانون 2.20.292 صادر في 28 رجب 1441 (23 مارس 2020) يتعلق بسن أحكام خاصة بحالة الطوارئ الصحية وإجراءات الإعلان عنها، جريدة رسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 29 رجب 1441 (24 مارس 2020)
- مرسوم رقم 2.20.293 صادر في 29 رجب 1441 (24 مارس 2020) بإعلان

حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا-كوفيد 19، جريدة رسمية عدد 6867 مكرر، بتاريخ 29 رجب 1441 (24 مارس 2020)

- مرسوم رقم 2.20.269 صادر في 21 من رجب 1441 (16 مارس 2020) بإحداث حساب مرصد لأمر خصوصية يحمل اسم " الصندوق الخاص بتدبير جائحة فيروس كورونا كوفيد 19، جريدة رسمية عدد 6865 مكرر بتاريخ 22 رجب 1441 (17 مارس 2020)

- مرسوم رقم 2.40.406 صادر في 17 من شوال 1441 (9 يونيو 2020) بتمديد مدة سريان مفعول حالة الطوارئ الصحية بسائر أرجاء التراب الوطني لمواجهة تفشي فيروس كورونا- كوفيد 19 وبسن مقتضيات خاصة بالتخفيف من القيود المتعلقة بها، جريدة رسمية عدد 6889 مكرر، بتاريخ 17 شوال 1441 (9 يونيو 2020)

- الدورية الوزارية رقم 22 الموجهة إلى مهني الصحة بتاريخ 23 مارس

المواقع الرسمية:

- البوابة الرسمية لفيروس كورونا بالمغرب www.covidmaroc.ma

- الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية المكتب الإقليمي لشرق المتوسط www.emro.who.int

- الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية www.who.int.

- الموقع الرسمي لوزارة الصحة المغربية / www.sante.gov.ma
- الموقع الرسمي www.worldometers.info
- الموقع الرسمي لوزارة الصحة بنيوزيلندا: www.health.govt.nz
- الموقع الرسمي لجامعة هوبكينز www.jhu.edu
- الدليل الرسمي للإعلانات والخدمات الحكومية الأمريكية
www.usa.gov/after-disaster
- الموقع الرسمي لمعهد BROOKINGS للأبحاث والدراسات
www.brookings.edu/research

تقارير وندوات:

- تقرير لمنظمة الصحة العالمية حول استراتيجية كوفيد 19 المحدثة ، صدر بتاريخ 14 أبريل 2020
- عرض وزير الصحة أمام لجنة القطاعات الاجتماعية بمجلس النواب يومه 28 ماي 2020. " جائحة كورونا ببلادنا: تدابير التصدي وتصورات الخلاص.
- ندوة الصحفية للمدير العام لمنظمة الصحة العالمية يوم 03 يونيو 2020 بمقرها الرسمي بجنيف السويسرية
- لائحة المراجع باللغة الأجنبية:

Articles :

- Sanders JM, Monogue ML, Jodlowski TZ, et al. Pharmacologic treatments for coronavirus disease 2019 (COVID-19): a review. JAMA. 2020 April 13
- McCreary EK, Pogue JM. Coronavirus disease 2019 treatment: a review of early and emerging options. Open Forum Infect Dis. 2020 Apr;7(4):ofaa105.
- Kalil AC. Treating COVID-19: off-label drug use, compassionate use, and randomized clinical trials during pandemics. JAMA Mar 24
- Wang M, Cao R, Zhang L, et al. Remdesivir and chloroquine effectively inhibit the recently emerged novel coronavirus (2019-nCoV) in vitro. Cell Res. 2020 Mar;30(3):269-71
- Cortegiani A, Ingoglia G, Ippolito M, et al. A systematic review on the efficacy and safety of chloroquine for the treatment of COVID-19. J Crit Care. 2020 Jun;57:279-83.
- Gautret P, Lagier JC, Parola P, et al. Hydroxychloroquine and azithromycin as a treatment of COVID-19: results of an open-label non-randomized clinical trial. Int J Antimicrob Agents. 2020 Mar 20:105949

- Dashraath P, Jing Lin Jeslyn W, Mei Xian Karen L, et al. Coronavirus disease 2019 (COVID-19) pandemic and pregnancy. *Am J Obstet Gynecol*. 2020 Mar 23
- Young BE, Ong SWX, Kalimuddin S, et al. Epidemiologic features and clinical course of patients infected with SARS-CoV-2 in Singapore. *JAMA*. 2020 Mar 3;323(15):1488-94.
- Chen L, Xiong J, Bao L, et al. Convalescent plasma as a potential therapy for COVID-19. *Lancet Infect Dis*. 2020 Apr;20(4):398-400.
- Jawhara S. Could intravenous immunoglobulin collected from recovered coronavirus patients protect against COVID-19 and strengthen the immune system of new patients? *Int J Mol Sci*. 2020 Mar 25;21(7).
- Xie Y, Cao S, Li Q, et al. Effect of regular intravenous immunoglobulin therapy on prognosis of severe pneumonia in patients with COVID-19. *J Infect*. 2020 Apr 10
- Zeng YM, Xu XL, He XQ, et al. Comparative effectiveness and safety of ribavirin plus interferonalpha, lopinavir/ritonavir plus interferon-alpha and ribavirin plus lopinavir/ritonavir plus interferonalpha in

patients with mild to moderate novel coronavirus pneumonia. Chin Med J (Engl). 2020 May 5;133(9):1132-4.

- Zhu Z, Lu Z, Xu T, et al. Arbidol monotherapy is superior to lopinavir/ritonavir in treating COVID-19. J Infect. 2020 Apr 10

- Hung IF, Lung KC, Tso EY, et al. Triple combination of interferon beta-1 b, lopinavir-ritonavir, and ribavirin in the treatment of patients admitted to hospital with COVID-19: an open-label, randomised, phase 2 trial. Lancet. 2020 May 8

- Mandeep RM, Sapan SD, Frank R, Amit NP. Hydroxychloroquine or chloroquine with or without a macrolide for treatment of COVID-19: a multinational registry analysis. Lancet. 2020 May 22.

- Li H, Wang YM, Xu JY, et al. Potential antiviral therapeutics for 2019 novel coronavirus [in Chinese]

- Zhonghua Jie He He Hu Xi Za Zhi. 2020 Mar 12;43(3):170-2. Synairgen. COVID-19. 2020

- H. Morin Covid-19 : « Sur les essais cliniques, l'Europe est un échec ». Le Monde du 4 mai. 2020

- Jean-Yves Nau. COVID-19: la faillite annoncée de l'essai clinique

européen discovery. Rev Med Suisse 2020; volume 16. 1062-1063. 20 mai 2020

- Nature, A finely detailed map reveals a viral protein's Achilles heel. www.nature.com

- Deng L, Li C, Zeng Q, et al. Arbidol combined with LPV/r versus LPV/r alone against corona virus disease 2019: a retrospective cohort study. J Infect. 2020 Mar 11

Reports and seminars:

- World Health Organization. WHO Director-General's opening remarks at the media briefing on COVID-19 - 18 March 2020. 2020

- National Institutes of Health. Coronavirus disease 2019 (COVID-19) treatment guidelines. 2020

- ClinicalTrials.gov. Anti-SARS-CoV-2 inactivated convalescent plasma in the treatment of COVID-19. 2020

- US Food and Drug Administration. Coronavirus (COVID-19) update: FDA encourages recovered patients to donate plasma for development of blood-related therapies. 2020 [internet publication].

- US Food and Drug Administration. Investigational COVID-19 convalescent plasma. 2020
- US Food and Drug Administration. Investigational COVID-19 convalescent plasma: emergency INDs. 2020
- ClinicalTrials.gov. Mesenchymal stem cell treatment for pneumonia patients infected with 2019 novel coronavirus. 2020
- Regeneron. Regeneron announces important advances in novel COVID-19 antibody program. 2020
- World Health Organization. Bacille Calmette-Guérin (BCG) vaccination and COVID-19. 2020
- Department of Health and Social Care. COVID-19 treatments could be fast-tracked through new national clinical trial initiative. 2020
- Chinese Clinical Trial Registry. Randomized, open-label, controlled trial for evaluating of the efficacy and safety of baloxavir marboxil, favipiravir, and lopinavir-ritonavir in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19) patients. 2020
- Chinese Clinical Trial Registry. Clinical study of arbidol hydrochloride tablets in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19).

2020

- Chinese Clinical Trial Registry. Clinical study for safety and efficacy of favipiravir in the treatment of novel coronavirus pneumonia (COVID-19). 2020
- "Step 3. Clinical research". US Food and Drug Administration. 14 October 2016. Retrieved 1 February 2017.
- ClinicalTrials.gov. Efficacy and safety of darunavir and cobicistat for treatment of pneumonia caused by 2019-nCoV (DACO-nCoV). 2020
- «Lancement d'un essai clinique européen contre le Covid-19», INSERM, 22 mars 2020 (consulté le 29 mai 2020)
- US Food and Drug Administration. Coronavirus (COVID-19) update: FDA issues emergency use authorization for potential COVID-19 treatment. <https://www.fda.gov/>
- Organisation mondiale de la santé, Informations actualisées sur l'hydroxychloroquine. Initialement postées le 27 mai 2020, mises à jour le 17 juin 2020.

